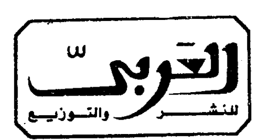
أحوال مصر من عصر لعصر

د. أحمد عوف



٦٠ شارع القصر العينى - أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة
ت : ٣٥٤٧٥٦٦ - ٣٥٥٤٥٢٩



بسم الله الرحمن الرحيم

رجاء ونداء :

"بعد قراءة هذا الكتاب . . أقول للمصريين جميعا :
من يكره مصر فليرمها بحجر أو يلق بها فى سقر . .

فكفاها ما كفاها .-"

ملامح الكتاب

هذه صحائف مصر ... عارية بلا زيف . وهي ليست تاريخا لها بقدر ما هي تقييم شامل للاحداث التي عاصرتها . والكتاب (بانوراما) تاريخية بعيدا عن أراجيف المؤرخين . ورحلة في أغوار العصور التي ألمت بمصر منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين (الخامس عشر هجرى) . لنكون علي بينة بخبايا وخفايا هذا التاريخ بلا تحيز أو تطرف أو مغالاة بعيدا عن أى إيديولوجية أو عواطف قد تجعلنا نضل أو نتحيز . والحقائق أقصر طريق للوصول إلى الحقيقة والإقناع لدمغ الباطل وتبديده .

فإذا كان لكل عهد كتابه ... فللتاريخ قضاته . وإذا كان لكل عصر حكامه فللمؤرخ أحكامه. وأصدق وصف للمصريين أنهم سيدخلون الجنة بلا حساب . لأن ما رأوه من عذاب الدنيا طوال تاريخهم سيعفيهم من حساب الآخرة . فمصر طوال تاريخها أشبه برجل يعيش في داره مع أهله آمنا مطمئنا فيدخل عليه لص مسلح ليلقى به وبأهله في العراء حفاة عراة إلى مصير مجهول تاركهم يندبون حظهم أمام باب بيتهم .

والمصريون يخالفون شعوب أهل الأرض في عاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم بحكامهم . وهذه العلاقة المتناقضة أوجدتها التراكمات التاريخية خلال العهود التي مرت بها بلادهم . حتي نجد الشخصية المصرية لها مزاج خاص بها . وهذا المزاج يتحكم فيه إتجاهان واضحان هما " الدين والمال " . وهذان الإتجاهان يعتبران مفتاح الشخصية المصرية وما عدا هذا لم يكن يهم المصريون من يحكمهم بقدر ما كان يهمهم من يقترب من عقائدهم أو عاداتهم أو تقاليدهم أو من كان يظلمهم في أموالهم أو ضرائبهم أو أرضهم . لهذا نجدهم دائما في واد وحكامهم في واد آخر . ولهذا - أيضا - نجد أن هذا المزاج المصرى هو مؤشر الإستقرار والرخاء في مصر . فإذا إختل إختلت معه أمور البلاد . وهذا ما سنطالعه في الكتاب . وقد يقال أن الرخاء مرتبط بفيضان النيل وهذا الرأى لا يقاس عليه . فأيام الدولة الطولونية قد قل ورغم هذا عم الرخاء ... وأيام الخديو إسماعيل قد فاض وأدخل الميكنة الزراعية ومع هذا خربت البلاد . وفي النصف الثاني من هذا القرن أغنانا السد العالى عن الفيضان ورغم هذا نجد الأزمات الاقتصادية تلاحقنا أكثر من عقدين .

والمصريون لا يهمهم من يحكمهم .... فلقد حكمهم أطفال وصبيان وعبيد .. لكن مع كل

هذا كان يهمهم من يظلمهم . فنجد كل انتفاضاتهم ليست لتغيير الحكام لكنها شكوى من إرتفاع الضرائب أو الأسعار أو لتوفير السلع أيام المجاعات أو للحفاظ علي العادات أو التقاليد ، كما كان أيام نابليون . فالمصريون إستقبلوا الحملة الفرنسية بالزغاريد والأحضان لأنها ستخلصهم من ظلم المماليك .. لكن عندما ضيق عليهم نابليون في الضرائب ودخلت خيوله الأزهر وفرض عليهم إجراء صحيا لعنوه وثاروا عليه وجعلوا من مصر جحيما له ولعساكره . عكس الإسكندر الأكبر لما أتى مصر واحترم تقاليدها وعاداتها نصبه الكهنة إبن الاله آمون واستولى علي مصر بلا حرب . وهذه الحقيقة إنتبه لها نابليون وهو في منفاه بسانت هيلانة حيث قال في مذكراته : "لقد حصل الإسكندر علي مصر باحترامه لعادات وتقاليد المصريين بدلا من أن يغزوها بمائة ألف جندي مقدوني" . لهذا لما أتى كرومر إلي مصر أيام الاحتلال البريطاني ترك الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية للخديو وخفض الضرائب علي الفلاحين فأصبح عهده ذهبيا للفلاح المصرى لكن بعد حادثة (دنشواي) عام ١٩٠٦ لعنه المصريون وثاروا ضده وضد الإحتلال .

والأقباط لم يحكموا مصر طوال تاريخهم . وقد حكمهم البيزنطيون المسيحيون طوال تاريخهم قبل الفتح الإسلامى . وكانوا أيام البيزنطيين (الروم) يلاقون التعذيب والتشريد . حتى نجد أن شهداء الكنيسة القبطية هم شهداء هذه الفترة التى يطلق عليها الأقباط (عصر الاضطهاد) وبعد دخول الإسلام مصر أصبحت أغلبية قبطية لأول مرة بعدها أصبحت في القرن الثاني الهجرى أغلبية مسلمة لأول مرة أيضا .

وعصور مصر ما قبل الإسلام هي :

١ - عصر ما قبل التاريخ وهو يرجع إلى ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد وهذا العصر هو عصر ما قبل الاسرات .

٢ - عصر الاسرات الأول ويضم (الأسرتين ١ ، ٢) (٣١٠٠ ق م - ٢٢٨٦ ق م) .

٣ - المملكة القديمة (الأسرة ٣ - ٦) (٢٦٨٦ ق م - ٢١٨١ ق م) .

٤ - الفترة المتوسطة الأولى (الأسرة ٧ - ١٠) (٢١٨١ ق م - ٢٠٤٠ ق م) .

٥ - عصر المملكة المتوسطة (الأسرة ١١ - ١٢) (٢١٣٣ ق م - ١٧٨٦ ق م) .

٦ - عصر الفترة المتوسطة الثانية (الأسرة ١٣ - ١٧) (١٧٨٦ ق م - ١٥٦٧ ق م) .

٧ -الدولة الحديثة (الأسرة ١٨ - ٢٠) (١٥٦٧ ق م - ١٠٨٥ ق م)

٨ - عصر الفترة المتأخرة (الأسرة ٢١ - ٣٠) (١٠٨٥ ق م - ٣٣٢ ق م) .

٩ - عصر الأغريق (٣٣٢ ق م - ٣٠ ق م) .

١٠ - عصر الرومان (٣٠ ق م - ٦٣٩ م) وفيه كانت مصر تابعة لروما ثم أصبحت عام ٣٩٥ م تابعة للقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

والمطالع لتاريخ مصر منذ القرن السابع حتى القرن العشرين يجد مصر قد حكمها المسلمون حوالى ١٤ قرنا من بينهم ١١ قرنا حكمها فيها الأتراك وهذه الحقيقة سنطالعها ضمن صفحات هذا الكتاب .

والعهود الإسلامية لمصر هي :

١ - عصر الولاة (عرب) من سنة ٦٤١ م حتى سنة ٨٦٨ م .

٢ - العهد الطولونى (وراثة) (أتراك) من سنة ٨٦٨ م حتى ٩٠٥ م .

[استقل الطولونيون بمصر والشام وشمال الجزيرة أيام الخلافة العباسية] .

٣ - حكم (بغداد) مركزيا لمصر منذ سنة ٩٠٥ م حتى ٩٣٥ م .

٤ - الحكم الأخشيدى (أتراك) من سنة ٩٣٥ م حتى ٩٦٩ م .

[إستقل الاخشيديون بمصر وفلسطين وجنوب الشام أيام الخلافة العباسية] .

٥ - الحكم الفاطمى (خلفاء شيعة إيسماعيلية) من ٩٦٩ م حتى ١١٧١ م .

حيث انفصلت مصر سياسيا وإداريا عن الخلافة العباسية وحكمت من ساحل الاطلنطى غربا حتى شمال الشام . وكانت العاصمة القاهرة .

٦ - الحكم الأيوبى (أكراد) منذ سنة ١١٧١ م حتى ١٢٥٢ م .

فيه عادت مصر إلى الخلافة العباسية وحكم الايوبيون مصر وفلسطين والشام ما عدا بعض المدن التى كانت في أيدى الصليبيين . وكان للمماليك الأتراك نفوذهم في السلطنة الأيوبية ولاسيما في أواخر عهدها .

٧ - الحكم المملوكى (أتراك) منذ سنة ١٢٥٢ م حتي ١٥١٧ م .

فيه حكم السلاطين المماليك مصر والشام حتى جبال طورس والفرات والنوبة وليبيا . وطردوا الصليبيين نهائيا من الشام وفلسطين وحموا مصر والشام من المغول التتار واستعادوا الخلافة العباسية بمصر بعد سقوط بغداد .

٨ - الحكم العثمانى (أتراك) منذ سنة ١٥١٧ م حتى ١٨٠٥ م .

حيث ظل يحكمها وال عثمانى حتى عام ١٨٠٥ م عندما استقل بها إداريا محمد على . وقد

كان الفرنسيون قد احتلوا مصر ما بين عامى ١٧٩٨ م و ١٨٠٢ م . أيام الحملة الفرنسية .
وظهر أيام الحكم العثمانى نفوذ المماليك (الباكوات) منذ سنة ١٧٠٤ م حتى سنة ١٨٣١ م .
٩ - حكم أسرة محمد على منذ سنة ١٨٠٥ م وحتى سنة ١٩٥٣ م .
ظلت فيه مصر مستقلة إداريا عن الدولة العثمانية حتى عام ١٩١٤ م . حيث أصبحت مصر دولة مستقلة ذاتيا تخضع للحماية البريطانية . وقد احتل الانجليز مصر منذ سنة ١٨٨٢ م حتى عام ١٩٥٦ م .
١٠ - جمهورية منذ سنة ١٩٥٣ م حتى الآن . وفي عام ١٩٥٨ إتحدت مصر مع سوريا حتى ١٩٦١ في الجمهورية العربية المتحدة . وأطلق علي مصر الأقليم الجنوبي وعلي سوريا الأقليم الشمالي .

ومصر أول مرة تستقل فيها منذ حكم الفراعنة كان في عهد الدولة الطولونية . وظلت مستقلة إداريا عن الخلافة العباسية لأكثر من ستة قرون حتى د خول العثمانيين القاهرة عام ١٥١٧ م . وأصبحت مصر ولاية عثمانية تتبع الأستانة .

ومصر لم يحكمها المصريون بعد الفراعنة حتى عام ١٩٥٣ م . عندما أصبح اللواء محمد نجيب قائد ثورة (٢٣ يوليو) أول رئيس للجمهورية . وأول وزير مصري هو عرابى باشا وأول رئيس وزراء قبطى هو بطرس باشا غالى وأول رئيس وزراء فلاح مصرى هو سعد زغلول وأول وزارة مصرية هي وزارة الشعب عام ١٩٢٤ م وكانت من الأفندية .

ومصر كانت ولاية عربية منذ القرن السابع ميلادى ثم أصبحت إمارة ثم خلافة فاطمية ثم سلطنة ثم ولاية ثم خديوية ثم سلطنة ثم مملكة وأخيرا جمهورية .

وحكم مصر أربع نسوة هن : حتشبسوت أيام قدماء المصريين وكليوباترة أيام عصر البطالمة وزنوبيا أيام حكم مملكة تدمر الأردنية لمصر . وآخرهن شجرة الدر في أعقاب الأيوبيين . وفي عهودهن إزدهرت مصر . ولعبن دورا تاريخيا في سياستها .

ومصر أول ولاية إسلامية ضمن إطار الخلافة الأموية تخلت عن لغتها القبطية بينما ظل الفرس والروم والهنود والأتراك والمغول مبقين علي لغاتهم حتى اليوم رغم إسلامهم .

ومصر بعد عصر الولاة حكمها ١٤ خليفة فاطمى و٦٠ سلطانا و٣ خديوى و٣ ملوك و٤ رؤساء جمهوريات . وأيامهم كانت مصر تابعة للمدينة والكوفة أيام علي بن أبى طالب ودمشق ثم الكوفة فبغداد ثم سامراء فالقاهرة . ومنذ عام ١٥١٧ م . أصبحت تابعة لاستانبول حتى عام

١٩١٤ م . وهذا ما سنطالعه في الكتاب بالتفصيل .

وفي عصرى المماليك كانت السمة السائدة في حكم سلاطينهم أن يستمر السلطان شهرا أو سنة أو سنتين إما يخلع أو يقتل بعدها . وأطولهم عمرا في الحكم هو الإشرف سيف الدين قايتباى (٢٧ عاما) والظاهر بيبرس (١٧ عاما) والأشرف قانصوه الغورى (١٦ عاما) . وأطول مدة حكمها حاكم لمصر الإسلامية هي مدة حكم محمد علي حيث حكمها ٤٣ عاما ، وأقصر مدة حكمها رئيس للجمهورية هى مدة اللواء محمد نجيب حيث حكم عاما وعدة شهور .

والإسلام لم يظهر في مصر ورغم هذا دافعت عنه وأحيت السنة وحافظت على تراث الاسلام من الضياع أو الإندثار بعد حريق بغداد . وجعلت من الأزهر أكبر جامعة إسلامية في العالم .

والشيعة الفاطمية حكموا مصر أكثر من قرنين لكنهم لم يستطيعوا تغيير مذهب المصريين السنى . وبعد زوال حكمهم تحولت كل المساجد في ٢٤ ساعة إلي سنية . حتى الأزهر الذى بنوه ليروج الفكر الشيعى أصبح أكبر منارة للمذهب السنى .

والمصريون لم يحاربوا حتى أيام الفراعنة لكنهم لأول مرة يتطوعون في جيش عمرو بن العاص وينتصرون في برقة ويصنعون أول أسطول للمسلمين . ويحاربون عليه ، وينتصرون علي البيزنطيين في موقعة (ذات الصوارى) التاريخية ويحققون أول إنتصار بحرى في الإسلام .

وأخيرا ... كلما أرى الملايين كل صباح تحمل كتبها متوجهة إلى المدارس والجامعات أترحم علي إبن مصر علي باشا مبارك الفلاح المصرى الذى حقق ثورة في التعليم إبان القرن الـ١٩ . رغم مالاقاه من إضطهاد ورفت أيام سعيد باشا وإسماعيل وتوفيق إلا أنه تحمل ولم يكل من أجل عيون مصر . فحمل على أكتافه في عصر إسماعيل تحديث مصر لتكون قطعة من أوربا .

فالتعليم أيام محمد على كان مؤسسة عسكرية لتجنيد المصريين في جيشه . وكان يتسم بالسخرة حتى كان الآباء يعتبرون إلحاق أبنائهم بمدارسه (المكاتب) مصيبة . لكن بعدما جعله علي مبارك تعليما مدنيا أصبح الآباء يعتبرون رفت أبنائهم من المدارس أو الجامعات كارثة . فسياسة محمد على في التعليم نفرت المصريين منه وكرهتهم في الجهادية .

والآن مهما كلفتنا مجانية التعليم فهى تقينا من غائلة الجهل والتخلف . فهذه المؤسسات التعليمية المنبثة في كل مدينة أو قرية مشاعل تنويرية وحصون حضارة تشمخ بعظمة مصر . وتنير للأجيال اللاحقة والمتلاحقة طريق الحضارة المنشودة .

أما هذا الكتاب .... فهو تذكرة لمن ينسى أو يتناسى أو يجهل تاريخ مصر من المسلمين والأقباط حتى نخرس الفتنة .

فمصر كفاها ما جنينا عليها طوال تاريخها وهى لم تجن علي أحد . فصحائفها بيض الوجوه . وبين سطورها سود العهود . لكنها مع كل هذا تسير من عصر إلي عصر ولا تعود .

والله ولى التوفيق .

د. أحمد محمد عوف

العصور الخوالي

حقيقة تقال أن مصر في مرحلة ما قبل التاريخ يندر وجود تسجيلات مدونة لتصوير أحوالها منذ فجر التاريخ الإنساني اللهم بعض الآثار المدونة . التي وجدت في منطقة البدارى بأسيوط والفيوم والمعادى وحلوان وهليوبليس (عين شمس) . وهذا شاهد علي فجر الحضارة المصرية منذ ٦٠٠٠ عام قبل الميلاد .

ويحتل التاريخ المصرى القديم منذ عصر ما قبل الأسرات إهتمام المؤرخين . والمطالع لهذا التاريخ يجد أن ثمة اعجازا حضاريا قام فوق أرض مصر منذ أكثر من خمسة آلاف عام . ومهما قلنا أو صورنا أو كتبنا عن هذا التاريخ الموغل في القدم لا يمكن لنا أن نوفيه حقه من براعة قدماء المصريين في شتى مجالات المعرفة الانسانية . فمصر كما يقول (برى) هي مهبط الوحى الحضارى . لأن الصانع المصرى كان صبورا وثبورا يعتنى بما في يديه مطوعا المادة ومسيطرا عليها لدرجة لا يبزه فيها الآخرون . ومقولة المؤرخ (برى) بأن قدماء المصريين كانوا سادة في كل شيء هى الحقيقة المؤكدة .

ومن إستقرائنا لتاريخ مصر القديمة نجدها مرت بفترات ركود حضارى إلا أنها كانت تقوم من كبواتها أكثر قوة مجددة حضارتها عبر العصور والقرون الخالية .

وتاريخ مصر الفرعونى لم يكن مدونا قبل العصر الاغريقى . وأول محاولة كانت عندما كلف بطليموس المؤرخ الاغريقى (مانيتو) في القرن الثالث قبل الميلاد بالتنقيب في البرديات القديمة الموجودة في معبد (آمون) . فتاريخ قدماء المصريين في عصر الأسرات لم يكن مدونا كتاريخ في مخلفاتهم . فالنقوش الجدارية الجرانيتية والجيرية لم تسجل سوى الاحداث والمشاهد الهامة التي تناولت الحياة الإجتماعية للمصريين ومزجوها بالأساطير الفرعونية . لهذا كان تدوين هذا التاريخ لأول مرة إبان العصر البطليموسى (الاغريقى) . حتى كتابات المؤرخ الأغريقى (هيرودوت) الذى زار مصر عام ٤٥٠ ق م كانت في جملتها وصفا لمصر كما شاهدها . وتدوينا لما سمعه من الكهان عندما جاس في الأقاليم وزار المعابد .

وكلمة (فرعون) هى في الأصل الكلمة الفرعونية (بيرع) ومعناها البيت الكبير أو البيت

الملكى . وقديما لم تكن هذه الكلمة لقب الملك لأن ألقابه كانت خمسة ألقاب لم يكن من بينها لقب (فرعون) . وأول ظهور لكلمة (فرعون) كلقب كان في التوراة عندما جاء فيه ذكر قصة الخروج لليهود من مصر . فأطلق علي الملك الفرعونى (فرعون) موسى . ولهذا ما زال إسم ملك الخروج لغزا تاريخيا حتى الآن إلا أنه كان من ملوك الاسرتين ال ١٨ و ١٩ . وألقاب الملك كانت خمسة وهى (حورس والسيدتان وحورس الذهب وملك مصر العليا والسفلى وصاحب الأرض المزدوجة وابن رع وصاحب التيجان) .

والمصريون الأوائل في عصر ما قبل التاريخ كانوا يصطادون الأسماك والحيوانات البرية والطيور . وكانوا يمارسون الفلاحة المختلطة بزراعة القمح مع الشعير والشوفان ويقومون بعملية الحصاد . كما كانوا يربون الثيران والأغنام والماعز والخنازير ويصطادون الغزلان والأبقار المتوحشة والظباء وأفراس النهر من النيل مستخدمين الأقواس والسهام . كما كانوا يصطادون الأسماك من بحيرات الفيوم بالسنانير .

وقدماء المصريين كانت لهم صناعاتهم البدائية فصنعوا الأوعية من الطين والخوص وكانوا يغزلون ملابسهم من الكتان . وفي البرد كانوا يلبسون الكتان بعد تغطيته بجلود الغزلان والماعز بجعل شعورها بالداخل للتدفئة . كما كان من عادتهم دفن الموتى ومعهم مقتنياتهم حتى أدوات الزينة التى كانت من الخرز . وكانوا يدفنون مع الميت (الدمى) النسائية التى كانوا يصنعونها من الطين والعاج . لهذا وجدت في مقابرهم أمشاط وخواتم وأساور وخلاخيل من العاج .

وكانت النسوة تتزين بالحلقان في أنوفهن كما عرفن الكحل والألوان والمساحيق للزينة وكن يضعنها في علب صغيرة من الأردواز بعد سحق الأحجار الملونة . وكن يعجن الكحل ليستعملنه كظلال لجفونهن وهذا يتضح في الصور الجدارية وتمثال نفرتيتى .

وكان قدماء المصريين يعصرون بذر الخروع للحصول على زيته للتدليك وتنعيم الجلد . كما إستخدموا الأصداف البحرية التى كانوا يجلبونها من البحر الأحمر في الزينة . و كانوا يجلبون الكحل من النوبة وسيناء مقابل التبادل التجارى بينهم الذى كان يمارس قديما في أضيق الحدود.

والمصريون الأوائل قد نزحوا إلي مصر من غرب آسيا وأفريقيا حيث سكن النازحون وادى النيل في الوجه القبلى . وبعضهم سكن بلدة بهوت بتل البلامون شمال دمياط . وكانت (نقادة) عاصمة الوجه القبلى . وفي الربع الأخير من الخمسة آلاف سنة (ق م) استولى حاكم مصر السفلى على مصر العليا (الصعيد) ونصب نفسه حاكما علي مصر الموحدة . بعده مصر العليا

إنفصلت ليحكمها (نخن) ومصر السفلى حكمها (بوتو) . لكن في نهاية الأربع آلاف سنة (ق م) استطاع الملك مينا ملك مصر العليا الاستيلاء على الدلتا موحدا مصر . وهذه الوحدة ظلت طوال الأسرة الأولى التى لا نعرف عاصمتها . حتى مجيء الأسرة الثانية مدينة منف أصبحت العاصمة وقد بناها الملك مينا في سقارة وكان يطلق عليها (ممفيس) .

وقدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الملك هو الاله وتجسيد لحورس وأمون . وكان حورس الاله الرئيسي لمصر السفلى والاله (ست) إله مصر العليا . وأثناء الأسرة الثانية حاول الملك (بربيس) التخلى عن لقب حورس (إله مصر السفلى) وتلقب بلقب الاله (ست) إله مصر العليا . وهذا أشعل ثورة في الدلتا ضده . ولم يستطع السيطرة عليها . إلا أن الملك (خرخيمو) آخر ملوك الأسرة الثانية وحد مصر ثانية ولقب نفسه بحورس ست .

وفي عهد الملك زوسر أثناء حكم الأسرة الثالثة شهدت مصر مجاعة رهيبة ظلت سبع سنوات عجاف بسبب فيضان النيل . وهذا ما جعل (زوسر) يرسل وزيره أمنوحتب إلى أقصى الجنوب فى أسوان ليقدم القرابين للاله (خنوم) إله جزيرة الفنتين . وكان قدماء المصريين يعتقدون أن هذه الجزيرة بداية النيل ومصدر مياهه . لهذا نجد (زوسر) يحاول إكتشاف خزانه . فأرسل بعثة استكشافية إلى النوبة وصلت لمسافة ٧٠ ميلا دون جدوى .

وملوك الدولة القديمة كانوا يلبسون تاجين أحدهما أبيض والثانى أحمر وكان للملك وزيره الذي كان يشرف على البلاد من النواحي العسكرية والاقتصادية ويتبعه خزائن الغلال والذهب . ويعاونه الكتبة في ضبط جبايتها ودفاترها . وملوك هذه الدولة كانوا يشنون حملاتهم على سيناء والنوبة لجلب الابنوس والعاج والذهب والنحاس والاصباغ .. كما كانوا يجلبون منهما العبيد ليعملوا في الدولة ..وكان يطلق عليهم (الموتى الأحياء) . وعصر هذه الدولة يعتبر عصر البنايات الضخمة كالاهرامات التى بناها خوفو وخفرع ومنقرع . علاوة على حوالى سبعين هرما بنتهم . وكان رجال البلاط يقيمون لأنفسهم المقابر الحجرية الضخمة . وكانت فكرة هذه الاهرامات ترتبط أساسا بالعقيدة الدينية وقتها . التى كانت تتطلع إلى ما وراء الحياة . لهذا كان من عادة قدماء المصريين تحنيط الجثث ووضع الطعام والشراب معها . وفى أواخر عهد هذه الدولة إضمحل نفوذها وانفصلت أقاليمها عن الحكومة المركزية .

ومع بداية ظور الأسرات أصبحت (منف) العاصمة الموحدة لمصر ولا سيما بعدما وحد ملوك الأسرة الأولى الديانتين المصريتين واتخذ الملك (أوديمو) لقباله واتخذ القصب رمزا لمصر

العليا والنحلة رمزا لمصر السفلى .

وأرض مصر كانت تعتبر ملكا للملك وحده بما عليها من مصريين ومواشى وبما فيها من مصادر طبيعية وكان مسئولا عن النواحى الدينية والاقتصادية للبلاد . وكان المصريون يؤلهونه ويعتقدون في قدرته على منح الحياة أو الموت . كما كان يقود المعارك الحربية بنفسه . وكان الكهنة يتبعونه شخصيا وينوبون عنه في إقامة الشعائر والطقوس الدينية في المعابد . ورغم تأليه الملوك ورغم هذا التقديس إلا أن الفراعنة الضعاف واجهوا ثورات الشعب المصرى عليهم .

وكما يقول الفليسوف الالماني (هيجل) (في كتابه فلسفة التاريخ) مصر بلد العجائب حتى اليوم .فلقد استطاع المصريون حفر الأرض وشق القنوات وفلاحتها .لدرجة كان المصريون القدماء يواجهون مشكلة وفرة المحاصيل من القمح والشعير وكانوا يقايضون بهذه الغلال في تجارتهم مع جيرانهم .

النيل وحياة المصريين :

عرف المصرى القديم العلوم الرياضية من خلال حساباته للفيضان وتقسيم الأراضى إلى وحدات طولية ومساحية لتوزيعها على الفلاحين وتقدير الضرائب الخراجية عليهم . كما عرف الموازين والمكاييل . والحساب كان بعد الاصابع . و جعل للأعداد رموزا ترمز للأرقام إلا أنهم لم يكتشفوا الصفر . وبناء الاهرامات يدل على معرفة قدماء المصريين بالأطوال والزوايا الهندسية بدقة حيث كانوا يقيسون الأرض بالذراع . كما استعملوا الروافع والأثقال في بناء المعابد والاهرامات والمسلات . فنقلوا صخور الجرانيت من أسوان إلى طيبة . وحدد المصريون القدماء موعد الفيضان وموعد الحصاد حسب التقويم المصرى القديم . ولهذا نجد الحضارة المصرية القديمة تقوم على النيل . فمصر طوال تاريخها كانت تعتمد على النيل كمصدر رئيسى لخيراتها . وهذا ما جعل (هيرودوت) يقول : أن كهان مصر كانوا يطلقون على بلدهم أنها هبة النيل . وهذه الحقيقة تاريخية لأن إنتظام الفيضان سنويا جعل المصريين يشكلون ديانتهم فاطلقوا عليه الاله أوزوريس ورووا عنه وحوله الأساطيل الفرعونية . والفيضان كان يصل للدلتا في ١٥ يونيو من كل عام قبل بناء السد العالى ويظل يفيض حتى نهاية شهر سبتمبر تاركا الأرض مشبعة بالماء بعدما تغطى بطبقة من الطمى الغنى الذى يعيد للأرض حيويتها وخصوبتها . وأتقن المصريون طرق تخزين مياه النيل خلف السدود . وشقوا الترع والقنوات . وفى عهد المملكة الوسطى أقاموا سدا على بحر مويس بالفيوم لتخزين المياه في أيام التحاريق .

والنيل قد شق مصر إلي شطرين هما مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) . ولكل شطر تاريخه وطبيعته المميزة من الناحية الجغرافية والطوبغرافية . فكان الصعيد منعزلا عن بقية العالم القديم لذلك كانت له حضارته الخاصة . عكس الدلتا فلقد كانت منفتحة على العالم الخارجي على البحر الأبيض وآسيا . وكان لمصر عاصمتين أحدهما في الصعيد والأخرى في الدلتا . ولهذا كان على الملك إقامة الطقوس مرتين . أحداهما في كل عاصمة .

كما يقول (جون بينز) أن فعلا مصر هبة النيل لأنها بدونه لم تصبح دولة عظمى . وأغنى دولة في العالم القديم . منذ عام ٣٠٠٠ ق م وحتى ٣٠ ق م عندما غزاها الرومان . وكانت مصر تعتمد في ثروتها على النيل الذى كان وسيلة النقل والمواصلات الرئيسية بين الأقاليم المصرية والمدن . وهذا وحد البلاد . لأن النيل كان السبب في تماسك مصر حفاظا على وحدتها لعدة قرون .

وقدماء المصريين أطلقوا على النيل النهر . وأصل كلمة النيل ليست معروفة لكن من المرجح أن يكون أصل الكلمة (النيلة) وهى صبغة سوداء . وكان الفيضان يطلق عليه (حابى) أي الذى يفيض بالخير . لهذا كان الملوك وحكام الأقاليم يلقبون أنفسهم بحابى تيمنا بالفيضان . وحابى لم يكن من آلهة قدماء المصريين . لهذا كانوا يرسمونه كشخص بدين يأتى بالمحصول الوفير للآلهة . ولهذا – أيضا – لم يقيموا لحابى معبدا لكنهم كانوا يقدمون للفيضان القرابين باسمه عند جبل السلاسل بالجنوب . ويرفعون إليه أناشيدهم ويقيمون له الطقوس الخاصة إبان الفيضان . ويلقون إليه بأجمل عروس لديهم في عيد وفاء النيل ليفيض عليهم . وتعم البركات على وادى مصر . وكانوا يؤلهون (خنوم) كاله للشلال وقد نحتوا له تمثالا عند جزيرة فيلة قرب أسوان . وكان يعتبر (رب الخزان) الذى يفيض منه الفيضان فيما وراء الجزيرة .

وأسطورة أوزوريس تتصل بالنيل .. فازوريس في الاسطورة الفرعونية كان ملك مصر الذى قتله أخوه (سيث) (إله الكوارث) على شاطىء النهر وقطعه إربا إربا . لكن أخته إيزيس جمعت أشلاءه وتزوجته وانجبت منه (حورس) بعد موت أوزوريس نفسه الذى أصبح بموته ملك العالم السفلى . ولهذا بعد كل فيضان يحتفل قدماء المصريين بأوزوريس بغرس تماثيل له في حقول الشعير . لأنهم يعتقدون أنه لما قتل دفنت أجزاء من جسمه في عدة مدن مصرية لاخصاب تربتها . و كان الكهنة يحتفلون سنويا بعيد (سيد) في منف . واوزوريس هو الاله الاساسى لمصر وكان يطلق عليه الاله الشهيد . والملك هو النسخة الأرضية منه . وكان يرمز إلي الخلود البشرى ويعتبر إله الخصب والنماء والبذور . لهذا كان المصريون يرسمونه كخنفسة لانها تضع بيضا كثيرا

وكانوا يرمزون إليه بالشمس التى تطل كل يوم لتشرق ثانية. كما كانوا يرمزون إلية – أيضا – بعجل أبيس المقدس أما إيزيس فكان يطلق عليها (هاتور) الآلهه البقره وهلال القمر ونجمة البحر . إما حورس فكان الاله الصقر والفجر الذى ينمو ليصبح أوزوريس ثانية . وكانت تماثيل إيزيس تصورها وهى تحمل حورس بين ذراعيها وهى واقفة على هلال القمر . والآلهة الثلاثة (اوزوريس وايزيس وحورس) كانوا يشكلون عقيدة التثليث لدى قدماء المصريين . وكان لهم – أيضا – آلهة أخرى كاله الشر وإله الخير .

وكان المرفيون أيام الفراعنة يورثون أبناءهم صناعاتهم والفلاحون يشركون الأبناء في فلاحة الأرض . وكانوا متعلقين بأرضهم فاستقروا بالوادي ولم يبرحوه وكانوا أثناء شهور الفيضان يسخرون في الخدمة العامة والأشغال كإقامة المعابد والأهرامات ومد الجسور وحفر وتطهير الترع . والغالبية العظمى من الشعب المصرى كانوا فلاحين وكانوا يروون أراضيهم بردم البرك والمستنقعات في الدلتا بالذات . وكانوا يستعملون الشادوف في رفع المياه إلي الأراضي العالية التى كانت تزرع . ومصر اشتهرت باللحوم وتربية المواشى وكانت تصدرها إلى العالم القديم وكانت صحراؤها تمدها بالملح والنطرون والاحجار النفيسة والذهب الذى كان ترابا في أرض مصر .

ومصر كانت منفتحة على العالم وهذا يتضح من (خطابات العمارنة) التى اكتشفت في تل العمارنة وهي عبارة عن رسائل دبلوماسية متبادلة بين حكام مصر وحكام الاناضول وآشور وبابل وقبرص وفلسطين وسوريا . وهذه الخطابات التاريخية تعتبر أرشيفا هاما ألقى الضوء على التاريخ المصرى القديم والعلاقات التجارية وعادات وتقاليد المصريين الفراعنة . وهذه الخطابات كانت ألواحا من الطين عددها ١٥٠ لوحا مكتوبة بالكاديانية (البابلية) التى كانت لغة الدبلوماسية الدولية وقتها .

وكانت الرسائل تعنون باسم ملك مصر أو بكلمة (ربى) إذا كانت مرسلة من حكام الأقاليم في الشام أحد أقاليم مصر وقتها . وهذه الرسائل كانت موجودة في اطلال دار المحفوظات الملكية في مدينة إخناتون (تل العمارنة) أبان حكم إخناتون وبعده هدمت المدينة إنتقاما منه ومن دعوته وقام بهذا التخريب كهنة معبد آمون بطيبة (الأقصر) . فلما انتقل الكتبة منها لطيبة تخلصوا من هذه الرسائل بدفنها في الأرض وظلت مطمورة حتى إكتشفتها إمرأة كانت تحفر الأرض للحصول على السباخ من بقايا التل لتكتشف هذه الوثائق التاريخية .

فلسفة الموت عند قدماء المصريين

كان قدماء المصريين لهم فلسفتهم وأفكارهم عن الحياة والموت وما بعد الحياة . حيث كانوا يؤمنون بالخلود كعقيدة أساسية لديهم . لهذا كان الموت له تأثيره على نمط الحياة عندهم بل سمة الحضارة الفرعونية . وكانت فكرتهم عن الخلود أن الصحراء لجفافها لها القدرة على حفظ الموميات من التحلل مما يجعل حياة الموتى مستمرة إلى الأبد . لهذا إعتنوا بحفظ الموتى حفاظا على حياتهم الأخروية . وكانت عقيدتهم أن الملك بموته يتحول إلى الإله أوزوريس لهذا كانوا يحنطونه ويقيمون له الشعائر الجنائزية الخاصة ليبعث ثانية باسم الاله أوزوريس بعدما يتحد مع الأله رع (إله الشمس) في سماء مصر . لهذا نجد الحضارة الفرعونية قد قامت على مفهوم دينى وطقوس جنائزية . حيث أقيمت مقابر الملوك آية في الفن المعمارى الذى تفوقوا فيه . وخير شاهد على هذا الأهرامات التى بنيت في عهد الأسرة الرابعة (٢٥٠٠ ق م) . وهى في الأصل مقابر ملكية . والهرم الأكبر يعتبر أجمل وأكبر مقبرة في العالم حتى الآن . فلقد بناه خوفو في عشرين عاما . وكان المصريون يضعون مع الميت تماثيل من الحجر والخشب كدمى أشخاص . يعتبرونهم خدم المقبرة يخدمون الملك عند البعث . وكانوا يضعون معه مجوهراته وذهبه ليتزين بهما في المقبرة .

والكاتب اليونانى (نيكوس كازانتراكيس) في كتابه (رحلة إلي مصر) يصف لنا فكرة الموت لدى قدماء المصريين كما جاء في كتاب (الموتى) .. من أن المصرى باستثناء لحظات نادرة في تاريخه لم يجعل الحرية غاية له أبدا . ففي حياته السياسية كان عليه أن يطيع القادة لأن غايته الوحيدة كانت هزيمة الموت وقهره وكانت هذه هى الغاية العظمى . لهذا كانت قصوره وبيوته من الطين لأنها خيام لمرحلة انتقالية هى مرحلة الحياة الدنيا . أما قبوره فكانت من الحجارة الصلبة لأنها مساكن أبدية . وكان العمال يقومون بتفريغ الجثث من أحشائها ويملأونها بالطيوب والأعشاب العطرية والقار ويعلقون الطلاسم فوقها ويضعون كتاب الموتى بجوار الميت ليتعرف على الاجابة على أي الطرق يختار . وأي التعاويذ يتلو . والميت يصرخ في قبره الصرخة الأبدية قائلا : **لم أقترف خطيئة ولم أقتل أو أسرق أو أكذب ولم أطأ الحقول المحروثة ولم أفتر على أحد ولم أكن عاقا لوالدى أو للملك . ولم أغش أو أنقص في الميزان . ولم آخذ الحليب من أفواه الأطفال ولم أحرف الماء عن مجراه . إننى طاهر . طاهر . وعفيف .** هذه كانت مثاليات وأخلاقيات المصريين كما طالعناها في هذه الصرخة الأبدية في قبور الموتى عند الحساب في الحياة الأخرى . قبل أن

يدخل الميت في كنف الحياة الأبدية حيث تحاط الروح بالطعام والأثاث والحيوانات . وكان أهل الميت يأتون بالطعام ليقدموه بالمقبرة أو يحرقوه أمامها لتتغذى الروح على رائحته . لكن بعدها إكتفوا برسم صور الطعام والأثاث والحيوانات على جدران المقبرة إعتقادا بأن أصوات الكهنة تحولها كل يوم إلى طعام يقدم لروح الميت فيتناوله . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الروح مع شروق الشمس تغادر المقبرة لتتجول بين الحقول على ضفاف النيل وترى أطفالها حتى غروب الشمس فتعود إلى القبر مع حلول الظلام فتنيره شمعة ضخمة إلى أن تشرق الشمس في اليوم التالى . وهذه النظرة الآخروية والأبدية كما جاء في كتاب الموتى أول كتاب مقدس في التاريخ الانسانى ... جعلت المصريين يتطلعون إلى الموت للخلاص من قسوة حكامهم وتعسف كهنتهم . وهذه النظرة الدينية كانت تؤثر على النواحى الحياتية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية لدى قدماء المصريين . فكانت تمنحهم الصبر والقوة على مواصلة رحلة الشقاء والبؤس الدنيوية وتريحهم من هم الدنيا آملين في الأبدية التى لا يصلون إليها إلا بالموت . وهذه النظرة التشاؤمية أصبحت تلازم المصريين طوال عصورهم . فنراهم حتى اليوم يقيمون ذكرى الاربعين للميت ويزورون قبره كل خميس ومعهم (القرص) الطعام ويقيمون في المدافن إقامة كاملة بجوار الميت ليؤنسوا وحدته ويلقنوه الشهادتين بعد دفنه ويتلوا عليه الاجابات على أسئلة ملك القبر . وهذه كلها عادات فرعونية متوارثة عن قدماء المصريين .

وقدماء المصريين كانوا يعتبرون الفترة مابين وفاة الملك وتنصيب خليفته هى فترة حرجة لأن قوى الشر قد إنتصرت على الحكم السوى . لهذا كان الملك الجديد ينصب في الفجر التالى على وفاة الملك وتتم المراسيم بسرعة حتى لا تعم الفوضى البلاد وتنشب الأزمات . وكانت وراثة العرش الفرعونى لابن الملك من زوجته الأصلية الفرعونية وليس من حريمه من الأجنبيات . لأن الملوك تفشى بينهم زواجهم المتعدد من الأسيويات . وكانت الأبنة الكبرى من الملكة الأم تعتبر وريثة ملكية للعرش . لهذا كان الملك يتزوج من أخته للابقاء على الروح الملكية في البيت المالك ليتوارثها أبناؤهم أبناؤهما . حتى لا تتبدد هذه الروح و كان في حالة وفاة ولى العهد تتزوج الإبنة الملكية من ولى العهد الآخر حتى ولو كانت أمه أجنبية . وهذا ما حدث مع تحتمس الثالث والرابع وتوت عنخ آمون وحور محب التى كانت أمهاتهم أسيويات (آشوريات) . وهذا الزواج كان يؤهلهم لتولى ملك مصر . لكن هذه القاعدة تضاءلت بعد عهد حور محب الذى خلف توت عنخ آمون . وهذا الزواج قد يتم في حياة الملك الأب نفسه . ولم يشذ عن نظام وراثة العرش في هذه الأسرة

سوى إخناتون الذى تزوج نفرتيتى ولم تكن أميرة لأن أباها (آى) كان من كبار رجال القصر الفرعونى . وأمها(تاى) من الشعب .

العلوم والآداب والفنون الفرعونية:

كان المصريون لهم آدابهم وحكمهم التى اشتهروا بها . وأشهرها كتاب الموتى وكتاب نصائح للملك وأشعار أخناتون التى تعتبر من أشعار العشق الالهى الرفيع المستوى حيث كان يناجى فيها آتون الاله الأكبر خالق الشمس والحياة . وكان لقدماء المصريين قصصهم واشهرها قصة الأخين وقصة البحار بانى السفن . كما مارسوا أدب الرحلات وأشهره قصة سنوحى (في الأسرة ال ١٢) ورحلة إينامون (في الأسرة ال ٢٠) وهى عبارة عن مغامرات في أرض الكنعانيين .

ويمتاز الأدب المصرى بأنه من النوع الغنائى الاحتفالى أو الدينى أو التعليمى أو القصصى. والأمثال الشعبية الفرعونية كانت من وحى الفراعنة كما يقول سليم حسن (الأدب المصرى القديم) فلقد بذل المصرى القديم عدة قرون يؤلف ويحسن كتاباته بمهارة واتساع أفق إجتماعى . وكانت حكم (فتاح حب) نواة لحكم سليمان المشهورة في الأدب العبرى القديم . والمصريون إشتهروا بحكمهم وأمثالهم الشعبية كما نراها في تعاليم (إمنوبى) . وكان أسلوب الكتاب المصريين يتسم بالجمال اللفظى والأقوال المنتقاة والمختارة بدقة تعبيرية . والمطالع لأقوال (الفلاح الفصيح) في رسالته التى رفعها للملك يشرح فيها الغبن الذى وقع عليه من أحد عماله مما جعل الملك يرفع عنه الظلم ويجزل له العطاء . وهذه الرسالة تعتبر نبراسا لكل حاكم لو اتبع الوصايا التى جاءت بها . ولهذا اشتهرت هذه المقالة بأسلوبها البليغ وأفكارها النيرة .

ومع ظهور الدولة الوسطى انحط الأدب المصرى وأخذ أسلوب الكتابة يميل إلى التصنع والتكلف والزخرفة اللفظية . وهذا يتضح لنا في قصة سنوهيت وورقة إنستاس كما يقول المؤرخ سليم حسن في (الأدب المصرى القديم) . وفي أيام إمنحوتب الرابع (الأسرة ال ١٨) إبان الثورة الكبرى قامت ثورة دينية ضده عرفت بثورة كهنة آمون على الملك إخناتون (إمنحتب الرابع) و كان الشعراء الذين يشايعونه يكتبون أشعارهم للشعب . كأزاجل باللغة العامية مما أشاعها وساعد على إنتشارها لأنها كانت تنشد الإصلاح الدينى الذى دعا إليه الملك إخناتون . لكن بعد وفاته عاد الأدب إلى إسلوب العهد القديم متبعا إتقان العبارات وإختيار الألفاظ والاعتناء بالاسلوب الرفيع . وكان نتيجة الفتوحات الفرعونية لعدة بلدان في شرق البحر الأبيض وغرب

آسيا والنوبة . أن ظهر في الأدب الفرعوني بعض الكلمات الأجنبية التي وفدت إلى اللغة الفرعونية نتيجة هذا الامتزاج مع هذه الشعوب التي كانت خاضعة للحكم المصري . ولاسيما إبان الأسرة ال ١٨ . وبعض هذه الكلمات أتت نتيجة للغزو الأجنبي لمصر من البابليين والآشوريين والليبيين . ولما جاء الاغريق لمصر عام ٣٣٢ ق م أصبحت اللغة الاغريقية هي اللغة الرسمية للدولة المصرية البطليموسية . وهذا كان كافيا لتدهور الأدب المصري الفرعوني والقضاء عليه .

والطب الفرعوني كان مشهورا . وهذا يتضح من برديات الدولة القديمة التي بينت أن قدماء المصريين كانوا على علم بالتشريح والأمراض . ولهذا وصفوا لها العلاجات . وعرفوا الختان منذ زمن قديم . وهذا واضح في المومياوات ومن الرسومات الجدارية والنقوش التي خلفوها . وأخذ موسى عن قدماء المصريين عادة الختان . ولأهمية الطب نجدهم يطلقون على أمنحتب إله الشفاء . ولقد أخذ الرومان الطب عن قدماء المصريين . وكان كتاب (توت) الحكيم الفرعوني هو الكتاب الطبي الذي ظل لعدة قرون يتبع في العلاج وكان الأطباء يعاقبون لو خالفوا تعليماته أو لم يتبعوا ما جاء به . وعرف قدماء المصريين مرض شلل الأطفال (عام ١٥٠٠ ق م) وشخصوه بدقة . وشهرة الطب المصري نجدها في قصة ملك بنط الذي أرسل زوجته مع السفينة الفرعونية و كانت مصابة بداء الفيل فأرسلها لطيبة لتعالج فيها لأن أطباء مصر كانوا مشهورين . وهذا سجل على معبد حتشبسوت حيث صورت هذه الرحلة . واشتهرت مصر بطب العيون . لهذا الملك قمبيز أرسل في طلب طبيب عيون من الملك أموزيس ملك مصر لعلاجه . إلا أن الطبيب تضايق من سفره إلي خارج بلده فاوغر صدر قمبيز ضد ملك مصر وأوعز إليه أن يتزوج إبنته لينتقم منه . فأرسل ملك مصر فتاة بديلة من فتيات القصر وهذه الخدعة الملكية أغضبت قمبيز ملك الفرس فأرسل جيشه ، وغزا مصر وضمها إلي الامبراطورية الفارسية من أجل عيون قمبيز عام (٥٢٥ ق م) .

وقبل عصر الأسرات إخترع المصريون الكتابة وكانت عبارة عن رسوم تصويرية أطلق عليها الهيروغليفية (أي الاشارات المقدسة) . لأن هذه الكتابات كانت تستخدم في الأغراض الدينية أو للنقش على جدران المعابد إلا أنها أصبحت فيما بعد تستعمل في الحياة العادية . وظلت اللغة الهيروغليفية متداولة في مصر حتى عهد الامبراطور الروماني (تيودوس) الذي - كما قال (جان فيركوشيه) عالم المصريات الفرنسي - أغلق الهياكل والمعابد الوثنية في إمبراطوريته بعدما دان بالمسيحية وجعلها دين الدولة الرومانية القديمة . وأغلقت المعابد الفرعونية نتيجة لهذا الحظر الامبراطوري . واختفت طبقة الكهنة المصريين . ولم يبق في مصر من يتعلم اللغة

الهيروغليفية التى اندثرت في العصر الرومانى فأصبحت آثارها على المعابد والمسلات وفي أوراق البردى لغزا تاريخيا ظل من المعميات للبشرية ، حتى أكتشف حجر رشيد في أواخر القرن ال ١٨ إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر عام ١٧٩٩ م . وكشف العالم الفرنسى شامبيليون سر هذه اللغة والتعرف على أبجديتها . ومما سهل عليه المهمة أن الحجر كان مدونا عليه مرسوم من الملك بطليموس الخامس (عام ١٩٦ ق م)موجه إلي الكهنة المصريين يدعوهم فيه للاحتفال بتتويجه ملكا علي مصر . ونقش هذا المرسوم على حجر رشيد بثلاث لغات هى الهيروغليفية (اللغة الفرعونية القديمة) والديموطيقية (اللغة الفرعونية الدارجة العامية) والاغريقية (لغة البطالمة ولغة الدولة الرسمية وقتها) . وكان شامبيليون يتقن الاغريقية وهذا مامكنه من التوصل لحل شفرة اللغة الهيروغليفية .

وكان قدماء المصريين يعتقدون أن للكتابة إله هى الاله (تحوت) ربة الكتبة وراعية فن الكتابة وحامية سجلات التاريخ الملكية . ولهذا كان الكهنة يحتفظون بطريقة كتابة اللغة الهيروغليفية لأنفسهم ليورثوها لأبنائهم من بعدهم لقصر مهنة الكتابة والكتبة على طائفتهم . وكانوا يستخدمون المداد الأسود في كتاباتهم على ورق البردى الذى كان يبلغ طوله عشرة أمتار ويطوى كاسطوانة ليفردها القارىء عند قراءتها أو الإطلاع عليها . وكانوا يستعملون في أغلب الأحيان وجه الصفحة . وقليلا ما كانوا يستخدمون ظهر الصحيفة في الكتابة .

وفي عصر البطالسة (البطالمة) إستخدم المصريون الحروف الاغريقية في كتابة اللغة الهيروغليفية وأضافوا على الأبجدية الاغريقية سبعة حروف من الخط الديموطيقى وهذا التوليف كما يقول (الدكتور مختار رسمى) في كتابه (فضل الحضارة المصرية على العلوم) هو أصل اللغة القبطية التى أساسها اللغة الهيروغليفية العامية (الديموطيقية) مكتوبة بالأبجدية الاغريقية.

والكتابة ظهرت في الدلتا قبل الصعيد بالنقوش لتسجيل الأحداث الهامة . وأشهرها لوحة الملك نارمر التى صور فيها يهوى بدبوسه على رأس محارب مصرى من الدلتا .

واللغة الهيروغليفية التى في مجملها أشكال ورموز للحيوانات والطيور كانت لها خطوطها المميزة كالخط الهيراطيقى الذى كان يدون على أوراق البردى والأوانى . والخط الديموطيقى الذى إخترع في القرن السابع ق م إبان الأسرة الـ ٢٥ .

وأول من إكتشف فكرة التقويم هم قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة عندما سجلوا طريقة حساباته على أحد معابدهم . واستخدم الملك خوفو تلسكوبا لرصد النجوم . ومراقبة ظهور

النجم (سيروس) كل عام مع حلول الفيضان .. واعتبر قدماء المصريين السنة ٣٦٥ يوما وهذه الأيام قسموها إلى ١٢ شهرا وقسموا الشهر لـ ٣٠ يوما . وأضافوا في نهاية شهور السنة الخمسة أيام للسنة العادية وستة أيام للسنة الكبيسة . والحول لديهم كان من بداية الفيضان للفيضان الذى يليه . وقرنوا بداية مجيئه بظهور النجم (سيروس) في سماء مصر . ومع ظهوره كانت تبدأ السنة الفرعونية الجديدة . ووضع الحكيم الفرعونى (توت) تقويما حسب التقويم الشمسى وجعل السنة تبدأ في الاعتدال الخريفى (٢٣ ديسمبر) وجعل المدة بين الاعتدالين الخريفى والربيعى ١٨٠ يوما . والمدة بين الاعتدالين الربيعى والخريفى تعادل ١٨٥, ٢٥ يوم وقسم السنة إلى ١٢ شهرا وجعل الشهر ٣٠ يوما وأضاف بعد الشهور الـ ١٢ خمسة أيام جعلها لعبادة الآلهة .. وجعل (توت) اليوم ١٠ ساعات والساعة ١٠٠ دقيقة والدقيقة ١٠٠ ثانية . وأصبح اليوم التوتى يعادل ١٠٠ ألف ثانية (حاليا يعادل ٨٦٤٠٠ ثانية حسب الحساب الفلكى العالمى) . ولما زار مصر وفد من الكلدانيين بالعراق أخذوا فكرة التقويم الفرعونى بعدما قسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة والساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية .

وفي عام ٦٣ ق م إتخذ يوليوس قيصر التقويم التوتى الفرعونى تقويما للدولة الرومانية بعدما وزع الأيام الخمسة في نهاية السنة . والتى كانت تضاف للعبادة . فوزعها يوما في نهاية بعض الشهور وطبق هذا التقويم الجديد عام ٤٨ ق م .

وقدماء المصريين كان لهم أسطولهم البحرى فنرى الملك (ساحورع) (٢٥٥٣ ق م - ٢٥٣٩ ق م) يرسل إسطولا إلى بلاد بنط (الصومال وأريتريا) لجلب البخور للمعابد الفرعونية والعطور والأبنوس . وظلت هذه الرحلات البحرية تتوالى. وأشهرها رحلة الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ق م - ١٤٦٩ ق م) وإبان الأسرة ٢٦ نجد هيرودوت يصف القناة التى شقها الملك نخاو بين النيل والبحيرات المرة لوصله بالبحر الأحمر . فنراه يرسل سفنه في القرن الرابع عن طريق البحر الأحمر ودارت حول أفريقيا للوصول إلي جبل الأعمدة السبعة (جبل طارق) . ثم أتت عبر البحر الأبيض إلي بر مصر . وهذا يبين أن الفراعنة كانوا علي علم بطريق الرجاء الصالح الذى اكتشفه فاسكودى جاما البرتغالى عام ١٤٩٦ م كما كانوا يتبادلون مع الدول الأفريقية السلع والمنتجات وكانت هناك قوافل برية للسودان تعبر من مصر إلي هناك عن طريق الأربعين (طريق البخور التاريخى) وكان البخور له أهمية مقدسة لدى قدماء المصريين لأنهم كانوا يستخدمونه ضمن توليفة التحنيط مع النطرون وعسل النحل كانوا يقدمونه كقرابين للآلهة في المعابد .

وعرف المصريون القدماء القانون والعدالة وطبق ملوكهم قانون (من أين لك هذا؟) بصرامة وشدة. فكما يقول الفيلسوف الالمانى (هيجل) في كتابه (فلسفة التاريخ) كان القانون يحتم على كل مصرى التواجد أمام أملاكه أو داره في اليوم الذى تحدده الشرطة الفرعونية له. ويبين لها بالتفصيل مصادر ثروته وموارد دخله. ومن يكذب أو يتهرب أو يتلعثم في الرد على أسئلة الشرطة كان يعاقب بالاعدام. وكان القضاء المصرى القديم يتمثل في مجلس العدالة الذى كان يدار بعناية فائقة وكان يضم ثلاثين قاضيا يمثلون أقاليم مصر يختارون من بينهم رئيسا. وكانت المرافعات بتقديم المذكرات وهذه الطريقة كما يقول (ديودوروس) كانت طريقة مؤثرة. وكان الإتهام يروى أمام المحكمة بطريقة تمثيلية صامتة (بانتومايم) معتمدة على الإشارات والرموز الهيروغليفية. وكان الحكم - أيضا - بالاشارات حيث كان القضاة يعلقون على صدورهم (رمز الصدق) الذى كان يلوح به القضاة. والقانون المصرى القديم يحرم السرقة، وإذا لم يبلغ السارق عن نفسه تضاعف له العقوبة. وهذا النص كان يستهدف القضاء على قطاع الطرق ولصوص المقابر الملكية. وأشهر قضية فرعونية سجلتها لنا البرديات التي عرفت ببرديات (سرقة المقابر الملكية) بمنطقة الجبانة الكبرى بوادى الملوك بالضفة الغربية لطيبة. وهذه القضية دونت في عهد رمسيس التاسع حيث قبض على اللصوص بعد إجراء التحقيقات في مكان الجريمة. وعقدت المحكمة العظمى في معبد الكرنك بالضفة الشرقية ورأسها الوزير (خع مواس) وكانت تضم عمدة طيبة البلد (الشرقية) وعضوين من البلاط الملكى. وحكمت المحكمة علي المتهمين رغم إعترافاتهم بالبراءة عام ١١٠٠ ق م. ويقال أن القضاة كانوا مرتشين. وفي عهد الأسرة الـ ٢٠ تفشت ظاهرة نهب المقابر والسرقات. فكانت إجراءات التحقيق مع المتهمين بسيطة لكنها قاسية. وكان المتهم يقدم إلي المحكمة ويقسم بأن يقول الحق. وكان الاتهام يتبع مع المتهم طرق التعذيب الجسدى بلوى الذراع أو الكى بالنار أمام القضاة حتى يعترف بالحقيقة، ويدلهم على شركائه وأماكن المسروقات. وكانت العقوبة النفى إلي النوبة أو التشويه أو وضع المتهم فوق خازوق أو التكبيل بالقيود ويزج بعدها به في السجن.

والملوك أيام حكم الدولة القديمة كانوا يعتبرون آلهة لهم القدرة على الحياة والموت. وكانت مشيئتهم هى القانون. وفى عهد الدولة الوسطى لقي الملوك معارضة قوية من الاقطاعيين. وحدوا من سلطات وسلطان ملوكهم فأصبحوا ظلا لا تحكم مصر. وكان لظهور دعوة أخناتون أثره على الديانة المصرية القديمة وتجسيد لبشرية الملك.

ومصر منذ قدماء المصريين حتى يومنا هذا لم تعرف الديموقراطية لكنها إبتليت

بأرستقراطية حكامها الذين سوموها سوء التعذيب وألقوا بها في مهاوي الفقر والجهل والبؤس، مما وأد في المصريين روح التطور والتقدم والابداع . وكانت الحضارة المصرية القديمة فصلاً عابراً في التاريخ البشرى . وقامت على مفهوم ديني وليس على أساس قومى . فلما توارت هذه المفاهيم تدهورت أحوال مصر من عصر إلي عصر . فمصر أم الدنيا أخذ يلاحقها هم الدنيا والشعب المصرى لم يلبث يعيش في وهم الماضى السحيق ينعى حضارته التى غبرت وغربت عنه . حتى يئس من حاضره التخلفى ومستقبله التشاؤمى . لأن إيقاع الحاضر ينبئ بالافلاس في الغد . فبات المصريون يجترون أحزانهم الدفينة ويشعرون بالغربة في بلادهم . وهذا الشعور لا ولن يقيم حضارة أو يبنى أمة كانت أعظم الأمم فيما مضى منذ ٢٥ قرنا .

وقدماء المصريين كانوا يعتبرون البشر سواء أمام الخالق لكنهم كانوا محرومين من دخول المعابد الكبرى التى كانت مقصورة على الكهنة . فكان المصريون يصلون أمام أبواب المعابد الكبرى متوارين من الكهنة أو في المعابد الصغرى . فالتفرقة الطبقية كانت تمارس حتى في الشعائر الدينية المقدسة . وتوارث هذه العادة حكام مصر فعندما يصلون في الأعياد يمنع الشعب من دخول المسجد لتأدية الفريضة متناسيين أن الملك لله الواحد القاهر لكن كهنة الفراعنة لم يكونوا يعرفون إلها غير فرعون مصر .

والمرأة كانت من الناحية القانونية الفرعونية متساوية مع الرجل . وحتى بعد الزواج كان لها الحق في الإحتفاظ بأموالها وإدارتها مستقلة عن زوجها . كما كان لها الحق في الوصية توصى فيها بتوزيع أموالها علي من تشاء من الأبناء . وكان مسموحا للمرأة العمل في الوظائف العامة ودواوين الدولة . لها حرية التجارة وممارسة الطب . وكانت (بيسيشت) أول طبيبة تمارس الطب في مدينة منف . وكان الزوج يجلس في البيت ليغزل الكتان والمرأة تخرج للرزق . والزواج كان يسجل في سجلات الدولة .

ومارس قدماء المصريين الرقص والغناء وعزف الموسيقى وهذا مدون على جدران المعابد الفرعونية وكانت هذه الفنون تمارس في المعابد أثناء تأدية الطقوس الدينية أو الجنائزية . كما كانوا يقيمون الأفراح الغنائية والمآتم التى كانت تعزف فيها الموسيقى ويرتل فيها الغناء . وكان الكهنة يتخذون من الموسيقى والغناء (الزار) لعلاج الأمراض النفسية والعقلية . وعرف المصرى القديم الدف والمزمار والناى الذى كان يصنع من الغاب (البوص) بعد تهذيبه وتثقيبه بطريقة خاصة لتنبعث منه الأنغام المميزة . وكان الغناء الكورالى يمارس في المعابد . وكان المنشدون من

الرجال والنساء . ولهذا صممت المعابد لتجسيم الأصوات الغنائية وتضخيمها . وكانت هياكل المعابد مصممة بطريقة فنية لتكبير صوت الملك أو الكاهن عندما يتحدث أو يرتل في الصلاة .

والتعليم كان في المعابد وكان التلاميذ يتعلمون بها الأبجدية الهيروغليفية ومبادىء الحساب والهندسة والجغرافيا . وكانت الأمهات تذهبن إلى الكاهن المعلم وتقدمن له كل يوم الطعام كأجره . وكان الطالب بعد المرحلة الثانوية يمنح شهادة (كاتب المحبرة) وهذه الشهادة تلحقه بالعمل في دواوين ومخازن الدولة الفرعونية . وكان أبناء الكهنة ورجال البلاط وكبار القواد يلتحقون بعد حصولهم على شهادة (كاتب المحبرة) بالدراسات العليا بالمعبد الكبير ليتلقوا على أيدي كبار الكهنة علوم الهندسة المعمارية والفلك والطب والصيدلة وفلسفة المصريين وحكمهم وآدابهم . وكان هؤلاء يعينون بعد دراساتهم في الوظائف العليا كوزراء أو قواد أو كهنة ، كما كانوا بهذا يعتبرون طبقة الصفوة في المجتمع المصرى القديم وهؤلاء كانوا قلة متميزة ومنتقاة .

والمصريون كما يقول (هيرودوت) : لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير لأن الاله (ست) لما قتل حورس إبن الالهة إيزيس والاله أوزيريس كان متخفيا في هيئة خنزير أسود . ولم يكونوا يأكلون لحوم البقر ولا يذبحون البقرة حتى لا يسيئوا إلي الالهة إيزيس التى كانوا يصورونها على هيئة بقرة . ولم يكونوا يأكلون طعاما صنعه إغريقى أيام حكم البطالسة ولا يتناولون لحوما لمسها أغريقى أو عجلا ذبحه أو ذبح بسكين لمسه . وكان محرما تقبيل أي شخص أو إمرأة إغريقية . فالمصريون - كما يقول هيرودوت - ينظرون إلى الشعوب الأخرى بزراية وإستعلاء . وكانوا يعتبرون الشعوب الأخرى نجسه وقذرة طالما هم بعيدين عن آلهتهم . وهذه العادات مازالت متوارثة في عادات ريف مصر حتى الآن .

الحالة السياسية:

نجد الحالة السياسية لمصر الفرعونية قبل عصر الأسرات كانت دويلات صغيرة لكل دويلة مدينتها العاصمة . ولم تكن لمصر حكومة مركزية إلى أن توحدت إبان الأسرتين الأولى والثانية بعد نضال توحيدى إمتد سنوات طويلة إلي عام ٣١٠٠ ق م عندما داهمت قوات مصر العليا الدلتا وأصبح الملك مينا موحد القطرين كما يلقب . وبهذا التوحيد أصبحت مصر أول دولة قومية كبرى في العالم القديم كما يقول (جون بينز أستاذ المصريات بجامعة إكسفورد) . وكان الملك يحكمها حكما مطلقا .

ومصر تنحدر من الجنوب إلي الشمال حيث ينساب النيل عبر الوادى . وهذا ما جعل طيبة بجنوب مصر مقرا للملوك قدماء المصريين . وهذه المدينة لما زارها هيرودوت أيام البطالسة وجدها مدينة خربة ورغم هذا الخراب مازالت حتى اليوم الأقصر بخرائبها التى وصفها هيرودوت ...... مدينة سياحية عالمية تبهر السياح من شتى أنحاء العالم بعظمة وروعة آثارها التى تعتبر كما يقول (هيجل) من أعجب آثار الدنيا .

وبنى الملك مينا مدينة منف (ممفيس) في المنطقة البينية بين شمال وجنوب مصر بالجيزة لتكون البوابة الفرعونية بين شطرى الوادى . وأثناء حكم الملك (سنفرو) أرسل حملاته الاستكشافية إلي ليبيا والنوبة وسيناء وأرسل إسطوله البحرى إلي سواحل لبنان (فنيقيا) لاحضار خشب أشجار الأرز لبناء المعابد لرع إبان الأسرة التي بنت الأهرامات بالجيزة . إلا أن أحد ملوكها الملك (شبسكاف) حاول التخلص من نفوذ كهنة الاله رع . فنراه يبنى له هرما رابعا بعيدا عن منطقة الأهرامات فبناه كمقبرة له في سقارة وهو هرم صغير لهذا السبب . لكن كهنة هيليوبوليس (عين شمس) عارضوه وعزلوه واستولوا على الحكم منصبين كبيرهم (أوزركاف) ملكا عام ٢٤٠٠ ق م ليؤسس الأسرة الخامسة . التي حكمها كهنة الاله (رع) . وقام الكهنة بهذا الإنقلاب الدينى باقرار عبادة الشمس (رع) ولهذا بنوا مقابرهم وقد ألحقوا بها المعابد للاله رع. وهذا العهد الدينى جلب لمصر الأزمات الإقتصادية والإنحطاط السياسى إلا أنه جعل فن النحت يزدهر لأول مرة . وملوك هذه الأسرة أضافوا إلي ألقابهم الملكية لقب (إبن الاله رع) . لهذا حكموا مصر بإتوقراطية دينية متسلطة . ورغم القمع السياسى الذى مارسوه على أوسع نطاق إلا أن النبلاء حكام الأقاليم إزداد نفوذهم مما جعلهم يضعفون النفوذ السياسى والدينى لحكم الكهنة بمصر . ومما قوى هؤلاء النبلاء التشكيك الذى ظهر على الصعيد الدينى حول العقيدة الدينية والطبيعة الالهية للملك . ولا سيما مقولة أنه إبن الاله رع . كما ساعد الفقر الذى ساد البلاد فجعل خزائنها خاوية . لأن هؤلاء الملوك الكهان أنفقوا الأموال الطائلة . فأسرفوا فى بناء المقابر لهم ولكهنتهم وعاشوا عيشة إسطورية تاركين الشعب يأكل الحصرم ولم يتقوا (رع) فيما أسرفوا أو أنفقوا . وتركوا أهل مصر يلاقون جباة الضرائب والنبلاء يلتهمون مواردهم وثرواتهم حتى إتخموا وكونوا لهم الحاشية والبلاط والجيوش في أقاليمهم المصرية . وهذا التفتت السياسى جعل هؤلاء النبلاء في نهاية الأسرة السادسة يتمردون على الملك بيبى الثانى . وظل طوال حكمه الذى استمر ٩٣ سنة في حرب ضد النبلاء . ولهذا عمت الفوضى البلاد التى تفسخت وحدتها

حتى حكم الأسرتين الأسرة السابعة والثامنة حيث ظلت البلاد في فوضى سياسية لكن ملوكهما إستطاعوا إستعادة نفوذهم على المناطق المتاخمة لمنف العاصمة . وهذه الفوضى السياسية جعلت القبائل الرعوية التى نزحت من آسيا إبان الأسرتين التاسعة والعاشرة تصل إلى شرق الدلتا واستولت على الأراضى الخصبة بها . مما جعل الملك خيتي الأول ينقل العاصمة من منف إلى مدينة هيركلوبوليس (إهناسيا) التى بناها على بعد ٨٠ ميلا جنوب منف ليكون بمنأى عن خطر هذه القبائل الأسيوية المحتلة لشرق الدلتا واستقرت بها . وفى العاصمة الجديدة أقام النظام والقانون وخلفه فيها ١٧ ملكا حتى نهاية الأسرة العاشرة . وكان الملك خيتى الثالث قد قام بطرد هذه القبائل الأسيوية إلا أن ثورة قام بها حاكم طيبة في الجنوب وهذه الثورة كانت في نهاية عهد خيتى الثالث عام ٢١٣٣ ق م . وامتدت شمالا حتى وصلت إلي أبيدوس . واستطاع الملك عقد معاهدة سلام مع الثائرين و المتمردين عليه . وكانت هذه المعاهدة بداية ظهور الدولة الوسطى (المملكة المتوسطة) التى حكمت منذ ٢١٣٣ ق م حتى ١٧٨٦ ق م حيث شهدت فيها مصر إزدهارا بعد قرون الإنحطاط التى سلفتها . فاهتم الحكام بالرى والزراعة والتجارة والصناعة اليدوية .

وساد ت البلاد خلال حكم الأسرتين الـ ١١ و الـ ١٢ (١٩٩١ ق م - ١٧٨٦ ق م) حالة من الاستقرار والسلام الدائم . إلا أن ثمة ثورة شعبية قد نشبت خلال حكم الأسرة الـ ١١ قام بها الفلاحون والعبيد والحرفيون . مما أجبرت فرعون مصر على تنازله عن العرش بعدها داهم الثوار بيوت الأقطاعيين ونهبوا قصورهم والمقابر الملكية عابثين بالموميات للملوك الغابرين . وألقوا بها خارج المقابر والأهرامات . ونهبوا القصر الملكى والمخازن الملكية بحثا عن الخبز والغلال والطعام ووزعوا الغنائم من نفائس وأطعمة بالتساوى على أفراد الشعب الجائع . وأتلف الثوار سجلات الضرائب والجزية . وأخذ أفراد الشعب يسكنون بيوت النبلاء والاقطاعيين وأجبروهم على العمل في الأرض بدلا منهم بالسخرة ليذوقوا ما كانوا يفعلون بهم . ولما تولى (أمنحتب) الثانى عام ٢٠٤٠ ق م وحد الدولة بعد تفسخها . وجعل طيبة عاصمة له . وامتد حكمه لمصر لمدة ٥١ عاما أعاد فيها لمصر هيبتها الدولية واسترد حدود مصر الأسيوية والليبية . وازدهرت في عهده بناء العمائر وحفر التماثيل ونحتها ووصلت قواته جنوبا إلى الشلال الثانى مسيطرا على أهل النوبة .

ومرورا بالأسرتين الـ ١١ و١٢ نجد أن مصر شهدت فيهما الاستقرار السياسي إلا أن ملوك الأسرة الـ ١٢ تركوا طيبة العاصمة وتركوها لعبادة الاله آمون والالهة (ست) . وبنوا لهم عاصمة (إشت) (Itj - Tawy) على بعد ٢٠ ميلا من جنوب منف . وكان الهدف من بناء

العاصمة الجديدة لتكون وسط البلاد وعلى مقربة من الدلتا لمراقبة ومنع تسلسل القبائل البدوية الآسيوية إليها . وملوك الأسرة الـ ١٢ تميزوا بالقوة والصلابة وكانوا نشطين داخليا وخارجيا . فأرسلوا الرحلات البحرية التجارية في البحر الأحمر إلي بلاد بنط (الصومال) وجلبوا منها البخور للمعابد والعاج والجلود والابنوس وقام الملوك باستصلاح الأراضى وتوسيع خزان الفيوم . وسيطروا بالكامل على الدولة وأقاموا حكومة مركزية من الأشراف والقواد لتحكم البلاد وتدير شئونها . واستطاعت هذه الأسرة إخماد معارضة الكهنة ومعهم قواد الجيش والأعيان مما قوى نفوذ ملوكها . وظلت الحكومة المركزية تحكم مصر طوال ٣٠٠ عام حتى ظهور الدولة الحديثة فتحولت الحكومة إلي البيروقراطية الحاكمة تتولاها شبكة متداخلة من الوزراء والكهنة والعمد والكتبة . وأصبحت سلطاتهم طاغية لما أصبحوا يتمتعون به من نفوذ سياسى وثروات ضخمة . وأصبح الكهنة يختارون فرعون مصر ويعينونه ملكا عليها . وبهذا إستردوا نفوذهم وتسلطهم على الحكم في البلاد .

أما الأسرة الـ ١٣ (١٧٨٦ ق م - ١٦٣٣ ق م) فلقد حكمها ٦٠ ملكا . والأسرة الـ ١٤ كانت تضم ٧٦ ملكا . وفي عهد هاتين الأسرتين غزا الهكسوس الدلتا بأسلحتهم ومعداتهم وعرباتهم الحربية الشهيرة عام ١٧٢٠ ق م وحكموا الدلتا وعرف حكمهم بحكم الملوك الرعاة (أصلهم قبائل رعوية آسيوية) وظلوا يحكمون الدلتا قرنا ونصف حتى طردهم الملك أحمس إبان الأسرة الـ ١٦ . وبعد طرد الهكسوس أصبحت مصر أمة متحدة مما جعل المصريين يشعرون بقوتهم وسادتهم الروح العسكرية المحاربة لأول مرة . وخرجت مصر من عزلتها فسلحت جيشها بالخيول والعربات التى استولت عليها من الهكسوس .

وبهذا استطاع أحمس رد الهكسوس من مصر الوسطى وطرد ملكهم (تيتى) من مدينة أبيدوس عاصمتهم واتخذوا من (أفاريس) عاصمة جديدة لهم ... وإبان حكم الأسرة الـ ١٨ إستطاع الملك أموزيس مؤسسها محاصرة مدينة (أفاريس) العاصمة وطرد الهكسوس من الدلتا وطاردهم في فلسطين والشام بعد ها أسس المملكة الحديثة . التى كانت علامة بارزة فى التاريخ المصرى حيث خرجت مصر من عزلتها فشنت حملاتها علي ليبيا والنوبة أيام حكم الملك تحتمس الثالث (١٥٢٥ ق م - ١٤٩١ ق م) الذى شيد أسطولا بحريا قويا إستولى به على سواحل شرق البحر الأبيض في الشام وفلسطين وتخوم آسيا الوسطى . وشن جيشه ١٧ حملة فى آسيا لاخضاع الشام وفلسطين . وهذه الحملات العسكرية جلبت الغنائم لمصر . وصور هذه المعارك

سجلها الملك تحتمس الثالث على معبد الكرنك وعلى جدران مقابر قواده . وكان قد وصل بقواته إلى تخوم نهر الفرات بعد معارك ضارية مع ملك قادش . ثم وصلت قواته إلى الشلال الرابع في جنوب مصر . ورغم صغر سن الملك الفرعوني إلا أنه حقق أنتصارات باهرة تعتبر نقطة تحول كبرى فى تاريخ العسكرية المصرية .

وملوك الأسرة الـ ١٨ عدلوا عن بناء الأهرامات كمقابر مكشوفة واستعاضوا عنها ببناء المقابر السرية في جوف تلال طيبة بوادى الملوك الذى كان يعتبر منطقة نائية ليسهل حراستها من لصوص المقابر . وهذه الجبانة الملكية عينوا لها عمدة منفصلا عن عمدة طيبة البلد بالضفة الشرقية للنيل . ورغم هذه الحراسات المشددة كانت هذه المقابر تنهب بضراوة بواسطة حراسها .

والأسرة الـ ١٨ شهدت - أيضا - ملكين حظيا بشهرة عالمية وهما إخناتون وتوت عنخ آمون . وكان إخناتون (أمنحتب الرابع) (١٤٢٤ ق م - ١٣٨٠ ق م) قد قام بعدة إصلاحات دينية حيث وحد الآلهة المصرية المتعددة في إله واحد هو الاله آتون (إله الشمس) . وأمر ببناء المعابد باسم آتون في كل أنحاء البلاد ولقب أمنحوتب الرابع نفسه بأخناتون (محبوب آتون) أو (الله راض) . وهذه الدعوة الدينية التوحيدية جلبت عليه ثورة كهنة آمون لكنه إستطاع إخمادها . وانصرف الملك إلى دعوته الجديدة مما شغله عن المملكة التى فقدت ممتلكاتها في غرب آسيا . وبعد ٦ سنوات من حكمه أعلن دعوته ونقل العاصمة من طيبة آلي المدينة إخناتون (أي أفق آتون) وهى الآن مكان تل العمارنة . وطالبه قواده باعادة إحياء ديانة آمون رع والابقاء على طيبة كعاصمة إلا أن محاولتهم لم يستجب إليها .

ظهور ديانة التوحيد

كانت فترة حكم تل العمارنة تعتبر ثورة إجتماعية وسياسية معا كما يقول (سيرل الدين) في كتابه (إخناتون ... فرعون مصر) . وكانت نقطة تحول في التاريخ المصرى القديم باستثناء حكم كليوباترا السابعة . فلم ينل حاكم مصرى من إهتمام المؤرخين كاخناتون زوج الملكة الجميلة نفرتيتى . وشهرته أنه أول ملك يعلن بشرية الملك وخلع على نفسه صفة الألوهية التى كانت تضفى على ملوك الفراعنة . وسجل إخناتون دعوته على جدران المقابر الصخرية في مصر الوسطى . وعبادة (آمون) لم تكن مجرد عبادة الشمس كما يقول (بريستيد) في كتاب (تاريخ مصر) لأن معنى كلمة آتون في فكر إخناتون لم تكن الكلمة مجردة فحسب بل كان يقصد بها القوة الالهية

التى تتجلى في هذا النجم (يقصد الشمس) . وهذا يتضح في أناشيده كما يقول (إدولف إرمان) في كتابه (الديانة المصرية) حيث جاء في أناشيده (إنك الاله الأحد ولا إله غيرك) . ثم قام بعدها بمحو إسم آمون من المعابد والآثار وأغلق معابد الآلهة الأخرى في مصر لمنع إقامة أي طقوس أو شعائر دينية لها . كما صادر ممتلكات هذه المعابد وضمها للدولة . وأمر بمحو النقوش التى يذكر بها إسم الآلهة بصيغة الجمع ولم يكن يسمح برسم أو تجسيد الاله آتون لأنه الاله الحق . لا شكل له . وظلت هذه الديانة تحارب بشدة وبعنف من كهنة آمون حتى أصبحت مقصورة على حاشيته فقط . وبعد وفاته تولى توت عنخ آتون . لكن القواد والكهنة أجبروه على العودة إلى ديانة آمون رع . وبعد عام من توليه عاد إلى الديانة السابقة ولقب بتوت عنخ آمون . وأعاد طيبة كعاصمة له . ولقبت زوجته بلقب أخن آمون . وبعدما ترك توت عنخ آمون مدينة إخناتون (أخن آتون) نزح معه كبار رجال الدولة والأثرياء الذين حملوا معهم ثرواتهم تاركين قصورهم المنيفة للنهب والسلب . وحمل الكتبة معهم أوراقهم ووثائقهم البردية . ودفنوا الرسائل الأجنبية التى إكتشفت فيما بعد بتل العمارنة . ونقل الأهالى موتاهم الذين كانوا قد دفنوا في جبانتها إلي أراضى ذويهم . ونقلت جثث الأسرة الملكية إلي جبانة طيبة . واعتبر الكهنة إخناتون مارقا بل ومجرما .أما الملك توت عنخ آمون فمقبرته الملكية كانت غنية بكنوزها التى إكتشفت عام ١٩٢٣ . بعدها نالت شهرة عالمية لروعة مقتنياتها . وبعد وفاته شن ملك الحيثيين هجومه على مصر وأسر المصريين مما جعل أرملة توت عنخ آمون بعد تخريبه البلاد وأسره للمصريين ترسل له رسالة تطلب فيها منه إرسال أحد أبنائه لتتزوجه وتنصبه ملكا على مصر ، لأنها لم تنجب من الفرعون الراحل أبناء لهذا سينصب الفرعون الجديد . إلا أن ملك الحيثيين لم يستجب لرجائها ولم يتم هذا الزواج بالمراسلة .

والأسرة الـ ١٩ شهدت حكم الملك سيتى الأول (١٣١٨ ق م - ١٣٠٤ ق م) الذى شن حملاته في آسيا واستعاد نفوذ مصر هناك بصعوبة ولا سيما وأن ملك قادش تصدى لفتوحاته . وهذه الأسرة حكمها الرعامسة وكان من بينهم رمسيس الثانى (١٣١٧ ق م - ١٢٥١ ق م) (يقال أنه فرعون موسى) وفى عهده بلغت مصر ذروة مجدها . وحاول الحيثيون الهجوم على الشام المصرية لكنه لاقاهم في قادش ووقع معهم معاهدة سلام . وفى أواخر عهده أخذ القراصنة الاغريق يصلون إلى الدلتا وليبيا وهؤلاء أتوا من جزر بحر إيجه . وحاولوا غزو مصر من الغرب بعدما جاءت قواتهم من ليبيا . لكن المصريين قاوموهم وأسروا منهم تسعة آلاف أسير . وهذه

المعارك جعلت لها هيبتها مما جعل الكثيرين يحجمون عن مهاجمتها . واستطاع رمسيس الثالث (١١٩٨ ق م - ١١٦٦ ق م) تحقيق إنتصارات بحرية على أسطول الفينيقيين . ويعتبر رمسيس الثالث آخر عمالقة الفراعنة رغم أن ثمانية ملوك من الرعامسة قد خلفوه . وكان آخرهم رمسيس الـ ١١ (١١١٣ ق م - ١٠٨٥ ق م) الذى عزله الكاهن الاكبر (هيرهور) كبير كهنة آمون بطيبة ونصب نفسه ملكا على مصر ليعود حكم الكهنة ثانية لها . إلا أن ثورة في الدلتا قامت ضده بزعامة (نزنبديف) مؤسسا الأسرة الـ ٢١ وجعل عاصمتها تانيس .

والأسرتان الـ ٢٢ و ٢٣ كانتا عبارة عن مملكتين إحداهما في الدلتا وعاصمتها تانيس والأخرى في الصعيد وعاصمتها طيبة . وخلال حكمهما كان الليبيون مقيمين بالدلتا إبان نهاية المملكة الحديثة حيث منحهم ملوكها أراضى ليزرعوها . لكن شيشنق الليبى نصب نفسه ملكا على مصر خلال الأسرتين ٢٢ و٢٣ مستغلا الأنقسام بين الشمال والجنوب . وإستولى على القدس (٩٣٠ ق م) كما استولى على كنوز الملك سليمان التى كانت في الهيكل . وهذه الغزوة الليبية سجلت على جدران معبد الكرنك . إلا أن النوبيين (الأثيوبيين) إستولوا على مصر ما بين عامى (٧٥١ ق م - ٦٦٣ ق م) . وظلوا يحكمونها حتى الأسرة الـ ٢٥ . و أصبحت مصر تحكم من نباتة بالنوبة قرب الشلال الرابع . وكان الأثيوبيون (الكوشيون) الغزاة قد تمصروا قبل حكمهم الأخير لمصر . لأن نباتة بالذات كانت موئلا للكهنة المصريين التابعين لآمون . ودام الحكم الأثيوبى لمصر حتى مجيء الأشوريين عام ٦٧٠ ق م . ثم حكمها بسماتيك الأول عام (٦٦٣ ق م - ٥٢٥ ق م) مؤسسا الأسرة ٢٦ بعد ما طرد الأشوريين من الدلتا موحدا مصر. بعده أتى قمبيز (فارس) عام ٥٢٥ ق م وظل الفرس يحكمون مصر حتى مجيء الأسكندر المقدونى عام (٣٣٢ ق م) . وكانوا يتخذون من سمنود عاصمة لهم .

****

***

العصـر الإغريـقى

يبدأ العصر الأغريقى بمصر مع مجيء الإسكندر الأكبر . وفي مصر قام الاسكندر بتقديم القرابين للآلهة المصرية في منف (ممفيس) . وزار معبد آمون بواحة سيوة ثم قام بتأسيس مدينة الإسكندرية بعدها رحل من مصر لملاحقة الفرس تاركا حكومة أغريقية فيها . ولما مات عام ٣٢٣ ق م إستقل بطليموس الحاكم الإغريقى بأقليم مصر واتخذ لنفسه لقب الملك مؤسسا دولة البطالمة (البطالسة) . وأيام بطليموس الأول دار صراع بينه وبين حكام الشام ومقدونيا من الأغريق . وصد بأسطوله الجديد هجماتهم بل إستولى على جزر بحر إيجه باليونان وعلى جزيرة قبرص . وكان الأغريق لما إستولوا على مصر جعلوا الاسكندرية مدينتهم الحديثة عاصمة لهم كما جعلوها مركز العقيدة الفرعونية القديمة . ليس في مصر وحدها بل في العالم الأغريقى القديم . وهذه كانت بداية شهرة الاسكندرية كإشعاع حضارى وبنى بطليموس الأول معبد (سيرابيوم) ليعبد فيه الثلاثة آلهة المصرية وهى أوزوريس وإيزيس وحورس . وكان الأغريق قد أطلقوا على أوزوريس الاله المصرى سيرابيس ومن هذه التسمية أطلق على المعبد (سيرابيوم) . الذى قام أيام بطليموس على أساس عقيدة التثليث من حيث النظرة الفرعونية التى كانت تنظر إلى الآلهه الثلاثه كإله واحد كما يقول هـ . ج . ويلز في كتابه مختصر تاريخ العالم . وإنتقلت هذه العقيدة للاغريق . فأطلقوا على أوزوريس (زيوس) . وللرومان فأطلقوا عليه (جوبيتر) وللفرس فأطلقوا عليه (إله الشمس) . وانتقلت هذه الدعوة الفرعونية حتى وصلت إلى شمال الهند وغرب الصين مما أثر على عقائدهما . لهذا أطلق على أوزوريس إسم سيرابيس أي أنه المنقذ للأرواح بعد الموت . أما الالهة إيزيس فكانت تماثيلها توضع في المعابد . وكانت تعتبر ملكة السماء . كما تصورها تماثيلها وهى حاملة ابنها حورس بين ذراعيها حيث كانت تضاء أمامها الشموع ويقدم إليها النذور والقرابين . وكان الكهنة العزاب يقيمون عند مذبحها للخدمة والسهر .

وكان السرابيوم هو جبانة لدفن العجول المقدسة بمدينة منف . وهذه الجبانة (السرابيوم) كانت في سقارة في شمال غرب هرم سقارة . وكان العجل المقدس الذى يموت في منف ينقل للسرابيوم ليدفن في مقبرة خاصة وهذه العجول المقدسة .كان قدماء المصريين يحنطونها ويكفنونها ويضعونها في توابيت خاصة بعد تأدية الصلوات الجنائزية لها . وهذه الاحتفالية الجنائزية لم تكن تقل روعة عما كان يقام لأعظم ملك لمصر بعد موته . وكانت تشيد فوق مقبرة

العجل المقدس مقصورة على سطح الأرض وتوضع مع العجل الأحجار الكريمة . والعجل كان مقدسا في منف ويسمى (حابى) لكن بطليموس الأول صوره في صورة آدمية سماها سرابيس وأقام له معبدا بالاسكندرية أطلق عليه السيرابيوم وجعله شكلا من أشكال أوزوريس وايزيس . كما أقام له معبدا آخر فوق المقابر بسقارة وبنى له طريقا وضع على جانبيه تماثيل لأبى الهول وأصبح معبد سرابيوم سقارة من أشهر المعابد في العصرين البطليموسى والرومانى .

وعصر البطالمة تميز بالطبقية .. فالأغريق داخل المدن التى يعيشون فيها كان لهم قانونهم الذى يحظر عليهم الزواج من المصريين ولهم محاكمهم وللمصريين محاكمهم . وكانت التجارة والصناعة حكرا على الملك . وبطليموس الثانى قام بوضع النظم المالية الدقيقة للدولة . وأد خل الزراعة الحديثة وزراعة الزيتون لزيادة محصولية الأرض . وكانت أرض مصر كلها ملكا للملك في هذا العهد .

وأيام حكم بطليموس الرابع جهز جيشا من المصريين على الطريقة المقدونية العسكرية لمحاربة أنطيكيوس في الشام وانتصر عام ٢١٧ ق م في (رافيا) .

وانتصار الجيش المصرى أعطى ثقة للمصريين فهبوا بثورة في طيبة . واستقلوا عن الأغريق وأصبح لمصر حكمين مزدوجين . أحدهما في طيبة والآخر في الإسكندرية (البطالسة) . وكان الأغريق في مصر على علاقة وطيدة بروما إبان الدولة الرومانية ففى عام ١٧٠ ق م غزا انطيكيوس مصر وضمها إلي حكمه في الشام إلا أن الدولة الرومانية أجبرته على الإنسحاب من مصر . وفي القرن الأول ميلادى كان البطالمة قد فقدوا أملاكهم الخارجية ولم يبق لهم سوى الدلتا والاسكندرية . لأن طيبة قد وطدت إستقلالها . وفي عام ٤٨ م . أمر يوليوس قيصر بومبى بالتوجه لمصر للاستيلاء عليها لكن كليوباترا السابعة تصدت له وأسرته في قصر بالاسكندرية . ويعتبر حكمها متسما بالنشاط العسكرى والسياسى وسعة الحيلة أمام الدولة الرومانية في روما . وهى في أوج مجدها . وأوقعت أنطونيو القائد الرومانى في غرامها . وبهذا جعلت حكمها قويا مدعما عسكريا . وكانت أقوى من أجدادها البطالمة الأوائل فنراها تحارب بأسطولها القوى عام ٣١ ق م الرومان في موقعة اكتيوم . إلا أن المعركة بددت أحلامها بعد هزيمتها فانتحرت لتنهى صفحة حكم البطالسة لمصر . ليبدأ حكم الرومان لها .

عصر الرومان

كان الرومان يعتبرون مصر سلة الخبز لهم في روما . ولما ضمها أوغسطس للدولة الرومانية جعل لها وضعا خاصا فلم يسمح لأي روماني بزيارتها إلا بأمر من الامبراطور في روما وجعل فرسان الدولة يحكمونها . وعين له نائبا عنه في الاسكندرية . وكان المصريون يعتبرون الامبراطور الروماني في روما هو الفرعون له نائبه بمصر . وطلب أهل الاسكندرية أن يكون لهم مجلس الشيوخ اسوة بما هو متبع في روما . لكن الامبراطور أوغسطس رفض ، إلا أنه ميز الاغريق الذين يسكنون مصر على المصريين بأن جعل لهم مجلسا شعبيا ، ويدفعون ضرائب أقل . وقام بفرض الجزية على أصحاب البيوت يدفعونها عن سكانها ، وقام بتسجيل الأراضي . لكن في عام ٣٩ م قامت ثورة شعبية في طيبة ضد الرومان أخمدها جاللوس فاستكان بعدها المصريون للرومان الذين فرضوا عليهم الضرائب الباهظة والمجحفة . واستنزفوا ثرواتهم وخيراتهم لدرجة كان الفلاحون يهجون من الأرض و يتركونها بلا زراعة .

وأحوال مصر في العصر الروماني الذى بدأ فيها بدخول القائد الروماني اكتافيوس إلي الأسكندرية عام ٣٠ ق . م . حيث عفا عن أهلها وكانوا جميعا من الاغريق واليهود لأنها كانت تعتبر مدينة إغريقية يحرم على المصريين دخولها . وكانت الجاليات الاغريقية واليهودية منتشرة في كل الأقاليم المصرية أيضا . وناصب الاغريق العداء للحكم الروماني الجديد . رغم أنه أبقى على امتيازاتهم الطبقية . لكن اليهود سرعان ما أعلنوا ولاءهم التام له . وفرض إكتافيوس (الامبراطور أو جست فيما بعد) ضريبة الرأس على المصريين واليهود وأعفى الأغريق بالأسكندرية منها .

ولما دخل اكتافيوس الاسكندرية نقل الاشراف على المعابد المصرية إلي الدولة وصادر أملاكها وعين أحد الموظفين في قصره أطلق عليه كاهن الاسكندرية ليشرف على الكهنة والمعابد . ورتب للكهنة مرتبات شهرية تصرف لهم من خزينة الدولة . وكان قد عين مفتشين للتفتيش على هذه المعابد ومراقبة العمل بها ومواظبة الكهنة على الحضور والانصراف . ومن كان يخالف يقبض عليه ويرسل مقيدا إلي الاسكندرية ليعاقب أشد العقاب . وكان كاتب كل إقليم يرسل إلي الكاهن بالاسكندرية تقارير شهرية عن سير العمل بهذه المعابد . وكانت الدولة تعين الكهنة عن طريق طرح المناصب الكهنوتية الشاغرة في المزاد العلني ويحصل عليها من يدفع أكثر . وقد كانت

هذه المناصب من قبل بالوراثة والتعيين . ولما أنشئت المجالس بالمديريات أصبحت تشرف على المعابد بها . وبهذا الاسلوب ضمن الرومان الحد من نفوذ هؤلاء الكهنة أو تدخلهم في أمور البلاد . حتى لا يمثلوا معارضة لحكمهم عكس حكم البطالمة كان للكهنة نفوذهم السياسى والدينى والاجتماعى .

وفي عام ١٧٧ م . أيام حكم الامبراطور (ماركوس أوريليوس) قام الفلاحون بايعاز من أحد الكهنة بثورة عارمة في الدلتا تزعمها الكاهن (ايذيروروس) وهجم الثائرون على قائد الحامية الرومانية وذبحوه ومثلوا بجثته وقدموها قربانا للآلهة . وأتى القائد الروما(أقليدس) بقواته من سوريا لاخماد هذه الثورة إلا أن المصريين والاغريق أو عزوا له بالعصيان ضد الامبراطور . فأتى الامبراطور ماركوس بنفسه للقضاء على هذه الثورة وأخمدها . لكنه عفا عن الثائرين . ولما خلفه ابنه كمودس نكل بكبار رجال الاسكندرية مما جعل كبيرهم إبيانوس يقول له : أنت ظالم . وواجهه صراحة بظلم روما لمصر لأخذها القمح لتبيعه في أسواق الدولة الرومانية بأربعة أضعاف ثمنه .

وبعد مقتل كمودوس دار الصراع بين القائدين نيجر وسيفيروس عام ١٩٣ م . حول تولى عرش روما فأتى سيفيروس على عجل إلي مصر للسيطرة على القمح حتى لا يستولى عليه غريمه بيجر ويجوع روما . وزار أقاليم مصر وعين بها المجالس التشريعية وحملها مسئولية جباية الضرائب وارسالها إلي روما . وأصدر قانون المواطنة بمصر . ألغى فيه الفوارق وسوى بين كل القاطنين بها من مصريين واغريق ويهود كما ألغى امتيازات الاغريق واعفاءهم من ضريبة الرؤس

وفي عام ٢١٥ م . زار الامبراطور كاراكالا مصر . وقام أهالى الاسكندرية باستقباله بالسخرية فقتل شبابها وطرد كل المصريين منها . [وكان قانون المواطنة قد أعطاهم حق السكنى فيها] . وفى هذه الفترة وما بعدها ساءت أحوال مصر تماما ولم تعد سلة القمح التى كانت تطعم روما وبقية الامبراطورية الرومانية . وتولى حكم مصر حكام ضعاف وبلا شخصية . وأصبحت روما ترسل القمح إلي مصر من حصتها .

وفي عهد الامبراطور (ديقيوس) (٢٤٩ م - ٢٥١ م) . أخذت المسيحية تنتشر في مصر إلا أن الامبراطور أجبر المسيحيين على تقديم القرابين باسمه في المعابد واحراق البخور . لأنه فوق مستوى البشر . وهذا يخالف التعاليم المسيحية . وعصاه المصريون . وحرضوا الحاكم الرومانى (أميليانوس) على التمرد والانفصال بمصر ونصبوه امبراطورا لمصر وما حولها من

الولايات الشرقية . فأرسل الامبراطور القائد الروماني تيودوس وهاجم الاسكندرية وأحرق مبانيها . لكن البلاد اجتاحها وباء أودى بحياة المصريين ولم يبق بالاسكندرية سوى ثلث سكانها .

حكم زنوبيا :

كان الحاكم الروماني جالينوس (٢٥٣ م - ٢٦٨ م) حاكما للاسكندرية منح المسيحيين لأول مرة حرية ممارسة شعائرهم الدينية وسمح لهم أيام الأسقف ماكسيموس ببناء الكنائس ووقتها بنيت الكنيسة المعلقة في مصر القديمة . لكن الامبراطور دقليديانوس أجبرهم على التخلى عن ديانتهم وهدم كنائسهم . كما أجبرهم على تقديم القرابين في المعابد باسمه واطلاق البخور . ولاقى المسيحيون كل ألوان التعذيب والاضطهاد في عهده ولا سيما في عام ٢٨٤ م . الذى يعتبره المسيحيون عام شهداء المسيحية . وأيام هذا أرسل المصريون في خفية إلى الملكة زنوبيا ملكة مملكة تدمر (بالميرا) بالأردن لترسل إبنها (وهب اللات) وكانت ملكة عربية تعبد اللات والعزى . فارسلته لتخليص مصر من نير الحكم الروماني واستقل ابنها بالاسكندرية إلا أن الامبراطور أورليان استردها بالمفاوضات . فهجر الفلاحون أراضيهم وتركوها بورا وكونوا عصابات لقطع الطرق والسطو . وفى عام ٢٦٧ م . حاول أحد الحكام الرومان الاستقلال بمصر وأعلن نفسه امبراطور الاسكندرية . وأتى الامبراطور من روما بنفسه وحاصر المدينة ثمانية شهور ، دمر معظمها . بعدها أصبحت مدينة هامشية لاوزن لها ضمن إطار الدولة الرومانية .

وتدهورت محاصيل مصر وقل القمح بها لدرجة أرسل لهم الامبراطور ديقليديانوس معونة قمح عاجلة من مخازن روما . ففرح بها المصريون ووفاء لهذا أقاموا باسمه عمود السوارى (عمود بومبى) . وسبب هذه المجاعة وقلة المحاصيل أن الحكام الرومان كانوا يرفعون الضرائب بشتى الطرق لدرجة أن أحد الحكام ليرضى الامبراطور أرسل له ضعف خراج مصر من الضرائب فعزله قائلا : لقد أرسلتك لتجز صوف خرافى لا تسلخ جلودها . ولهذا كان الفلاحون يهجرون من أراضيهم ويختفون عن السلطات . وأصبحت مصر منذ عهد الامبراطور كمودوس (قتل) عام ١٩٣م . غير ملزمة بتوريد القمح لروما .

تاريخ الإسكندرية :

كانت مدينة الاسكندرية كما خططها الاسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق . م . تعتبر نوذجا معماريا لكل المدن الاغريقية والرومانية التى شيدت بعدها على غرارها . فلقد شقت شوارعها لتكون عريضة . وكانت المدينة على شكل مستطيل على اللسان الذى حدده الاسكندر في جزيرة

فاروس القديمة . وأصبحت بعد قرن من بنائها أكبر مدينة في الدنيا وأجملها . بهرت الزوار بعظمتها واتساع شوارعها ومبانيها الرائعة التي كانت بمثابة تحف فنية ولا سيما قصورها المنيفة التي كانت تحتل ثلث مساحتها علاوة على المتحف الملكي الذي كان أكبر جامعة في العالم القديم وكان يضم مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي كان بها ٧٠٠ ألف كتاب . علاوة على الجمنيزيم (الاستاد الرياضي) الذي كان أكبر من أستاد أثينا . وكان تمارس فيه الألعاب الاولمبية والمباريات الرياضية وكان يعتبر منظمة شبابية يتدرب فيها شباب الاغريق وقصره عليهم حتى ابان الحكم الروماني . وكان بالاسكندرية قصر المحكمة الكبرى والحدائق الواسعة في كل مكان والمسرح المدرج وأقواس النصر والبوابات الضخمة والفنار الذي كان أحد عجائب الدنيا السبع . والمعابد الاغريقية الكبيرة والمسلتان اللتان نقلتا إلي لندن ونيويورك . وكان بالاسكندرية جبلاية صناعية لها مدرج حلزوني يؤدي إلي ظهرها ليرى من فوقه الناظر المدينة كلها في كل اتجاه كسجادة جميلة موشاة ومزخرفة بألوان المدينة وحدائقها كأنها لوحة رسمها فنان وأبدع في رسمها مماكان يلهب هذا المنظر وجدان الشعراء الاغريق الذين فتنتهم هذه المدينة بجمالها الخلاب .

وكان سكنى الاسكندرية أيام البطالمة والرومان من بعدهم قاصرة على من له حق المواطنة بها (الجنسية السكندرية) دون غيرها من المدن المصرية . وكان سكناها محرما على المصريين . فلهذا كان أهل مصرهم المصريين والسكندريين وكانت هذه المواطنة السكندرية تعطي لصاحبها إمتيازات طبقية منها الاعفاء من الضرائب سواء إبان الحكم البطليموسي أو الحكم الروماني . ولهذا كان سكنى الأسكندرية قاصرا على الاغريق وشاركهم الرومان عندما إحتلوا مصر . وكان الحصول على حق المواطنة في الاسكندرية قاصرا على الاغريق وخريجي الجمنيزيم من أبنائهم والرومان والعبيد الذين كانوا يعتقون بأمر من الامبراطور في روما أو الذين يلتحقون بالخدمة في الحامية الرومانية العسكرية . وهؤلاء كانوا مجتمع الصفوة وبقية الشعب المصري كانوا جماعة المصريين وكانوا يسمون بالفلاحين وكان عليهم دفع الضريبة كاملة وكانوا يعاقبون أيام البطالمة والرومان دون غيرهم .

والمصريون كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين بالإقامة فوق وطنهم ولهذا كانوا رعية كل حاكم لهم . فكانوا رعايا فرعون . ولما كان الامبراطور الذي يحكم بلادهم في روما كانوا يسمونه فرعون وكانوا يقدمون إليه القرابين في معابدهم ويطلقون فيها البخور تقديسا له وكانوا يسمون كل امبراطور أو ملك أجنبي حكمهم فرعون العظيم .

وكان عدد المصريين في القرن الأول حسب التعداد الروماني حوالى سبعة ملايين ونصف . لكن الأوبئة كانت تحصدهم . وكان المصريون يحددون نسلهم كرها في ضريبة الرؤس التى كانوا يدفعونها على الأبناء والأطفال والنساء . لهذا كانوا يحددون الانجاب حتى لا تزيد عليهم الضرائب المجحفة . وانتقلت عدوى عدم الانجاب من مصر إلي فلسطين وبرقة حيث تمثل اليهود هناك بهذه الفكرة المصرية . فكانوا لا ينجبون الأبناء تهربا من ضريبة اليهود التى فرضها الرومان عليهم وقتها . لهذا نجد المصريين أول من طبق فكرة تحديد النسل في العالم بتلقائية ضرائبية ولهذا كان المصرى لا يعتبر الأبناء عزوة . ولذا كانوا يرسلونهم إلي الصفوة ليعملوا لديهم نظير لقمتهم فقط وحمايتهم من الظلم والبطش الذى يقع عليهم أيام الحكم الرومانى . لذا توارث المصريون المثل الشائع (إن فاتك الميرى إتمرغ في ترابه) رغم أن العامل كان يعمل نظير الجراية وسخرة بلا أجر في الاقطاعيات .

وكانت الرشاوى أيام قدماء المصريين والبطالمة متفشية حتى الكهنة في المعابد لم يعتقوا الموتى وكانت عقيدة أوزوريس سائدة حتى أيام الرومان . وكان المصريون يعتقدون أنه رمز للعدالة وأنه سيزن أرواح كل المصريين بالريشة . ولهذا فميزان العدالة الذى يوضع فيه ريشة العدالة مأخوذ عن رمز العدالة لدى قدماء المصريين . ومفهوم العدل كان يتبلور في فكرة أن كفة روح أو قلب الميت تكون أخف من كفة الريشة التى توزن بها الأرواح بواسطة الاله أوزوريس . واستغل الكهنة هذا أيام العصرين البطليموس والرومانى . فروجوا فكرة بيع صكوك الميزان . فيدفع الميت إتاوة للكاهن ليجعل قلبه خفيفا في الميزان أو لتوضع له ريشة ثقيلة لترفع من كفته .

وكانت الدولة الرومانية همزة الوصل بين مصر والعالم الغربى القديم . فانتقلت العقائد الدينية المصرية إلى أوربا إبان العصر الرومانى . وانتشرت أسطورة أوزوريس وأناشيد الكهنة وفكرة حياة الخلود ، وهذه العقائد إنتشرت لدرجة أنها وصلت إلي هولندا وإسكتلندا أيام الرومان واقتبس أباطرة روما من الفراعنة فكرة تأليه الملك . ففرضوها على الرومان حيث شيدت المعابد في روما للعبادة السياسية . فكان يذهب إليها الشخص ويقدم النذور ويحرق بها البخور لاظهار ولائه للامبراطور الرومانى . وأقاموا المذابح فيها لهذا الغرض .

العصـــر البيزنـــطي

مع بداية القرن الرابع شهدت الأمبراطورية الرومانية إنحلالا قسمها إلي إمبراطوريتين هما الغربية في روما والشرقية في بيزنطة (القسطنطينية) . وكانت مصر قبل القرن الثالث تعانى القلق من الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين . ثم أخذت دولة الروم مع مطلع هذا القرن تتبع أسلوب تقييد الحريات للشعب المصرى . ولا سيما عندما فرضت القسطنطينية عليه ما سمى بالاصلاح الدينى . وكانت المسيحية قد بدأت تظهر في مصر وقتها . وفي عصر قسطنطين العظيم أصبحت مصر مسيحية ضمن الإطار العام للمسيحية في الدولة البيزنطية . وظل معظم المصريين على عقائدهم الفرعونية حتى القرن السادس كما يقول (أوليرى) في كتابه (الفكر العربى ومكانته في التاريخ) حيث قال : أن المسيحية في روما وأفريقيا وبلاد الاغريق كانت أقلية محتقرة تتكون من الطبقة الأمية ولا سيما في الاسكندرية التى كانت فيما قبل مركزا للفلسفة الأغريقية القديمة التى كانت تتخذ من الفيثاغورثية أساسا لها .

ومنذ عهد البطالمة أصبحت اللغة الاغريقية هى اللغة الرسمية في مصر التى أصبحت فيما بعد اللغة الرسمية للدولة البيزنطية . أما اللغة المصرية القديمة فقد توارت طوال هذه القرون التى استعمرت فيها مصر .

والقبائل العربية طوال هذه الحقب التاريخية كانت تنزح إلي مصر من شبه الجزيرة العربية والشام وفلسطين عبر سيناء . وكانت تنزل مصر أيام المواسم التى يشتد فيها القحط والجفاف سعيا وراء الماء والكلأ . وقد تصل هجراتها الموسمية إلي أقصى الصعيد أو إلي إقليم برقة بليبيا . وكانت هذه الهجرات الرعوية سائدة قبل الفتح الاسلامى وظلت بعده . وليس أصدق ما يقال تأكيدا لهذه الحقيقة التاريخية سوى تغريبة بنى هلال الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية بعد القحط . فسعوا وراء الماء والكلأ إلي أن وصلوا مارين بمصر حتى أقصى شمال أفريقيا . وكانت هذه الرحلة التغريبية رحلة قبيلة من كبريات القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية قد إجتاحها القحط فهجت . ناهينا حول ما أضفى على هذه التغريبة من قصص أصبحت ثبتا في تراثنا الشعبى تضاربت حولها السير والأقوال سواء في مصر أو شمال أفريقيا . لكن هذا التضارب لا يفقدنا القول بأن بنى هلال رحلوا ضمن ما ألفت عليه القبائل العربية الرحل . وهذه طبيعة المعيشة الرعوية لكل قبائل البدو سواء في شبه الجزيرة العربية أو أواسط آسيا . ولو طالعنا التاريخ

الفرعونى نجد أن سيدنا يوسف قد أتته قبائل الكنعانيين العرب ومن بينهم أبوه وإخوته عندما هبطوا مصر لما ألم بهم القحط واشتد . فأتوا ليحصلوا منها على مؤنهم .

وهذه الهجرات العربية أثرت على اللغة المصرية القديمة حتى أصبحت اللغة فرعونية مع خليط من العربية . ومن ثم ... نرى أن مصر قد أصبحت فرعونية عربية قبل مجيء الاسلام وشعبها – كما أجمع علماء الأجناس – هو خليط من الجنس السامى العربى والحامى الافريقى . لهذا لما فتح العرب مصر وجدوا فيها عربا مصريين رحبوا بهم على عكس الفرس أو البيزنطيين أو اليونانيين الغزاة الذين لم تجمعهم بالمصريين هذه الخلفية العرقية أو الصلات التاريخية . ولهذا نرى مؤرخى الدولة البيزنطية يطلقون إسم (العرب البائدة) أو العمالقة على القبائل في مصر والحجاز والعراق منذ ١٥٠٠ ق م . وهذا المصطلح ما زال مؤرخو الغرب يطلقونه . وهذه القبائل العربية هى من أقدم القبائل . لهذا نجد (شارب) في كتابه (مصر تحت الحكم الرومانى) يؤكد هذه الحقيقة التاريخية بقوله عند وصفه للفتح الاسلامى بأن الأقباط المصريين وجدوا أملا في إخوتهم العرب المسلمين الذين هزموا الفرس والروم معا في فتوحاتهم . ويؤكد (شارب) على أن عرب شبه الجزيرة والشام وفلسطين والأردن ومصر كانت تربطهم روابط وجدانية . فلهذا تطلعوا إلى جيوش العرب على أنها جيوش الخلاص لهم من الحكم البيزنطى الجائر .

ومصر في القرن السابع (في عصر الفتح) كما يقول (بتلر) ... كانت من أشقى بلدان الدولة الرومانية البيزنطية حيث انتشر بها قطاع الطرق والعصابات في الصعيد . وأصبحت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب السياسى والأمنى . وهذا جعل المصريين تواقين إلى ثورة على الحكم الذى فرض عليهم مذهبه الملكانى المسيحى عنوة . وكان المصريون أغلبهم من اليعاقبة . رغم أن المذهبين فى الأصل يتبعان المذهب الأورثوذكسى . لهذا ساد القبط الشعور بالكره للحكم البيزنطى ... فأصبحوا متحفزين ضده .

وكان الحاكم البيزنطى لمصر مقره بالاسكندرية ويتبع القسطنطينية . وكان يلقب بنائب الملك أو الامبراطور . وكانت وظيفته الأساسية هى إحكام السيطرة على مصر وجمع الضرائب بالارهاب والسخرة والجلد . وهذه الضرائب كان ينفق منها على الحملة البيزنطية في مصر وما تبقى يرسل إلي القسطنطينية ولا ينفق منها شيء على البلاد . ولهذا تدهورت أحوال مصر تماما.

والبيزنطيون كانوا متعصبين لمذهبهم لهذا نجدهم شردوا الأقباط وعذبوهم وقتلوهم وسجنوا الآلاف منهم حتى نجد شهداء الكنيسة القبطية كلهم شهداء الحكم البيزنطى المسيحى

والامبراطور حرم عليهم بنا كنائس خاصة بهم وهدم معظمها ، والأديرة أصبحت مهجورة . كما منع أقباط مصر من الكتابة باللغة القبطية أو الصلاة بها لأنها ترمز إلي اليعاقبة .

وهناك خلط بين بيزنطة والقسطنطينية ولهذا وجب هنا التوضيح ولا سيما وأنه سيفيدنا فيما بعد عند حديثنا عن الدولة العثمانية . فبيزنطة كانت في الأصل ميناء أنشيء عام ٣٦٥٧ ق م ثم أقام على أطلالها الملك قسطنطين عام ٣٢٨ م . مدينته التى أطلق عليها القسطنطينية أو روما الجديدة . وأيام العثمانيين أطلق عليها الأستانة بعدما التحمت بالجزء الآسيوى . واتصلت بمدينة خلقدونية . إلا أن أتاتورك أطلق عليها إستانبول بعدما جعل انقرة العاصمة لتركيا .

والقسطنطينية .. لم تكن تألوا جهدا في شن حملاتها التعسفية ضد الأقباط في مصر . فكانت تطلق جنودها عليهم وكان المصريون يلاقون هذا الاضطهاد المتلاحق والموسع بسلبية وتقية فكان الأقباط يفرون إلي الصعيد ليختفوا فيه بعيدا عن الحكومة المركزية بالاسكندرية أو بعواصم الاقاليم . أو يختفون في القرى لهذا السبب . ورغم هذا كان الجنود يلحقون بهم ويلاحقونهم بالتعذيب والتنكيل . وهذا ما جعل الأغلبية العظمى من القبط يتحولون إلي المذهب الملكانى الحاكم إتقاء لشره .

حكم الفرس :

أرسل كسرى أنوشروان أيام حكم (هرقل) للقسطنطينية ... جيشه لغزو مصر والشام وفلسطين . وسانده اليهود هناك . وساعدوه على الاستيلاء على بيت المقدس . وذبح اليهود الآلاف من المسيحيين . وأسروا البطريرك زكريا بطريرك القدس وسلموه إلي الفرس . واشترى اليهود الآلاف من الأسرى المسيحيين ليتمتعوا بتعذيبهم وذبحهم وهتك أعراضهم . فهج الشوام والفلسطينيون إلى مصر لائذين بها من هذا الهول الفارسى اليهودى . وفى عام ٦١٧ م . إستولى (شاه روز) على الاسكندرية وهدم الكنائس والأديرة والصوامع وهو في الطريق إليها . ولما دخل الفرس الاسكندرية وجدوها خاوية من البيزنطيين الذين فروا بحرا . إلا أن الفرس ذبحوا الأقباط وفيهم الرهبان الذين كانوا في صوامعهم يتعبدون . ولم ينج سوى دير وادى النطرون لأنه لم يكن في طريق الغزو . كما قتلوا الأساقفة الذين كانوا في أديرتهم يعيشون وهذا ما أكده (ملن) في كتابه (مصر تحت الحكم الرومانى) . حيث بين ما لاقاه البطريرك (أندرونيكوس) القبطى من أهوال الفرس بالأسكندرية . ولما هدم الفرس الكنائس والأديرة أرسل المصريون مفاتيحها إلي كسرى عام ٦١٨ م ورغم هذا سبى الفرس الآلاف منهم بمساعدة يهود مصر .

وحتى لا تخلط الأمور ... نجد أن البيزنطيين الملكانيين كان لهم بطريرك . والأقباط كان لهم بطريرك . وكلا منهما كان مقره بالاسكندرية . إلا أن البطريرك الملكانى فرقبل دخول الفرس للاسكندرية . والمقريزى نجده يصف لنا دخول الفرس مصر بقوله : وأتوا إلي مصر (٦١٦ م - ٦٢٧ م) في طلبهم . فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر . وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم . ولقد ذكر (أمليلينو) في دراسته عن المسيحية بمصر بأن البطريرك أرسل للكنائس الأبرشيات يقول لها : لقد تخلى الله عنا لذنوبنا . فأرسل لنا من الشعوب من لا يرحمنا . فنرى الفرس قد أقاموا عبادة النيران في مصر والشام وفلسطين . ولهذا أقاموا حصن بابليون (حصن الشمع) كمعبد للنار حتى بعد جلائهم ظل المصريون يوقدون به الشموع في قصره لهذا الغرض .

والفرس في غزوتهم هذه كانوا يدعون فيها إلي عبادة النار . وهذا يتضح لنا من رد كسرى على رسالة هيرقل إمبراطور الروم بقوله : قل لمولاك إن أرض الروم أرضى وما هو (يقصد هيرقل) الإعاص ثائر وعبد أبلق . ولن يمنح السلام إلا بعد أن يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس . وهنا تيقن هرقل أن كسرى لم يأت طمعا في جاه أو سلطان لكنه أتى ليفرض عقيدته المجوسية بالسيف الفارسى . ولهذا نراه يستعد لغزو روما للاستيلاء على كرسى البابوية هناك ليحطم كنائسها . إلا أن أسطوله أحرق . ولولا هذا لسطعت شمس المجوسية (شعار الفرس) فوق كنائس روما . ولهذا نجد الفرس يفرضون عقيدتهم على المصريين فيهرعون بوضع الشمس فوق واجهات الكنائس تقربا إليهم .

وفي عام الهجرة النبوة الشريفة إستطاع الروم البيزنطيون إجلاء الفرس عام ٦٢٢ م . عن مصر والشام وبرقة وفلسطين . وغربت شمس المجوسية من مصر عام ٦٢٧ م . بعدها سطعت شمس الاسلام فوقها .

******

***

*

مصر الإسلامية

بعد جلاء الفرس عن مصر .. عاد قيرس (المقوقس) كنائب للأمبراطور البيزنطى وبطريرك للكنيسة الملكانية بالأسكندرية . وقد أتى بمذهب جديد معه بعد إنتصار هرقل على الفرس . فأخذ قيرس (المقوقس) يفرض مذهب هرقل الجديد على المصريين ملكانيين ويعاقبة . وكان شعاره إما مذهب الامبراطور الجديد أو الجلد حتى الموت . وأحس المصريون أنهم أمام خطر جديد فعارضوه . لكن هذه الفترة إتسمت بالقمع للاقباط حتى أطلقوا عليها (الاضطهاد العظيم) . وأخذوا يسبون (قيرس) وزبانيته وقاوموا المذهب الجديد . ولما لاح الاسلام لهم تطلعوا إلي حكمه صابرين ولا سيما وأن الرسول قد أرسل رسالته التاريخية إلي (قيرس) (المقوقس) ما بين عامى (٦٢٧ / ٦٢٨ م) . ورد المقوقس على الرسالة ردا جميلا . وكانت مصر تنتظر موعدها مع الفتح الاسلامى

لقد كان تاريخ الفتح الاسلامى لغزا عمى على الكثيرين من الكتاب . والحق يقال أن أكبر إنصاف للمسلمين والفتح ما كتبه (بتلر) في كتابه (فتح العرب لمصر) ترجمة محمد فريد أبو حديد وهذا الكتاب أنصف المصريين من مقولة أنهم كانوا يرحبون بالغزاة ولاسيما الفرس والرومان والاغريق ، فنراه يؤكد أن الاقباط كانوا أمة متمسكة بدينها لهذا كانت تقف في مكانها على مذهبها اليعوقربى تاركة الصراع السياسى يدور من حولها في حلبة المتنافسين . لأنهم تعودوا كلما تخلصوا من نير غاز - كما يقول أبو حديد - يوضع نير آخر على رقابهم . وأصدق وصف لتاريخ مصر ما قاله (بروكس) في كتابه بالالمانية (الحوليات البيزنطية) حيث قال : كان تاريخ مصر طوال عصورها أشد ظلمة وسوادا . لكن الكتاب الغربيين قالوا عن الشعب المصرى أنهم أمة تفتح ذراعيها لكل سيد وافد . ويقصدون بهذا الفتح الاسلامى . وهذه المقولة خاطئة بل تشويه للحقيقة . لأن الأقباط لما رحبوا بالفتح - كما سبق أن قلت - إنما رحبوا به لأنهم وجدوا في العرب الفاتحين أخوة لهم . عايشوهم وعاشروهم وتبادلوا معهم تجارتهم . فعثمان وعمرو بن العاص وغيرهما زاروا مصر وجابوا فيها أثناء قوافلهم في الصيف والشتاء . وهذه القوافل كانت تجارية . فالعرب أولاد عم المصريين وما حدث من حرارة إستقبالهم لهم هو نفسه ما حدث من عرب فلسطين والشام والأردن والحيرة بالعراق وليس هنا المجال للدفاع عن أقباط مصر أو المسلمين بقدر أن الحقيقة لا تتوه . وما هو آت في هذا الكتاب أقوى وأبلغ . فالمطالع عن الحروب

الصليبية - فيما بعد - سيطالع أن الأقباط في مصر والشام وفلسطين ذاقوا الأمرين من هؤلاء الصليبيين الغزاة الذين أتوا وصلبانهم وشمت على صدورهم و رافعين الصلبان بأيديهم . ورغم هذا شردوا مسيحى الشام وفلسطين ، وذبحوا منهم المئات لدرجة أنهم هجوا ولاذوا بمصر فرارا من الجحيم الصليبى . ولهذا نراهم يحاربون متطوعين فى الجيش الاسلامى لرد هؤلاء الغزاة وإجلائهم . والأقباط لا ينسون أن هؤلاء المسيحيين (اللاتين) رموهم بالكفر وهدموا كنائسهم وأديرتهم . وحرموا عليهم دخول هذه الكنائس . كما منعوهم من الدخول لبيت المقدس ليحجوا خشية أن ينجسوه ...هكذا إدعوا . وتناسى مؤرخو الغرب ما كيلوه للأقباط أيام الحملات الصليبية ثم يتباكون عليهم في كتاباتهم عن الحكم الاسلامى لهم . وهذا اللبس في أقوالهم المفرضة والأراجيف التى يتقولون بها . جعلنى ألجأ إلي كتاباتهم لرد المطاعن ، ولم أستعن بما كتبه المؤرخون المسلمون ليس لعدم ثقة فيهم .. لكنهم عندما أرخوا عصر الفتوحات الاسلامية إستقوا معلوماتهم مما كتبه مؤرخو القبط . لأن أول كتابة عن الفتوحات الاسلامية كانت للواقدى الذى ولد بعد قرن من هذه الفتوحات الاسلامية . ولم يبق مما كتبه إلا القليل . وبقية ما كتبه المؤرخون المسلمون عن هذه الفتوحات ظهرت بعد قرنين من الهجرة في القرن التاسع . وهى كتابات إبن قتيبة والبالاذرى وإبن عبد ربه وإبن الحكم وغيرهم . ومعظم كتاباتهم عنها إما نقلا عن المصادر القبطية أو ثبتا لروايات شفهية . حتى نجد أن البغدادى والمقريزى وإبن زولاق وغيرهم قد نقلوا عنهم فيما بعد لكن المعاصرين للأحداث والذين أرخوا لها كانوا مؤرخين من الأقباط أو البيزنطيين وكانت كتاباتهم بالقبطية أو الاغريقية . ومعظمهم متعصبون في كتاباتهم ضد الاسلام ورغم هذا نقلت عنهم حتى لا يكون هناك حجة بعد أقوالهم أو رجعة لانكارها . وليس هذا القول تعميما على كل ما كتبه المؤرخون المسلمون من أن كتاباتهم ليست موثقة أو محققة . فإذا كان فيها تضارب حول فترة الفتح الاسلامى لمصر لأنها – كما سبق وأن قلت – كتبت عن روايات مروية لم يعاصروها حتى يسجلوها . لكنهم عندما أرخوا عن عصورهم أرخوها بمنتهى الدقة التى عهدناها فيهم وعاهدهم المستشرقون أيضا . فما كتبوه يعتبر عمدة التواريخ لأنهم عاصروا الحضارة الاسلامية فدونوها في كتاباتهم . وإذا كان التاريخ له أنياب وأظافر كما يقول أنيس منصور ... فللتاريخ – أيضا – قضاته وهم قضاة عدل لا يجنحون في أحكامهم ولا يسيرون مع الهوى وإلا فقدوا مصداقيتهم .

والمطالع لسير الأحداث التاريخية يجد أن أقباط فلسطين والشام قد هجوا أيام الفرس

وأيام الروم لمصر وإلى القبائل العربية في شمال الجزيرة وجنوب مصر في الصعيد . لكن لما دخل العرب هناك لم يهج اليهود والنصارى وظلوا بديارهم آمنين مطمئنين .

فتح مصر :

تبدأ قصة فتح مصر عام ٦٣٩ م . عندما طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له بفتح مصر بعد فتح الشام . وعمرو بن العاص كان قد زار مصر أثناء الجاهلية . وزار بالاسكندرية الملعب الكبير حيث كان الروم يلعبون به لعبة الكرة الذهبية . فمن كان يلقف الكرة بكمه قالوا أنه سيحكم مصر . فتلقفها عمرو بكمه واندهش الحاضرون وكذبوا النبوءة والكرة . لأنهم لم يتصوروا أن هذا التاجر العربي الذي وفد إليهم من شبه الجزيرة سيحكم مصر في يوم من الأيام . وقالوا أن كرتهم هذه المرة قد كذبت عليهم . لكن مصر فعلا ...كانت على موعد مع عمرو بن العاص . ولهذا كان حرصه على السير إلي مصر أكثر من حرصه على نفسه . فسار غير أواب أو هياب . وتشاء الأقدار أن يحكم عمرو مصر مرتين ...مرة أيام الخليفة عمر حتى عزله عثمان عام ٢٧ هـ . والثانية أيام معاوية عام ٤١ هـ . وظل بها حتى مات عام ٤٣ هـ / ٦٦٢ م ودفن بالمقطم .

ولما فتح المسلمون (حصن بابليون) وجدوا الروم قد ذبحوا الأقباط فيه وقطعوا أيديهم وكان يوم الفتح يتوافق مع عيد الفصح . والمطالع لما كتبه المؤرخون الأقباط عن هذه المذبحة يجدهم يقولون بأن (انتصار المسلمين كان عقابا من الله لما فعله الروم بالقبط في مصر) . ولا يهمنا من فتح الحصن سوى مقابلة عبادة الصامت الذى أرسله إبن العاص ليتفاوض مع قيرس (المقوقس) . فسمع الحاضرون من الروم والأقباط مقالة عبادة من أن دينه يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما للمسلمين . وأشيع قول عبادة بين المصريين فعرفوا ما هو الاسلام . إلا أن البيزنطيين روجوا الشائعات عن المسلمين وادعوا بأنهم يهدمون الكنائس والأديرة والبيع والصوامع ويقتلون النساء والأطفال والشيوخ . وتناسوا عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس الذى أمنهم فيه على كنائسهم وصلواتهم وأديرتهم وهذا العهد كفل فيه إبن الخطاب الحقوق للنصارى واليهود وأصبحت أصداؤه تدوى في مصر ..وهذا أيضا ..ما سمعوه من عبادة .

وتوجه قيرس إلي القسطنطينية ليحصل على موافقة الامبراطور علي صلح الحصن إلا أنه عاد ومعه جيش كبير . وصلى يوم وصوله بالبطريركية الملكانية بالأسكندرية مدعيا أنه سيحارب المسلمين ويردهم . ووعد الجماهير المحتشدة من الروم بأنه سيحقق النصر . وفي اليوم التالى

توجه إلي حصن بابليون (بمصر القديمة) سرا ووقع الاتفاقية بتسليم الحصن للمسلمين مع عمرو بن العاص عام ٦٤١ م وبعـ..ها سلم مصر كلها لهم . وأعتبر إبن العاص أن فتحه لمصر كان صالحا وليس قتالا . وعلى هذا لا تعتبر غنيمة حرب . ولهذا فرض الجزية والخراج على أهلها .

عمرو يحكم مصر :

يؤكد (بتلر) أن (قيرس) قد أسلم كما أسلم معه قواده إلا أن عمرا خيرهم بأن يظلوا على دينهم بمصر ولهم الأمان أو يرحلوا إلى ديارهم أو يبقوا بمصر وهم مسلمون . فآثروا البقاء مسلمين . أما الأقباط فقد فرحوا بالصلح لأنه خلصهم من الكابوس البيزنطى الذى كان يطاردهم ويلاحقهم . وكان أملهم في أن الجزية والخراج في الاسلام أقل وطأة من ضرائب الروم . والمصريون عامة كما يقول (بتلر) لم يكونوا مهتمين بمن سيحكمهم بقدر ما كان يهمهم ألا تمس أموالهم . وها هو إبن العاص يؤمنهم عليها وعلى كنائسهم وديارهم وحرماتهم وأنفسهم .. وكان صادقا معهم . وهذا الأسلوب كان جديدا عليهم فلم يعهدوه في السلف الحاكمين . وكقاعدة عامة أوردها (تريتون) في كتابه (أهل الذمة في الاسلام) ترجمة حسن حبشى .. **حيث بين أن النصارى في مصر والشام وفلسطين كانوا يفضلون العيش في ظل الحكم الاسلامى عن الحكم البيزنطى المسيحى . لأنه أكثر رحمة وعدلا بهم .**

وما يقال من أن إبن العاص قد أساء معاملة القبط في مصر يتنافى مع ما كتبه المستشرقون من أن الأقباط قد عاونوا العرب على فتح مصر وحاربوا معهم ولا سيما وأن ابن العاص في أول خطبة له بالفسطاط قال كما قال الرسول : سيفتح الله عليكم بعدى مصر فاستوصوا بأهلها خيرا . فان لكم منهم صهرا وذمة) . وقال - أيضا - : واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا . وهذا القول يؤكد أن الاسلام أتى مصر هاديا وليس جابيا ومعلما وليس مفسدا . **وها هو عمرو بن العاص الفاتح يكتب للأقباط عهد أمان يطلق عليه في تاريخ الكنيسة القبطية (عهد بنيامين) إشارة إلى البطريرك بنيامين القبطى الذى ظل متواريا ومشتتا ومختفيا عن أعين البيزنطيين حوالى ١٣ عاما ظلوا فيها يطاردونه من دير إلي دير للتنكيل به . فها هو إبن العاص يؤمنه علانية قائلا له : أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان . ثم جاء بالعهد : فليأت الشيخ البطريق آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها . لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة . هذا هو الاسلام الذى حوله تأفكون . وبعد هذا العهد خرج الرهبان من مخابئهم وخرج معهم الأساقفة للقاء عمرو بن العاص وتقديم الشكر له . وظهر**

البطريق ليتولى البطريركية اليعقوبية (القبطية) بالاسكندرية أصبح بعد هذا العهد التاريخى الأقباط أغلبية الشعب المصرى لأول مرة في تاريخهم . لأن الكثيرين كانوا قد أعلنوا ملكانيتهم خوفا من بطش السلطة الحاكمة . فلما أمنهم عمرو إرتدوا إلي قبطيتهم . وأخذت الكنيسة القبطية تجدد كنائسها وأديرتها التى هدمها الفرس والروم . وما زال حتى اليوم على جدران الكنيسة المعلقة بمصر القديمة لوحة عليها عهد إبن العاص وبخط يده يتعهد فيها بحماية الكنيسة ويلعن أي مسلم يمنع القبط منها .

وظل عهدا عمر بن الخطاب لأهل القدس وعمرو لأهل مصر وثيقتين يشهر بهما النصارى طوال ١٤ قرنا في وجه أى حاكم مسلم ، وهما بمثابة حقوق أعطيت لهم ولأول مرة في التاريخ الانسانى كله يكتب فاتح على نفسه وثيقة للمغلوبين يحافظ لهم فيها على حقوق منحها إليهم وهم صاغرون له . لكنه الاسلام الذى وصانا خيرا بأهل الكتاب . أبعد كل هذا يؤفك عن المسلمين والاسلام البهتان .

وعمرو – كما يقول – فانز ليب في كتابه بالفرنسية (الرابطة الجديدة في رحلتىّ مصر) قال عنه بأنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب أو السلب . بل حمى الكنائس وحفظها حتى آخر يوم في حياته . أبعد كل هذا يقال أن المسلمين هدموا وأحرقوا وقتلوا وبددوا . ولم يبق لدى المستشرقين نقيصة إلا ألصقوها بالعرب عند فتحهم لمصر . ولو كان هكذا كما أشاعوا لما بقى أثر في مصر والشام وفارس والهند . لكن هذه الآثار التى أتخمت الآن متاحف الدنيا شاهدة على أن المسلمين كان مفهومهم واضحا ، وهو أن هناك فرقا بين صنم يعبد وصنم يقتنى ليحفظ . وأبو الهول قرينة تبدد كل ما قيل . وها هو (حنا النيقونى) بعد نصف قرن من الفتح الاسلامى ورغم تعصبه ضد الاسلام وهجومه عليه في كل كتاباته **إلا أنه أكد حقيقة واحدة وهى أن المسلمين لم يغتصبوا أو ينهبوا أو يحطموا كنيسة واحدة بل صانوا الكنائس وحموها . وهذه الحقائق أضعها أمام أجيالنا لنكون على بينة وحتى تزيل ما ران في الأذهان من أراجيف ملفقة .**

أما فرية إحراق المسلمين لمكتبة الاسكندرية فها هو (ماتيه) في بحثه بالفرنسية وغيره من المؤرخين الثقات يجمعون بل يؤكدون أن المكتبة والمتحف الذى كان يضمها لم يكن لهما أثر حتى القرن الخامس بينما كان الفتح في القرن السابع . وما قيل عن مكتبة الاسكندرية قالوه عن مكتبات فارس وادعى البعض أن عمر بن الخطاب أمر باحراقها لان كتبها ليس بها إسم الله . وهذه كلها مفتريات لانعول عليها لأن التراث الفارسى والهندى ترجم بالكامل في العصر العباسى إلي العربية . ولولا هذه الترجمات لضاع التراث الهيلينى والفارسى والسريانى رغم ما ينضح به من الكفر . فمن أين توارد إلينا التراث الذى ترجم معظمه للاتينية ؟ . لكن للمؤرخين المغرضين فيما يقولونه مطاعن .

مصر... ولاية عربية

لقد ظلت مصر ولاية إسلامية عربية منذ الفتح تابعة للمدينة أيام الخلفاء الراشدين ثم للكوفة أيام على بن أبى طالب ثم لدمشق أيام العصر الأموى ثم لمكة أيام الخلافة الزبيرية ثم لدمشق ثانية ثم للكوفة وبغداد وسامراء أيام العباسيين . لكن منذ العصر الطولونى أصبحت إمارة مستقلة إداريا عن الدولة العباسية . وخاضعة لها دينيا وسياسيا حتى ظهور الخلافة الفاطمية ، فانفصلت مصر واستقلت تماما .

ومصر في عهد الولاة العرب كانت بعيدة عن الصراع الهرطقى المسيحى والخلافات المذهبية التى ظهرت في صدر الاسلام . ولم تدخل ضمن إطار الشعوبية الفارسية . وكانت موجات الخوارج أو الشيعة أو محنة خلق القرآن أيام المعتزلة ... تصل إلي مصر ضعيفة بلا تأثير واضح على المصريين . فكانت بمنأى عن هذا كله حتى وفد الفاطميون وأعلنوا شيعتهم . فأسسوا خلافة شيعية إسماعلية بها . ولقد كان الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بمصر حريصين على الحفاظ على الكنيسة القبطية من التفسخ أو الإنقسام حيث كانوا يساندونها في كل أزماتها . وهذا ساويرس في مجلداته (سير البطاقة) يؤكد هذه الحقيقة التاريخية ، فنراه يبين أن المسلمين والأقباط كانوا يقفون معا للصلاة والدعاء في أيام الشدة لازاحة الغمة عن البلاد . والمطالع لكتاب الكندى (الولاة والقضاة) سيجد أكثر من هذا . فما شكا بطريرك إلي وال شكوى إلا أنصفه فيها وحقق له مطالبة وآزره . وهذا الأسلوب كان متبعا في عصر الولاة الذين كانوا يحاسبون المسلمين والأقباط لو أخطأوا . إلا إن مؤرخى الكنيسة القبطية وبعض المؤرخين المسلمين الذين نقلوا عنهم قالوا عن إحتكاك الولاة بالأقباط الفلاحين ، وتناسوا أنهم كانوا الأغلبية وقتها . وكانت شكواهم تنحصر في الجزية والخراج . كما نسوا جميعا حقيقة وهى أن الدواوين ظلت لمدة قرنين من الفتح يتولاها بالكامل كتبة من الأقباط الذين كانوا يقدرون الضرائب على المصريين . لأن العرب لم يكن تشغلهم أمور المحاسبة لأنهم بدو ليس لهم دراية بالشئون الادارية أو المكتبية . ولا سيما وأن لغة الدواوين كانت بالقبطية والاغريقية ولم يكونوا على علم بها . وها هو ساويرس نفسه يبين أن الوالى عبد الملك بن رفاعة (٩٦ هـ - ٩٩ هـ) لما تولى إكتشف أن الجباة الأقباط قد زوروا في حسابات الكنائس وتغاضوا عن محاسبتها سنين طويلة بل تساهلوا مع القساوسة وحابوهم . فالأقباط ظلموا أنفسهم . لأن الجباة كانوا يغالون في محاسبتهم ضرائبيا لتعويض

النقص فيما أخفوه من حسابات الكنائس والقساوسة وما كانوا ينهبونه لأنفسهم من أموال الخراج بالذات لأن الجزية كانت مقدرة .

وفي عصر الولاة .. كانت الفسطاط حاضرة الولاية المصرية لكن البطريرك ظل مقره بالاسكندرية حتى بناء القاهرة عام ٩٦٩ م . حيث إنتقلت البطريركية أيام المعز لدين الله الفاطمى إليها .

والمصريون بعد الفتح تآلفوا مع العرب وساعدوهم في إنشاء دار الصناعة في الروضة وهذه الدار كانت ترسانة بحرية صنعوا فيها أول إسطول إسلامى حاربوا به البيزنطيين في خليج بحر إيجه باليونان . وانتصروا به في موقعة (ذات الصوارى) على الاسطول البيزنطى الذى لم يكن يشق له ماء . وحققوا أول إنتصار بحرى للمسلمين في خلافة عثمان . وأحيا وال مصر عبد الله بن أبى سرح صناعة السفن بمصر . وكون لمعاوية بدمشق إسطولا ثانيا كما أسس دار صناعة بعكا بالشام .

والحقيقة تقال أن المصريين علموا العرب فن القتال البحرى الذى لم يعرفوه في شبه الجزيرة العربية . لأن العرب محاربون في البر . وكانت صناعة السفن من الصناعات التى برع فيها المصريون . وكان الولاة كما قال (تريتون) ... يدفعون للعمال أجورهم في دار الصناعة ولم يكونوا يعملون بالسخرة كما كانوا أيام البيزنطين . وفي البرديات القبطية وجدت كشوفات فيها حسابات الأجور الشهرية والسنوية لعمال دار الصناعة التى كان الولاة العرب يدفعونها لهم بانتظام . وأكد حنا النيقونى في المجلة الفرنسية الآسيوية أن الجنود المصريين الذين حاربوا مع عمرو بن العاص في برقة قد أجزل لهم العطاء وأعفاهم من الجزية . والمطالع للبرديات اليونانية بالمتحف البريطانى يجد فيها كشوفات مدونا بها أسماء الجند الأقباط . وهؤلاء كما يقول ساويرس قد إنخرطوا في الجندية إلا أنهم أسلموا . والمطالع إلي مجموعات البرديات القبطية (يقصد بالقبطية أنها كتبت باللغة القبطية التى كانت اللغة الرسمية في مصر إبان عصر الولاة) فيجد بها أن معظم أسماء الجنود المصرية كانت أسماؤهم قبطية . فلو كانوا قد أسلموا فيما بعد . فهذه مسألة أخرى . لأن الانخراط في الجندية العربية كان تطوعا وليس إلزاميا . ولم تصبح إلزامية للعرب إلا في عهد عبد الملك بن مروان الأموى .

وفى عصر الولاة لم تكن مصر بمعزل عن العالم العربى ولا سيما وأن التجار العرب توسعت تجارتهم مع المصريين . وكانت قوافلهم تصل إلي صعيد مصر ولا سيما في بلدة قفط التى كانت مركزا تجاريا . وكان يقطنها قبائل عربية نزحت إليها قبل الفتح الاسلامى .

والولاة في مصر كانت مهمتهم الأساسية الصلاة بالمسلمين جماعة والحفاظ على الأمن وتطبيق الشريعة وجمع الجزية والخراج . كما أنهم منعوا صناعة الخمور والجعة في مصر . وظلت هذه الصناعة محرمة في مصر حتى عصر المماليك .

مفهوم الجزية والخراج:

الجزية لا بد أن أتعرض إليها بالتفصيل لأنها أحد المطاعن الاستشراقية ضد الاسلام . فالجزية هى ضريبة شخصية على كل رأس من بعض الذميين . أما الخراج فهو ضريبة مما تنتجه الأرض . فكانت تحصل من المسلمين والأقباط على حد سواء . وكان المسلمون يدفعون علاوة على الخراج الزكاة والصدقة لبيت المال . وهما شرعا واجبتا الدفع .

والخراج كان يقدر حسب إنتاجية الأرض ومما تغله . عكس نظام الضرائب أيام البيزنطيين الذى كان يفرض أموالا على كل الأرض حتى الأراضى البوار . والضرائب في الإسلام أو جزها عمرو بن العاص عندما سأله صاحب ناحية إخنا عنها . فأجابه عمرو بقوله : إنما أنتم خزانة لنا . إن كثر علينا كثرنا عليكم . وإن خففنا خففنا عنكم . وبهذا بين إبن العاص أن الضرائب مرهونة بالحالة السياسية والاقتصادية للبلاد . فلو واجهت حربا أو كوارث فوق طاقة بيت المال زيدت الضرائب ولا ملجأ للوالى سوى الشعب ليعينه على تخطى الأزمة . وهذا أسلوب منطقى ومتبع في كل الدول . وهذا المعنى أورده المقريزى بقوله : إذا عمرت القرية وزاد أهلها زيد عليهم . وإذا خربت نقصت الجباية . ولهذا كانت المهمة الأساسية للجباة تقدير الزيادة أو النقص في الخراج حسب ما كانوا يرونه على الواقع وحسب ما كانوا يقدرونه من محاصيل . **فكان الخراج يزيد أو ينقص كل عام لهذا السبب . والولاة دائما ما كانوا يعفون الأقباط من جزء كبير من الخراج نظير الانفاق منه على الكنائس وترميمها وللانفاق على الحمامات العامة وصيانتها وعلى المعديات وتشغيلها وبنائها . كما كان يخصم منه تكاليف الجنود في الاقليم . وها هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى يامر واليه في مصر بان يوزع ما فاض من أموال في بيت المال على المصريين .**

وهذا النظام الضرائبى الاسلامى كان أكثر واقعية ورأفة بالأقباط . حيث مكن المصريين [من رفع إنتاجية الأرض عكس نظام الضرائب البيزنطية التى كان يرسل معظمها إلى القسطنطينية] وما تبقى كان ينفق على الحامية العسكرية في مصر . ولم ينفق منها على شئون البلاد ، فساءت أحوالها . لكن الخراج كان الولاة ينفقون منه عن سعة للاصلاحات والانشاءات بها . وما تبقى كان يرسل إلي بيت المال في عاصمة الخلافة . وكان الخراج يجمع مقسطا عكس

الجزية . كانت تجمع مرة واحدة في العام قبل موعد الخراج .

وإذا كان المستشرقون يهاجمون نظام الجزية في الإسلام فنراها حسب الشريعة تفرض على الرجال الأحرار القادرين على العمل والتكسب . فأعفى منها العبيد حتى لا يكونوا عبئا على مواليهم . والولاة في مصر نراهم قد أعفوا من الجزية النساء والأطفال والعبيد والمرضى والمقعدين والعميان والشيوخ والرهبان في أديرتهم . لأن هؤلاء جميعا غير قادرين على العمل أو الإنتاج أو الكسب . وهذا النظام يخالف ما كان متبعا أيام البيزنطيين الذين أجبروا الأقباط على ترك أراضيهم التي أصبحت كلها إقطاعيات للطبقة الحاكمة يعمل فيها كل المصريين الأقباط بالسخرة في مقابل تأمينهم وحمايتهم من التنكيل بهم أو التعذيب الذي كانوا يلاقونه من الجنود البيزنطيين فكانوا يعملون بهذه الاقطاعيات بلا أجر ليتفادوا هذا كله .

أما الجزية فكانت غير موحدة لأن الأغنياء كانوا يدفعون أكثر من متوسطى الحال والذميون الفقراء كانوا – كما قلت – معفيين منها . والخلفاء قد تركوا مسألة تقديرها للولاة . والجزية كما قال المقريزى قد قلت كثيرا أيام الولاة لأن معظم الأقباط قد أسلموا . وكان تبعا لهذا يرفع الخراج لتعويض النقص في الجزية . والعبيد كانوا معفيين منها ليفتدوا أنفسهم ويتحرروا . وهذا شجعهم على العمل ليفكوا رقابهم دون أى معارضة من معتنقيهم . فتحرر منهم الكثيرون لهذا السبب . ونرى الامام الشافعي في كتابه (الأم) قد أفتى قائلا : إذا أخذت الجزية من ذمى إفتقر . كان الامام (الوالى) من الغرماء . وأى عدل بعد هذا ؟ ؟ عندما أجمع الفقهاء على إسقاط الجزية عن الذمى الذى يتوفى ولا تحصل من ورثته أو من تركته حتى ولو كان غنيا . عكس الضرائب حاليا فتعتبر دينا ممتازا يحصل من التركة قبل توزيعها حتى لو إلتهمتها كلها . ولم يبق منها شيئا للورثة ليقتاتوا منه .

والخراج كان ضريبة عينية مما تغله الأرض سواء أكان صاحبها مسلما أم قبطيا . عكس الجزية التى كانت تدفع نقديا ، كما كانت تدفع الزكاة والصدقة . وكان الدافع يحصل على صك ببراءة ذ مته منها كل عام .

والمصدر الثالث من الضرائب كان المكوس .. وهى رسوم كان الولاة يحصلونها من التجار والصناع والباعة بالأسواق . وكانت تحصل من القوافل التجارية على الطرق .

وأصدق قول عن الضرائب ما قاله (تريتون) في كتابه (أهل الذمة في الإسلام) من أن الجباية للضرائب أيام عصر الولاة لم تكن بالقسوة التى نتصورها أو نصورها . لأن المصريين

كانوا في النظام الاسلامى العادل يجدون مخرجا للتهرب منها عند دفعها . فمن عادة المصريين - كما يقول تريتون - التأخير والتراخى في دفعها والتحايل عليها بشتى الوسائل كما هو ثابت في أوراق البرديات القبطية . ولهذا نرى الفلاحين دائمى الشكوى منها . لأنهم كما يقول (بلنت) في كتابه (الاحتلال السرى لانجلترا لمصر) يحبون إقتناء الأموال ويكرهون الانفاق منها . وأى أموال تؤخذ منهم تجعلهم يجأرون بالشكوى . ومعظم الفلاحين في عصر الولاة كانوا من الأقباط وقتها . عكس المسلمين الذين كانوا يدفعون الزكاة والصدقة وهم صاغرون . لأنهما فرض دينى وكانوا لهذا - أيضا - يقدمون الخراج لبيت المال وهم طائعون .

وفي أواخر عصر الولاة (٦٤١م-٨٦٨م) أصبح الخراج والمكوس والجزية تخضع لعمليات تزوير وتلفيق في الحسابات قام بها الجباة القبط حتى أصبحت تخضع لعملية مساومات لأنهم كانوا ينهبون ويحصلون منها على أجورهم . وهذا ما تنبه إليه أحمد بن طولون فتولى الاشراف على حسابات بيت المال بنفسه رغم أن عامل الخراج كان لا يتبع الوالى . ولكن تعيينه وتبعيته كانت للخلافة في المدينة أو دمشق أو بغداد . وإبن طولون في عهده إنتظمت الحسابات وخفضت الضرائب . وهذا ما سنتناوله فيما بعد . فنظام الضرائب في الاسلام لم يكن به عيب سوى قلة ذ مة الجباة وعمال الخراج الذين كانوا ينهبونه ويسرقون منه . وليعوضوا ما نهبوه كانوا يغالون في تقديراتهم الجزافية على الفلاحين والتجار . وهذا ما تنبه إليه نابليون وكرومر وهما في مصر فضبطا المسألة . لهذا أصبح عهد إبن طولون وبعده بعدة قرون عهد كرومر في القرن الـ ١٩ عهدى العصر الذهبى للفلاح المصرى حيث عم الرخاء البلاد .

وأنشأ عمرو بن العاص ديوان الجند في المدينة الفسطاط . فسجل به أسماء كل جنوده وكان يقدم لهم العطايا (مرتبات) . وكان يصرف معاشات لأسر الشهداء منهم إبان الفتح لمصر .

والولاة في مصر كما هو ثابت ... كانوا يتساهلون مع المصريين في تطبيق الشرع على المخالفين والعصاة . وكانوا يترأفون مع الأقباط بالذات حتى لا يضايقوهم . وكل المطاعن ضد الاسلام أو حكم الولاة أو الخلفاء ظهرت في القرن الثانى الهجرى . وهذا يدعونا إلي الشك في صحتها لأنها ظهرت كلها ضمن إطار المخطط الشعوبى ضد الاسلام أيام الخلافة العباسية في بغداد . وليس صحيحا ما قيل أن الولاة وزعوا كل أراضى مصر على العرب الفاتحين . لأنه من الثابت أن كل ذى حق أخذه بلا نقصان . ولا سيما الأراضى التى إغتصبها البيزنطيون من الأقباط . والثابت أن أراضى الكنيسة القبطية والأدير قد ردت إليها بالكامل حتى نجد في حسابات الخراج التى دونها الكتبة الأقباط في عصر الولاة أنها تضم أسماء قبطية . . والأراضى التى وزعها الولاة على العرب كانت الأراضى التى تمتلكها الدولة البيزنطية وظلت

لسنوات لا تقلح لأنها بلا صاحب . فلما اندمج العرب بالمصريين وزعت عليهم هذه الأراضي ليزرعوها ويعمروها بعدما اندمجوا مع المصريين وتزوجوا منهم وهذه الأراضي كان عامل الخراج مسئولا عن تأجيرها لهم لحساب بيت المال . والمطالع لما كتبه مؤرخو الأقباط يجد أن الأديرة عمرت وتضاعف دخلها مما تغله الأراضى التابعة لها . وهذا الرخاء لم تشهده من قبل . لكن الأقباط كانوا دائمى الشكوى كطبيعة المصريين . (وتريتون) نقلا عن المؤرخين الأقباط تحدث في كتابه (أهل الذمة في الإسلام) عن ثورات الأقباط في سنوات ١٢١ هـ و ١٣٠ هـ و ١٣٢ هـ و ١٣٥ هـ و ١٥٦ هـ و ٢١١ هـ وأطلق عليها (سنوات الثورات القبطية) وبين أنها حدثت في بعض القرى الصغيرة بالصعيد والوجه البحرى . وقام بها كما قال الفلاحون الأقباط إحتجاجا على المغالاة في الضرائب والمطالع لهذه التواريخ يجد أن أغلبية الفلاحين كانوا من المسلمين سواء أكانوا عربا أو أقباطا قد أسلموا . وقد نقل (تريتون) هذه التواريخ من البرديات القبطية في المتحف البريطاني . فلكون أنها كتبت بالقبطية فهذا لا يخفى عليها أنها ثورات قبطية . لأن اللغة التى كانت سائدة وقتها هى اللغة القبطية . كما أن هذه الثورات كانت محصورة في عدة قرى صغيرة كما يتضح من أسمائها وهذا يدل على أنها حوادث محدودة ضد الجباة القبط الذين لم يتقوا الله فيهم . وقد خربت ذممهم كما أسلفت وقلت . واذا كان ساويرس قد بين أن الوالى ما بين ٨١/ ٨٦ هـ . جمع من كل إقليم كل شخص لم تتجاوز مدة إقامته عشرين عاما ورحله إلى موطنه الأصلى فكان سبب هذا أن مصر كانت وقتها ملزمة بتعمير بيت المقدس وبعض بلدان الشام وإنشاء إسطول بحرى وكانت ملزمة – أيضا – بدفع هذه النفقات بالكامل . مما جعلها تعانى من التضخم المالى الذى ألجأ الوالى إلي الضغط لزارعة الأراضى التى تركها العمال ورحلوا عنها . كما أن الجباة الأقباط استغلوا هذا الضغط على المصريين لتعويض ما ينهبونه منهم بمضاعفة الخراج . فزوروا في الدفاتر مستغلين جهل الولاة وعمال الخراج بلغاتهم . وعلى هذا لم يستطيعوا التزوير أو المغالاة في الزكاة أو الصدقة لأنهما مقدرتان شرعا فلم ترتفع على المسلمين ليس لمحاباتهم ولكن لصعوبة التلاعب فيها . أما الخراج فهو متغير وتقديره كان جزافيا للمسلمين والأقباط معا .

****

****

***

*

مصـــر المســتقـلة

ظهرت الدولة الأموية كخلافة عربية ما بين عامى ٦٦١ م و ٧٥٠ م في دمشق . وكانت تحتقر الموالى بما فيهم المصريين . ولهذا لم تكن تعتمد عليهم في إدارة شئون الولاية ولم تسند إليهم أى مناصب سوى شئون الكتابة في الدواوين والجباية . وكان لشدة تعصب الأمويين للعنصر العربى أنهم كانوا يعينون أئمة المساجد والقضاة من بين العرب ولم يولوا إمرة مصر لأموى مولد أو لمصرى مسلم . لكن الامارة كانت قاصرة هى وإمرة الجيش بمصر على العرب الخلص ولم يلحقوا المصريين بالجيش الذى قصروه على البدو الذين كانوا يرسلونهم . كما حرموا زواج أى مصرى مسلم من بنات البدو . لأن العرب في نظرهم خير شعوب أهل الأرض . لهذا جعلوا تجنيد البدو في جيوشهم إجباريا . بعدما كان التجنيد أيام الخلافة الراشدية إختياريا لأى مسلم يتطوع له .

وفي خلافة يزيد بن معاوية أعلن عبد الله بن الزبير عام ٦١ هـ . الخلافة الزبيرية في الحجاز وتبعته مصر وأجزاء من الشام . وكان الخوارج قد ساعدوه في إخضاع مصر لنفوذه . حيث تولى ولاية مصر الزبيرية عبد الله بن جحدم (من الخوارج) عام ٦٤ هـ . تابعا لخلافة إبن الزبير في مكة . ولما تولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم (٦٤ هـ - ٦٦ هـ) أرسل إبنه عبد العزيز على رأس جيش وإسطول إلي مصر لاستعادة مصر من الخوارج وفصلها عن الخلافة في مكة . إلا أن الأمويين واجهوا مقاومة عنيفة من المصريين . وهذا ما جعل الخليفة مروان يأتى إليها بنفسه . ويتصالح معهم بعدما ذبح أنصار الزبيريين . وبعد ربع قرن ثار المصريون ثانية ضد الأمويين إبان ولاية قرة بن شريك (٩٠ هـ - ٩٦ هـ) . وكان معهم الخوارج إلا أن هذه الثورة أخمدت . وكانت نهاية الدولة الأموية على أيدى المصريين عندما لجأ إليهم الخليفة الأموى مروان الثانى عام ١٣٢ هـ . بعدما فر من العباسيين فوصل إلى مصر لائذا بها . لكن المصريين كانوا قد ضاقوا بالحكم الأموى الذى كان يرهقهم بالضرائب . لهذا انفضوا من حول مروان . وتطلعوا إلي العباسيين على أمل أنهم سيخلصونهم منها . وسيخففونها عليهم . ولا سيما وأن الصعيد والاسكندرية قد أعلنا العصيان والتمرد ضد الأمويين . لهذا السبب قتل مروان في الصعيد . وأرسلت رأسه إلى العباسيين في الكوفة عاصمتهم الجديدة ، وانتهت الدولة الأموية على أرض مصر .

وأيام الخلافة العباسية كان أخر وال عربي يحكمها هو عنبسة بن إسحق (٢٣٨ هـ - ٢٤٢ هـ) ، وفي خلافة المهدى العباسى (١٥٩ هـ - ١٦٩ هـ) إنفصل الصعيد عن الخلافة العباسية حيث تحالف مع دحية بن مصعب (حفيد مروان الثانى) وكان الشيعة يساندونه للاستقلال بمصر . وقد كان إبن النفس الزكية قد أتى لمصر عام ١٤٥ هـ . أيام الخليفة العباسي أبى جعفر المنصور (١٣٦ هـ - ١٥٨ هـ) . وقام بحركة في مصر إستهدفت ضمها لخلافة النفس الزكية بالحجاز وهى خلافة شيعية ، إلا أن أبا جعفر أخمدها وقتها . ولهذا نجد أن مصر لبعدها عن الخلافة في بغداد كانت موئلا خصبا لفلول الأمويين والشيعة الذين تحالفوا معا لضرب الخلافة العباسية فيها . وركزوا نشاطهم في الصعيد . فنجدهم يظهرون بثورتهم أيام حكم أحمد بن طولون عام ٢٥٤ هـ . مستغلين تمرد الجنود الأتراك ضد الخليفة العباسى المعتز . وأعلنوا تنظيماتهم السرية هناك .

وفى عام ١٩٨ هـ . طرد الحكم بن هشام الأموى ١٥ ألف أندلسى من قرطبة لأنهم تمردوا عليه وثاروا ضده ، فوصلوا إلي الاسكندرية بنسائهم وأطفالهم ، واحتلوها وأعلنوا بها الولاية الأندلسية المستقلة عن الخلافة العباسية مستغلين الفتنة بين الأمين والمأمون في بغداد ، وأصبح الكنانى واليا لها عام ٢٠٠ هـ . وكانت مصر منقسمة إلي عدة أحزاب ضد المأمون . حيث كان المصريون يؤيدون الأمين . فأتاهم عبد الله بن طاهر قائد المأمون ومعه جيشه الذى جلا الأندلسيين إلي جزيرة كريت عام ٢١٢ هـ . وأخضع مصر لنفوذ المأمون . وفى عام ٢١٦ هـ . ثار الوجه البحرى وطرد عمال الوالى العباسى . وهذا جعل الأفشين يفد بقواته من ولاية برقة لاخماد الفتنة. لكنه لم يقو فاستنجد بالخليفة العباسى المأمون الذى جاء بنفسه على رأس جيش وظل عام ٢١٧هـ بمصر ثلاثة شهور أخمد خلالها الثورة التى كانت بسبب الضرائب الفاحشة . ومنذ هذا التاريخ أصبحت مصر لأول مرة أغلبية مسلمة لأن كثيرا من الاقباط أسلموا . واختلط العرب بالمصريين ، وأخذوا يفلحون الأرض واندمجوا مع المصريين وتزاوجوا بهم .

مسألة خلق القرآن:

ظهرت فتنة مسألة (خلق القرآن) فى بغداد أيام المأمون الخليفة العباسى التى أثارها المعتزلة في بغداد واحتدمت هناك .لكنها لم تظهر في مصر إلا مؤخرا فى عهد المعتصم بالعباسى ، عندما أرسل كتابا إلي واليها كيدر بن نصر عام ٢١٨ هـ . حيث طلب منه أن يمتحن القاضى والفقهاء بها في مسألة خلق القرآن وأقروا بها تحاشيا للتنكيل بهم كما حدث لعلماء

بغداد . ولما تولى الواثق العباسي أمر واليه بمصر كتابة عبارة (لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق) على واجهات المساجد . كما أمره بالتشدد مع المصريين في هذه المسألة . بعدها زج بالمصريين المعارضين في السجون . ولما أبطل المتوكل العباسي هذه البدعة قال المصريون : (الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق يوم الردة . وعمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية (ضد الشيعة) . والمتوكل في إحيائه للسنة) .

وكانت سياسة العباسيين هى إقتطاع الولايات الاسلامية لكبار القواد في نظير دفعهم الضرائب والخراج للخلافة . فآلت ولاية مصر كاقطاعية ليارجوخ رئيس الجند في الخلافة أيام حكم المهتدى ، فعين زوج إبنته أحمد بن طولون نائبا له فيها ومنحه سلطانا كاملا عليها . وضم له ولاية الاسكندرية عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ هـ . وأصبحت الفسطاط عاصمة لها . إلا أن إبن طولون أنشأ مدينة القطائع بقربها وجعلها العاصمة الجديدة .

عصر أحمد بن طولون

كان أحمد بن طولون من أقوى الشخصيات السياسية التى حكمت مصر منذ عصر الولاة . لهذا نجده يتطلع إلي إنشاء جيش قوى له . فاستغل تمرد أحمد بن عيسى الشيبانى حاكم ولاية فلسطين ضد الخلافة العباسية . حيث أنشق عن طاعة الخليفة المعتمد ولم يبايعه . فطلب إبن طولون من الخليفة السماح له بشراء العبيد من الأتراك والأحباش والسودانيين لتكوين جيش لتأديب إبن الشيبانى . فوافقه ولا سيما وأن الخلافة كانت قد ضعفت قوتها ، وفي تكوين إبن طولون لجيش قوى سيكون سندا له . ولا سيما وأن الدولة البيزنطية باتت تهدد حدود الخلافة الشمالية . وحملة إبن طولون ضد الشيبانى لم تتم لكن بقى لابن طولون جيش قوى دربه على طاعته والولاء له . ولما مات يارجوخ آلت مصر والاسكندرية وبرقة إلي جعفر العباسى . وأصبح إبن طولون نائبا عنه فيهم . وكان الخليفة المعتمد قد قسم إقطاعيات الخلافة على أخويه الموفق وجعفر الذى كان صغيرا تحت الوصاية . والموفق كان قائدا للجيش العباسى الذى قضى على ثورة الزنج هناك . بعدها أصبح أقوى شخصية في الخلافة ، ولاسيما أنه كان ولى العهد بها . وكان إبن طولون على بينة بشخصية الموفق . وكان الموفق على بينة بشخصية إبن طولون . لهذا دب بينهما الصراع فيما بعد .

ومصر إزدهرت في عهد أحمد بن طولون لأنه منع السلب والنهب من الخراج ، ولاسيما بعدما أخضع له عامل الخراج وكان يتبع الخلافة رأسا . ولم يكن للوالى سلطان عليه لأن مهمة

الولاية كانت تنحصر في إمامة الوالي للصلاة بالناس وحفظ الأمن بالبلاد . وكان الجند تابعا له . فلهذا كان عامل الخراج أقوى من الوالي . لأنه كان يعين من دار الخلافة . وكان هذا النظام متبعا منذ الفتح الاسلامي وهذا الأسلوب كان سببا في تذ مر المصريين من الخراج والمكوس .

وكان لمراقبة إبن طولون لمسألة الضرائب - كما يقول " كرونهام " في مجلداته (البرد يات العربية) - أكبر الأثر في مضاعفته حيث كان الخراج قبل حكم إبن طولون لا يتعدى ٨٠٠ ألف دينار ، وفي عهده بلغ ٤ مليون و٤٠٠ ألف دينار سنويا . لأن سياسة إبن طولون كانت إستماعه للمظالم والبت فيها بالعدل . وحمى الفلاحين من ظلم الجباة الأقباط واستغلالهم وتزويرهم في حساباتهم كما يقول (كرونهام) . وكان يقدم البذرة للفلاحين ليزرعوها . فأصبح عهده بحق عصرا ذهبيا للفلاح المصرى . وشهدت البلاد رخاء كبيرا لأن الفلاحين شعروا بالأمن والأمان فضاعفوا من محاصيلهم . وساعدهم أن البلاد لم تمر بها أزمات كالأوبئة أو إنخفاض النيل إلا في بعض السنوات ، ولم تتأثر فيها البلاد لاستقرار إقتصادها . كما كان للاستقرار السياسى في الدولة الطولونية واهتمامها بالزراعة وتخفيضها للضرائب بدرجة ملحوظة قد جعل الخراج يتضاعف كثيرا لغلة الأرض ووفرة محاصيلها . فكان المصريون يدفعون الضرائب عن طيب خاطر. وهذا جعل الطولونيين يعمرون البلاد وينهضون بمرافقها . وإبن طولون علاوة على جيشه القوى كون له أسطولا بحريا لحراسة الشواطىء المصرية والشامية ضد الهجمات البيزنطية على الثغور . كما كان يؤدب به المدن الساحلية هناك وبهذا حقق الاستقرار السياسى ، ولا سيما بعدما أخمد الثورات ضده التى قام بها الشيعة في الصعيد ، وقضى على هجمات مملكة النوبة المسيحية في الجنوب .

وتطلع إبن طولون إلي ضم الشام إليه . فأعلن أنه سيحارب الدولة البيزنطية التى تهدد حدود الخلافة العباسية عند أطراف الشام الشمالية ، وبهذا جعل الخليفة العباسى يوافقه . ولا سيما أنه سيظهره أمام البيزنطيين كقوة رادعة لاطماعهم ، ويتخلص من جيش إبن طولون فى الوقت نفسه . وفي عام ٢٦٥ هـ . توجه إلي الشام ووصل إلي طرسوس على مشارف حدود الدولة البيزنطية ، وكان قد خلف إبنه العباس نائبا عنه في مصر . إلا أن العباس تمرد على أبيه ، فعاد أحمد بن طولون على عجل إلى مصر . وخلف إبن لؤلؤ نائبا له في الشام وحلب ، بعدها هرب العباس إلي إقليم برقة بعدما نهب أموال بيت المال وقبض الجيش عليه وزج به في السجن بعد جلده . وانشق إبن لؤلؤ على إبن طولون ومنع إرسال الخراج لمصر متحالفا مع الموفق

العباسي ولى العهد . وهذا ما جعل إبن طولون يعود ثانية إلى الشام لاستعراض قوته أمام الخليفة المعتمد العباسى ، ويظهر له أنه حام للخلافة في مصر والشام وبرقة . وكان الخليفة يواجه قلاقل في العاصمة سامراء فطلب منه إبن طولون الحضور إلي مصر قائلا له : إن خوفه على أمير المؤمنين منعه من الأكل والشراب والنوم . وطلب منه المجيء إلى مصر ليسترد عز الخلافة بعد إمتهانها ، ففيها ملاذه حيث لا يخشى شيئا . وحاول الخليفة الخروج لاجئا لمصر إلا أن قوات الموفق قبضت عليه عند حدود العراق . وأعيد إلى سامراء عام ٢٦٩ هـ . وحددت إقامته هناك . بعدها حاول الموفق عزل إبن طولون ، لكنه كان أقوى من الخلافة والخليفة معا . و في دمشق بعدما جمع علماء مصر والشام الذين أفتوه ... أعلن فتواهم بعصيان الموفق وتمرده على الخليفة الذى بايعه على العهد والولاء له . وكتب القضاة كتابا كما يقول الكندى : في كتابه (الولاة والقضاة) قالوا فيه : أن أبا أحمد (الموفق) خلع الطاعة وبرىء من الذمة . فوجب جهاده على الأمة . وأخذ إبن طولون يشهر بالموفق بنشره هذه الوثيقة . فلما بلغ الموفق هذا أمر بلعن إبن طولون من فوق منابر العراق . إلا أن هذه الحملة الكلامية إنتهت بالصلح وفك أسر الخليفة . بعدها مات إبن طولون بالشام وخلفه خمارويه الذى زوج إبنته للخليفة العباسى المعتضد . وكان عرسها من أشهر عروس التاريخ . فلقد جهز خمارويه إبنته قطر الندى وسارت بموكبها إلى بغداد ومعا جهازها الذى كان تحفة صنعها عمال مصر . ووصل موكب عرسها إلى بغداد بعد ستين يوما . بعدها أصبح العباسيون في وفاق وقوة بالطولونيين .

ويقاس الحكم الطولونى بمدى إنجازاته . فأحمد إبن طولون أصله من الأتراك وكانت طموحاته كبيرة . فبنى مدينة القطائع بجوار الفسطاط على غرار مدينة سامراء التى تربى وعاش فيها . وكانت العاصمة للدولة العباسية . حتى جامعه بناه على غرار جامع سامراء بالفخار والمئذنة الملوية (الملتوية) .

الإخشيديون :

بعد الطولونيين حكم الأخشيديون مصر عام ٩٣٥ م . والأخشيد كان لقبا يتلقب به ملوك فرغانة باقليم تركستان . وهذا اللقب خلعه عليه الخليفة أيام إنتصاراته ضمن جيش تكين الذى إنتصر على جيش عبيد الله الفاطمى قائد المهدى بشمال أفريقيا . ولما مات (على بن أبى بكر محمد بن طغج) الملقب بالأخشيد أصبح العبد كافور وصيا على ولديه أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن على اللذين توليا ولاية مصر والشام من بعده . ثم تولى من بعدهما كافور الولاية ،

وسيرته مع المتنبى معروفة . وحاول الحمدانيون في حلب الاستيلاء علي مصر لكن كافور ردهم .
كما حاول الفاطميون في شمال أفريقيا ، فلم يستطيعوا الاستيلاء على مصر إلا بعد وفاته ،
فقضوا على الدولة الاخشيدية عام ٩٦٩ م . لتصبح خلافة فاطمية لا تتبع الخلافة العباسية في
بغداد .

****

******

***

*

مصر خلافة شيعية

كان الشيعة يرصدون الضعف السياسي للدولة العباسية . فوجدوا فيه فرصتهم لاقامة خلافة شيعية بعيدا عن مناطق النفوذ والصراع التركي والفارسي . فاتجهوا بدعاتهم إلي شمال أفريقيا ليقيموا دولتهم العبيدية هناك . حيث أعلن أبو عبد الله المهدى الخلافة في أرض كتامة بالجزائر ولقب نفسه بالمهدى إشارة إلي ظهور المهدى المنتظر لدى الشيعة بعدها أطلق على دولته الدولة الفاطمية . وقد حاول المهدى غزو مصر عام ٩١٤ م . حيث إستولت قواته على الاسكندرية والفيوم . ثم حاول أبو القاسم الفاطمى الاستيلاء على الصعيد عام ٩٢١ م لكنه هزم . وفي عام ٩٦٩ م . وأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى لفتح مصر والقضاء على الدولة الاخشيدية بعد موت حاكمها كافور . واستولى عليها . ولما د خلها قام بانشاء مدينة القاهرة وقطع الخطبة باسم الخليفة العباسي ودعا الخطباء للمعز من فوق المنابر . ومنع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين وضرب النقود باسم المعز . وأسقط من الآذان عبارة (حى على الفلاح) واستبدلها بالعبارة الشيعية (حى على خير العمل) . وأصبح الآذان شيعيا لأول مرة في مصر . وقام بانشاء الجامع الازهر ليكون مقرا لتدريس الدعوة الفاطمية الباطنية . كل هذا تم ما بين عامى (٩٦٩ م و ٩٧٠ م) . وأخذ الخطباء يسبون الصحابة من فوق المنابر أثناء خطبة الجمعة كما يقول إبن إياس . واستغل القرامطة التفسخ الذى آلت إليه الخلافة العباسية ولاسيما وأن الفاطميين قد أسقطوا دولة الأغالبة في شمال أفريقيا واستولوا على القيروان حاضرتها عام ٩٠٩ م . فنراهم يداهمون مصر عام ٩٧١ م . ويصلون إلى منطقة عين شمس ودارت بينهم وبين الفاطميين معركة . وكان قد إنضم إليهم فلول الأتراك الأخشيديين ومعهم بعض المصريين الذين ضاقوا ذراعا بأفعال الشيعة الفاطميين وساندهم البدو بمصر كقبائل بنى عقيل وبنى طى . إلا أن جوهرا غمرهم بذهب المعز فانفضوا عن القرامطة . فهزمهم وردهم . بعدها أعلن جوهر جائزة من الذهب لمن يأتيه برأس الأعسم القرمطى زعيم الغزو . كل هذا حدث والمعز لم يكن قد وصل إلي الديار المصرية بعد . ولما وصل إلى القاهرة عام ٩٧١ م . أتاه القرامطة ومعهم قوات حسام بن الجراح صاحب الشام .وقد جاء طمعا في ذهب المعز الذى وعده به لو تخاذل عن القرامطة . وسلمه المعز أكياسا ملئت من أسفل بنحاس مذهب ومن فوقه بعض القطع الذهبية . وخالت خدعة المعز عليه . فانسحب بقواته أثناء المعركة تاركا القرامطة ينهزمون أمام الفاطميين ويفرون من مصر .

الخلافة الفاطمية بمصر:

بعد إعلان الخلافة الفاطمية في مصر ... أصبح العالم الاسلامي يضم خلافة عباسية في بغداد وخلافة أموية في قرطبة بالأندلس وخلافة فاطمية في القاهرة . وبهذا إنقطعت روابط مصر بالخلافة العباسية ، وأصبحت خلافة مستقلة لها وزير يدير شئون البلاد (أول وزير كان يعقوب بن كلس وهو يهودى) . وحلت الضرائب محل الجزية والخراج ، واستعان المعز بالأقباط واليهود في جمعها .

والقاهرة المدينة الجديدة أطلق عليها المصريون أيام المعز إسم القلعة أو الطابية أو الحصن . واشتهرت فيما بعد باسم مصر المحروسة ، وأطلقوا على البلاد ديار مصر . وفي قاهرة المعز كان كل شيء ملكا للخليفة الفاطمى حتى الدكاكين والحمامات التى كانت تؤجر إيجارا شهريا . وبهذا حرم الفاطميون تملك المصريين لأي مبان في المدينة التى جعلوا بها قصورهم ودواوينهم وسكناها كان قاصرا عليهم .

ومصر خلال العصر الفاطمى كانت مشتهرة بمنسوجاتها من الكتان وألياف النخيل والصوف . واشتهرت بالقباطى وهو نوع من النسيج المزخرف وكان هذا النوع من النسيج المزخرف تصنع منه كسوة الكعبة . وكانت مدن صناعة النسيج بمصر هى دمياط وتانيس وشطا واشتهرت هذه المدن الصناعية بالمنسوجات الكتانية والمقصبة . وكان الصناع يصنعون قماش البلقمون المتغير الألوان مع تغير ضوء النهار . واشتهرت في العصر الفاطمى بالمنسوجات المطرزة التى كانت تصنع في دار الطرز الفاطمية حيث يصنع بها منسوجات الخليفة وحاشيته . من الصوف والحرير الذى كان يجلب لها من الهند والصين لتطريزه وتفصيله . وكانت هذه المنسوجات تزخرف بالأشرطة الزخرفية أو الكتانية . وكانت رمزا لشارة الخلافة الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية . وكانت مصر تستورد المنسوجات القطنية من الهند والصين لأن القطن وقتها كان لا يزرع في بر مصر .

فأيام الفاطميين كانت مجالس الشراب من المظاهر المألوفة في بلاط الدولة والقصور الفاطمية حيث كان الخلفاء الفاطميون يعقدونها ، وكانت الجوارى يغنين بها . وأول من أتبع هذا المعز لدين الله نفسه . وكان الحاكم بأمر الله يقيمها ثم حرمها بعد ذلك وأهدر النبيذ والخمور وألقى بها في النيل . وهدد تجارها بالقتل لو باعوها .

وعرف الفاطميون خيال الظل حيث كان يعرض في الأعياد والمواسم في الشوارع والميادين

وقد ظل خيال الظل بمثابة الاعلام للمصريين حيث كان المخايلون ينتقدون الحكام ويعرضون سوء أحوال البلاد في شكل مسرحيات بدائية . وظل خيال الظل يمارس حتى عصر المماليك . وكان أداة نقد شعبية لاذعة للمماليك وظلمهم . فكانت مسرحياته تعرض بطريقة ساخرة جعلت السلطان جمقمق عام ١٤٥١ م . يمنعه إلا أنه ظهر في أواخر عصر المماليك وشاع في ديار مصر . ولما دخل سليم العثماني مصر اندهش عند رؤيته خيال الظل ولاسيما عندما عرض عليه المخايلون مسرحية شنق طومانباى على باب زويلة وكان يعيد عرض المسرحية عدة مرات وهو في حالة من النشوى . ولهذا أخذ معه خيال الظل إلي الأستانة ، وذهب المخايلون إلي هناك وعرضوا مسرحياتهم أمام حاشية السلطان سليم التى أعجبت بهذه العروض .

والفاطميون والحق يقال ... لم يكرهوا المصريين على إعتناق مذهبهم الشيعى . بل تركوهم على مذهبهم السنى . لكن رغم هذا كان الأزهر موئلا للدعوة الاسماعيلية الشيعية . ومركزا للتدريس به لدعاته . لأن الفاطميين كانوا على ثقة لو أنهم تدخلوا في عقائد وتقاليد المصريين سوف يغضبهم هذا ويثيرهم . وهذا ما أكده (هيرودوت) من قبل حيث وصف المصريين بأن طبيعتهم هى التدين المفرط ، كما أكد هذا (لين) حيث بين بأنه ليس في أخلاقهم الأصلية ما يستحق الاهتمام مثل إعتزازهم بدينهم ولهذا أدرك الفاطميون هذا فتحاشوه .

والفاطميون إشتهروا بتسامحهم مع الذميين . ففى عهدهم نزح يهود الأندلس لمصر ، ونزلوا بالفسطاط مكونين جالية يهودية ، وأسسوا لهم مدرسة كان يدرس بها الوزير يعقوب بن كلس ، وتخرج منها موسى بن ميمون طبيب نور الدين الأيوبى . كما كان لابن كلس وضعه حيث إستوزره المعز والعزيز .

أوامر الحاكم بأمر الله :

الحاكم بأمر الله هو ثالث الخلفاء الفاطميين وأول من ولد منهم في القاهرة . وسيرته أصبحت لغزا تاريخيا ، لأنه كان يتسم بالانفصالية الشخصية ، ولهذا كان عهده مميزا ضمن الخلافة الفاطمية ولاسيما في الشئون الداخلية . فقد تولى وسنه إحدى عشر عاما ، وكان الوزير برجوان وصيا عليه . ومات جوهر الصقلى في عهده . بعده إستولى على أمواله ومجوهراته . وقتل وزيره برجوان ونهب كنوزه وبعد مقتله تحول الحاكم إلي طاغية . وكان برجوان يكبح جماحه إلي حد ما .

والحاكم كان مريضا بمرض إنفصام الشخصية . فنراه يأمر اليهود بسكنى حارة زويلة ويجبرهم على إعلان إسلامهم في يوم واحد ، ثم يعيدهم إلي يهود يتهم في ليلة واحدة . ثم يهدم معابدهم ويعيد بناءها على نفقته . وفجأة أطلق مناديه محرما أكل الزبيب والعسل الأسود والترمس والملوخية والبلح الرطب والسمك الذى لا يقشر كالقراميط والثعابين . ومنع أكل القرع والملوخية كما أحرق أشجار العنب حتى لا يصنع من ثماره الزبيب . ونبه على الناس أن يناموا نهارا ويعملوا ليلا ، ومن كان يخالف هذه الأوامر الحاكمية كان يعدم على باب زويلة . وأمر بكتابة السباب على المساجد للصحابة . وكان يبنى المساجد ثم يهدمها . ويبنى الزوايا للصوفية ويهدها فوقهم ليدفنهم أحياء تحتها . وكان يمنح حاشيته الألقاب والمناصب ثم يسلبها منهم . وفرض على المصريين عند سماع إسمه في الخطبة الوقوف تعظيما له حتى في المساجد . ومنع صلاة التراويح مدة عشر سنوات .

والحاكم كان صابئيا يعبد النجوم . وادعى الربوبية حتى فرض على المصريين عند رؤيته أن يقولوا (ياواحد يا أحد . يا محي يا مميت) . ولهذا كان يبقربطون فلمانه أمام مسجده ويلقى بأحشائهم للكلاب أو يعفو عنهم ليبرهن أنه يحي ويميت . وكان يكره الغشاشين . فلو ضبط تاجرا يغش في سلعة أو وزن كان يقطع رقبته جهارا وفورا . ولما حدثت المجاعة الكبرى أيامه واشتد القحط وأخفى التجار الغلال سير مناديه في الأسواق بأنه سيصلى العصر في جامع راشد وبعد الصلاة لو مر في طريقه ولم يطأ حماره فوق القمح ، أو الدكاكين لا تعرض الغلال ، سيعدم كل من يخالف . فتوفرت الغلال بالأسواق في ساعات وانخفض سعرها كثيرا . وغالى الحمالون في أجورهم مستغلين تكالب التجار على نقل غلالهم وعرضها حتى لا ينالهم سيف الحاكم . وعم الرخاء البلاد . وكان يدعى الحاكم قراءة الغيب . لهذا كان أمراؤه يخشونه . فكان يتجسس عليهم في البيوت مستعينا بنسوة عجائز يقمن بهذه المهمة في بيوتهم بتقصى أخبارهم من زوجاتهم لينقلنها للحاكم في قصره . ويكشفها أمام الملأ في إجتماعاته . وشاء قدر مصر أن يحكمها هذا المجنون . مما جعل أخته ست الملك تتآمر ضده فقتلته لمخالفته الشرع ومحاولته التخلص منها . فسلطت عليه وأصبح مقتله لغزا حتى اليوم بعدما حكم مصر ربع قرن .

وفي عهد المستنصر الفاطمي شهدت مصر الشدة المستنصرية التى كانت بسبب إنقطاع الفيضان مدة ثمانى سنوات حتى بلغ القحط بمصر أقصى مداه . لدرجة كما يقول المقريزى من أن المستنصر باع جواهره ومقتنيات قصره من أجل الدقيق حتى بات ينام على الأرض ... وبلغ

الجوع بالناس درجة باتوا يأكلون فيها القطط والكلاب والخيول وجثث الموتى . وبعضهم ذبح أطفاله ليأكل لحمهم وهذه المجاعة جعلت إمرأة تبيع جوهرة بألف دينار لشراء رغيف وقفت به أمام قصر الزمرد صارخة : إدعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله الذى أكلنا الرغيف في أيامه بألف دينار . فسمعها الخليفة الجائع فأحضر وزيره وحاجبه وهددهما بالشنق إذا لم يظهر القمح بالأسواق . ولما خرجا من عنده وجدا بغلتيهما قد أجهز عليهما الناس وذبحوهما ليأكلوا لحومهما . فقاما بتهديد التجار والخبازين والطحانين بالشنق ، فتوفرت الغلال ورخص سعرها .

وفي عهد المستعلى الفاطمى (١٠٩٤ م - ١١٠١ م) إستولى السلاجقة الأتراك على دمشق وأجزاء من الشام وفلسطين ، وحكم الصليبيون بيت المقدس لأول مرة . والمستعلى لما تولى الخلافة كان أصغر أبناء المستنصر وهذا يتنافى مع الخط الشيعى الذى يقصر الخلافة (الامامة) على أكبر الأعقاب ، لكن الوزير الأفضل ولاه متخطيا نزارا الابن الأكبر مخالفا العقيدة الشيعية حول مفهوم الخلافة في الامامة وتوريث الأئمة . لهذا إنشق الفاطميون إلى جناحين أحدهما يقصر الامامة على نزار ، وأطلقوا علس أنفسهم الاسماعيلية النزارية ، والآخرون ارتضوا بامامة المستعلى وأطلق عليهم الاسماعيلية المستعلية . ولهذا بعد المستعلى عارض الاسماعيلية النزارية في تولية الآمر بأحكام الله إبنه ، وأصر النزارية على تولية الحافظ بن نزار لأنه أحق بها . فبايع فريق الآمر وبايع آخرون الحافظ الذى ظل بالقاهرة . أما الآمر الذى تلقب بالامام الطيب ظل بالاسكندرية حيث سكت النقود هناك باسمه . وأصبح في مصر خليفتان فاطميان في وقت واحد . لكن الحافظ أغتيل وتولى إبنه . وكان عمره خمس سنوات وتلقب بالفائز بنصر الله ثم تلقب بعد ذلك بالملك الصالح رغم أن الفاطميين كانوا خلفاء وليسوا ملوكا . إلا أن عمته قتلته وعمره عشر سنوات وتولى بعده إبن عمه العاضد بالله وكان عمره ١١ عاما وهو آخر الخلفاء الفاطميين حيث توفى عام ١١٨٠ م .

****

******

***

*

من ضعف الخلافة
إلى قوة السلطنة

يرتبط وجود الصليبين في المشرق العربى بالدولة الفاطمية والسلطنة الأيوبية ثم المملوكية بعدهما . وقصتهم تبدأ عندما أعلن البابا (إربان الثانى) في خطبته المشهورة في ساحة (أوفرينى) بمدينة كليرمون بفرنسا عام ١٠٩٥ م . أمام حشد من المجمع الدينى الكاثوليكى شن حملة صليبية علي فلسطين تحت راية الصليب بعدها إنهال مسيحيو أوربا بالتطوع والتبرعات ، وتعتبر الحملات الصليبية بداية التجربة الاستعمارية الأوربية للعالم الاسلامى . وهذه الحملات في حقيقتها مشروعات إستيطانية إستعمارية لاستعباد الشعب العربى في فلسطين والشام ومصر. وكان المسلمون يعرفون هذه الحقيقة . لهذا نجد المؤرخين الذين عاصروا هذه الحملات سموها غزو الفرنج ولم ينسبوها للصليب أو الصليبية . ولم يربطوا بين هذه الحملات الاستعمارية وبين المسيحية لما شاهدوه وسمعوا به من إضطهاد الفرنجة للمسحيين الأرثوذ كس وتشريدهم لهم وطردهم من بيت المقدس وتحطيم كنائسهم وأديرتهم وحرموا عليهم الحج أو التواجد في القدس .

والكنيسة في الغرب كانت تسمى هذه الحملات بالحج التكفيرى للخطاة والعصاة والقتلة فانضموا لها . لذا نجدها كانت تضم اللصوص وقطاع الطرق وسفلة أوربا والفقراء الذين وجدوا فيها الخلاص من السخرة والقحط والاقطاع . وابتدعت الكنيسة للأغنياء صكوك الغفران . وكانت تبيعها لهم لتمويل هذه الحملات . لهذا نجد أن الحملة الصليبية الأولى كانت تضم اللصوص والقتلة الذين جاءوا ليتطهروا من آثامهم . بعدما إدعت الكنيسة أن كل من يذهب للقدس تغفر له كل ذنوبه وخطاياه . وجعلت الحج التكفيرى فرضا على كل عاص خطاء أو قاتل . وأطلقت الكنيسة على هؤلاء الحجاج (جند المسيح) . وبعدما رد إبن زنكى الصليبيين عن الرها جندت الكنيسة الحملة الثانية عام ١١٤٥ م . بعدها أعلن البابا أجينوس الثالث أن صكوك الغفران تباع لكل من يساهم فيها بالمال بدلا من الحج التكفيرى .

ومدينة القدس قبل الغزو الصليبى كانت تابعة للدولة الفاطمية التى كانت قد سهلت عملية الحج بوازع من التسامح الدينى ولم تكن على بينة بأبعاده الاستعمارية . وتضاعفت الرحلات ، وأقامت للحجاج المنشئات لراحتهم على طريق الرحلة . لكن لما إستولى السلاجقة على بيت المقدس

قلت هذه الرحلات ، لهذا لما أتى الصليبيون ظن الفاطميون أنهم سوف يخلصونهم من النفوذ السلجوقى على بيت المقدس وسيحدون من هجمات السلاجقة المتلاحقة على حدود الشام . ففاوض بدر الدين الجمالى الصليبيين على تقسيم الشام فيما بينهم أيام حكم المستعلى . لكن هذه المفاوضات فشلت ولا سيما وأنهم كانوا يحاصرون مدينة أنطاكية عام ١٠٩٨ م . وتركها الفاطميون لمصيرها نكاية في السلاجقة بعدما تقدم الصليبيون في فلسطين حتى وصلوا بيت المقدس عام ١٠٩٩ م . واستولوا عليه . وهناك قامت أكبر مذبحة حيث قتلوا الآلاف وذبحوا الأطفال والنساء والشيوخ والقساوسة ، وهدموا المساجد والكنائس ووضعوا الصليب فوق المسجد الأقصى . بعدها هج الأهالى من فلسطين والشام هربا من الهول الصليبى لمصر ، وحاول الأفضل بدر الجمالى استرداده لكنه فشل .

وكان لمجيء النازحين العرب إلى الأراضى المصرية وقع سيء لدى أهل مصر . فأخذ الأئمة في المساجد يدعون للجهاد المقدس وأخذت الكنائس تدعو إلى قتال الفرنجة . كما أخذت الدعوة لتحرير بيت المقدس تسرى في العالم الاسلامى . مما جعل جيوش الموصل ودمشق وسنجار تلحق بالصليبيين عام ١١١٣ م . الهزائم بقيادة مودود أتابك الموصل . لكن الحشاشين الاسماعيليين إغتالوه بعدما حقق انتصارات مذهلة هناك .

أما الدولة البيزنطية في القسطنطينية نراها تستنكر هذه الحملات الصليبية واتهمت روما بأن ما تقوم به هو عملية قتل جماعية للمسلمين والمسيحيين الشرقيين . لهذا نجد البابا أجينوس الثالث يعلن في روما بأن هدف هذه الحملات هو تخليص بيت المقدس من الكفار المسلمين ، ونشر المسيحية هناك .

وفي عام ١١٥٤ م . دخل ابن زنكى دمشق ووحد الجبهة الشرقية والشمالية من الشام وأصبح محور مقاومته يضم الموصل وحلب ودمشق . لمقاومة الحملة الصليبية الثانية بقيادة كونوراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس الثامن ملك فرنسا . كل هذه العمليات العسكرية والخلافة العباسية ببغداد متجاهلة هذا كله والخلافة الفاطمية بالقاهرة في نزعها الأخير . والقاهرة كان يدور فيها نزاع حول الوزارة وهذا ما أغرى أمالو ريك عمورى بغزو مصر عام ١١٦٣ م . فعبر خليج السويس قادما من بيت المقدس ثم وصل إلى بلبيس حيث فتحت عليه سدود النيل ، فأغرقت قواته فعاد .

والصراع كان على أشده في مصر حول الوزارة ما بين ضرغام الذى خلع شاور منها

وتولاها هو . وفرشاور إلى دمشق محرضا نور الدين بن زنكى على الاستيلاء عليها . وها هو العاضد كان قد إستنجد لرد الصليبيين بابن زنكى . مما أعطاه الفرصة للتدخل في شئون مصر . لكن الوزير ضرغام شعر بتآمر شاور مع إبن زنكى فاستنجد بالصليبيين لحمايته فحضر أماريك عمورى للمرة الثانية من القدس واستولى على شرق الدلتا لكن قوات إبن زنكى ردته بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه إبن أخيه صلاح الدين الأيوبى . كل هذا والخليفة الفاطمى لا حول له بالقاهرة ولا قوة . واستولى أسد الدين على الوزارة وحرم ضرغام وشاورمنها وولى إبن أخيه قيادة الجيش ورد الصليبيين عن مصر عام ١١٦٩ م .

حكم صلاح الدين :

في عام ١١٧١ م . كان صلاح الدين وزير العاضد . فمنع الخطبة باسم الخليفة الفاطمى وأعلن الخطبة بجامع عمرو باسم الخليفة العباسى المستضىء بالله ، وأصبح صلاح الدين سلطان مصر التى أصبحت سنية بعدما أسقط الدولة الفاطمية ومنع الخطبة بالجامع الأزهر حتى أعادها بعد حوالى مائة عام الظاهر بيبرس . وبهذا كان بداية السلطنة الأيوبية في مصر والشام وفلسطين . ولا سيما بعد وفاة إبن زنكى بدمشق بعدها انتقلت الزعامة السياسية إلى القاهرة عام ١١٧٤ م . فوحد مصر صلاح الدين مع الشام عام ١١٧٥ م . وبدأ يدخل مع الصليبيين في حروب تحريرية . لهذا جند المصريين إجباريا في جيشه . **وحاول (أرنو) في عام ١١٨٢ م . الاتجاه من الكرك لغزو الحرمين الشريفين بالحجاز لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . فصنع أسطولا حمله إلى العقبة على الجمال سرا وجمعه هناك . وأستولى على بعض جزر خليج العقبة ، وكان يريد حمل رفات المصطفى إلى بلاده ليجعل زيارته نظير رسوم يدفعها المسلمون . لكن صلاح الدين أرسل قواته بقيادة لؤلؤ الذى سبا أرنو وأتى به للقاهرة مكبلا مع رجاله وسار به فى شوارعها .**

وفي عام ١١٨٧ م . إنتصر صلاح الدين على الصليبيين في حطين واسترد بيت المقدس وجدده ، ثم إستعاد معظم مدن الشام وكان لاستعادة المسلمين لبيت المقدس أثره القاسى على البابا (إربان الثالث) الذى مات عند سماعه النبأ ، بعدها فرضت البابوية الصيام على رعاياها كل يوم جمعة حزنا على يوم سقوطه وحرمت عليهم أكل اللحوم يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع حزنا على القدس . وفرض البابا (كليمنت الثالث) ضريبة على أتباع كنيسته أطلق عليها عشور صلاح الدين لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة ما بين عامى ١١٨٩ و ١١٩١ م . بقيادة فردريك أمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفليب أوجست ملك فرنسا لمحاربة

صلاح الدين إلا أنها إنتهت بعقد صلح الرملة بينه وبينهم لإبقاء الحال على ما هو عليه . وكان هذا الصلح عام ١١٩٢ م . بعدها بعام مات صلاح الدين ود فن بدمشق وكان قد قسم السلطنة بين أبنائه وأخيه في حياته . وبعد صرامة صلاح الدين نجد أن الفساد قد تفشى في السلطنة الأيوبية ولا سيما بعد الصراع الذى نشب بين أبنائه وعمهم ، وأصبح هم الأمراء الأيوبيين هو جمع المال بأي ثمن . لهذا أعادوا معاصر الخمور للعمل ليلا ونهارا حتى ارتفع سعر العنب ، وغلت الأسعار غلوا فاحشا . ولم تشهد البلاد أي تطور عمراني في عهدهم . لكن التجارة العالمية نشطت عبر الديار المصرية بعد صلح الرملة ، وازدهرت القوافل من المشرق ولا سيما وأن البحر الأحمر أصبح مؤمنا تماما من هجمات الصليبيين لعودة السيادة المصرية على خليج العقبة بعد عودة بيت المقدس لمصر . ولم يعد الصليبيون يفكرون في عودة بيت المقدس لهم لأن الروح الصليبية قد تبدلت من النخوة الدينية إلى النفعية الجارية ولا سيما لما استقر الفرنجة في سواحل فلسطين والشام ، وأقاموا في المدن الساحلية وأثروا أراضيه الخصبة على صحراء فلسطين . فوجد التجار البنادقة أن الانفاق على إستعادته مضيعة لأموالهم بلا طائل . لهذا إتجهوا إلي دمياط والاسكندرية لممارسة تجاراتهم ووجدوا في الاستيلاء عليهما أكثر ربحية لهم من إسترداد بيت المقدس .

مصر والتجارة العالميه :

السلطنة الأيوبية في مصر بعد عام ١١٨٢ م . (بعد مغادرة صلاح الدين القاهرة) لم يصبح لها دور أساسى فيها بعدما كانت تدار منها . لأن الدور السياسى للقاهرة إنتقل معه للشام ولا سيما في عهود خلفاء صلاح الدين . لكن الفترة ما بين عامى ١١٩٦ م ، ١٢٥٠ م وكان السلاطين الأيوبيون قادرين على تسيير أمور مصر ، فاهتموا بالزراعة والحكم وحفظوا بها النظام وحققوا فيها شيئا من العدل . وفى عام ١٢٠٨ م سمح العادل ببعض التسهيلات التجارية للبنادقة (تجار فينيسيا) في مصر . لكنها توقفت بعد هجوم الصليبيين على دمياط عام ١٢١٩ م وظل الكساد يجتاح مصر حتى عام ١٢٣٨ م . بعده أعاد العادل الثانى هذه العلاقات التجارية للبنادقة وجعل المكوس على بضائعهم الواردة عبر الديار المصرية تعادل عشر قيمتها الشرائية .

وإهتمام التجار البنادقة في الاستيلاء على مصر نجده في الحملة الصليبية الرابعة التى مولها هؤلاء التجار عام ١٢٠١ م . حيث أوعزوا إلى البابا (أنوسنت الثالث) بشنها ، وساعوه

فيها باسطولهم إلا أن هذه الحملة لم تتجه لمصر كما خطط لها . واتجهت إلى القسطنطينية
عاصمة الدولة البيزنطية المسيحية واستولت على المدينة ونهبتها قواتها ، وقتلت المسيحيين هناك .
بعدها واصل بعض الصليبيين بها سيرهم حتى وصلوا مملكة بيت المقدس التى كانت عاصمتها
عكا وقتها . وانضموا مع قواتها وهاجموا رشيد من البحر ونزلوا بها وساروا فى النيل حتى
وصلوا مدينة فوة عام ١٢٠٤ م . أيام حكم السلطان العادل الذى استطاع بعدها عقد هدنة مع
قائدها أماالوريك عمورى مدتها خمس سنوات .

**وخلال الفترة ما بين عامى ١٢٠١ و١٢٠٢ م . إبان حكم السلطان العادل سيف الدين
الأيوبى داهمت البلاد مجاعة قاسية سجلها المؤرخ عبد اللطيف البغدادى الذى عاصرها عندما كان
يلقى دروسه فى الجامع الأزهر . فصورها تصويرا ماساويا رهيبا حيث بلغت الشدة بالمصريين
لدرجة باتوا يأكلون اللحوم البشرية . والآباء قتلوا أطفالهم وطبخوا لحومهم . وكان الأهالى ينشبون
القبور بحثا على الطعام . ومما ساعد على إستفحالها مداهمة وباء الطاعون لهم . فكان الآلاف
منهم يتساقطون بالطرقات والأزقة حتى عز الأكفان وقلت المدن والأقوات لدرجة كما يقول
(ستانللى لان بول) في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى من أن المجاعة كانت من الشدة
لدرجة أنه في شهر واحد إنتقلت الملكية إلي أربعين وريثا لأن الوراثة من كثرة الموتى كانت تنتقل
بسرعة . وكان لانخفاض عدد السكان انخفضت إيجارات المساكن إلي سبع قيمتها .**

لكن بعد هذه الشدة إزدهرت التجارة الدولية عبر الأراضى المصرية ولا سيما من البحر
الأحمر حيث ميناء عيذاب (برنيس) على حدود مصر الجنوبية و يطل هناك عليه ..و أصبح هذا
الميناء ميناء دوليا تفد إليه الواردات من الهند والشرق الأقصى لحملها إلى مينائي دمياط
والاسكندرية اللذين إنتعشت بهما التجارة والتصدير إلى موانىء أوربا ولا سيما إلى البندقية
وجنوا بايطاليا .

وأصبحت دمياط والاسكندرية تحتكران هذه التجارة مما جعلهما مركزين عالميين لها .
وكان البنادقة وتجار جنوا يمارسون تجاراتهم فيهما ، وهذا جعلهم يجبرون البابا (أنوسنت
الثالث) على تكوين الحملة الصليبية الخامسة لشن هجومها للإستيلاء على مصر ، وموّلوها
بالكامل بأموالهم وسفنهم ووصلت هذه القوات عام ١٢١٩ م . إلى دمياط واستولت عليها . وهذا
جعل السلطان الكامل يفاوضهم على الجلاء في نظير أن يعطيهم الصليب المقدس الذى إستولى

عليه صلاح الدين بعد إسترداده للقدس عام ١١٨٧ م . مع التنازل للصليبيين عن بيت المقدس ومعه أرض الجليل وحطين وطبرية وصيدا واللاذقية إلا أن التجار الايطاليين رفضوا هذا العرض السخي ، وقد كان مندوب البابا ضمن هذه الحملة . قد قبله على الفور . فزحفت القوات الصليبية إلى فارسكور إلا أن القوات المصرية فتحت عليها السد هناك ، ففاضت مياه النيل وأغرقت الجنود الصليبيين ومعداتهم وأسلحتهم . وكان الفيضان على أشده فهزمهم النيل وردهم إلى دمياط مدحورين تلاحقهم القوات المصرية ، وطردوا منها عام ١٢٢١ م . وبهذا إنتهت هذه الحملة . لكن السلطان الكامل لشدة خوفه من الصليبيين ولضعفه إتجه إلى (فرد ريك الثانى) ملك بيت القدس وطلب منه عقد هدنة لمدة عشر سنوات لا تصل فيها أى قوات صليبية لمصر في نظير إعطائه مدينة القدس وبيت لحم وطريق عكا المؤدى للقدس وقبة الصخرة . ورغم أن فرد ديك لم يكن له حول ولا قوة ضمن إطار الحروب الصليبية إلا أنه قبلها . بعدها توج نفسه ملكا لبيت المقدس وجعل المقدس عاصمة مملكته بدلا من عكا .

وهذه الاتفاقية إعتبرتها الخلافة العباسية سبة للمسلمين . واستهجنها كل المؤرخين ومعهم المصريون ، واعتبروا هذا تخاذلا من الكامل جلب به الذلة والمهانة للمسلمين . وفي عام ١٢٤٤ م . كان إبن الكامل السلطان الصالح الأيوبى قد هجم على الصليبيين في غزة وقد إحتشدوا له . فهزمهم بينما كان الناصر الأيوبى حاكم الكرك قد استرد بيت المقدس في نفس العام . وأصبحت عكا عاصمة مملكة القدس الصليبية للمرة الثانية .

ظهور المماليك :

كان الصالح أيوب سلطانا لا يثق في المصريين ولا البدو العرب ليضمهم في جيشه . لهذا كون نظام الحلقة التى كانت تضم حراسه من المماليك الذين جلبهم من أسواق النخاسة ومعظمهم كانوا من الأتراك . وجعلهم الصفوة المختارة عن بقية المماليك وأسكنهم في قلعة الروضة التى كانت تقع بحرى مدينة الفسطاط لهذا أطلق عليهم المماليك البحرية . وهؤلاء قويت شوكتهم ولا سيما بعد وفاته وكان لقائدهم فارس الدين أقطاى نفوذه في السلطنة بعدما حققوا إنتصارهم على لويس التاسع في المنصورة . حيث أتت الحملة الصليبية الساد سة إلي دمياط عام ١٢٤٩ م . بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا للثأر من المسلمين الذين إستردوا بيت المقدس . وكانت قواته قد خرجت من مارسيليا بجنوب فرنسا . واتجهت إلي قبرص للحشد والاستعداد للهجوم على مصر .

ونزلت قواته بدمياط واستولت على المدينة بلا مقاومة وقد كان أهلها قد هجروها لما رأوا مراكب الصليبيين . وخاف أفراد القوات الصليبية ظنا منهم أن الأهالى تواروا للانقضاض عليهم . فتيقنوا بعدها من خلوها . لكن السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى كان مريضا في معسكره بالمنصورة حيث كانت قواته تشن هجوما خاطفا على الفرنجة . وكان يدفع دينارا من الذهب لكل من يأتيه برأس صليبى . وفجأة مات السلطان وأسرت زوجته شجرة الدر الخبر حتى لا تنهار القوات التى تواجه عدوا شرسا ، ونقلت جثمانه خفية للقاهرة لتجتر أحزانها بمفردها .

****

****

**

*

المماليك بناة حضارة

حكم مصر أربع نسوة هن حتشبسوت وكليوبترا وزنوبيا (ملكة تدمر) وآخرهن شجر الدر . وهى جارية مملوكية من أرمينية تزوجها السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى . والتاريخ المصرى يذكر لها وقفتها بعد وفاة زوجها بالمنصورة حيث أخفت ببراعة وذكاء خبر الوفاة ونقلته سرا إلى القاهرة ، ولم يعلم بالخبر مماليكه الذين كانوا يحاربون في المنصورة وفارسكور ودمياط ضد الصليبيين الغزاة . وهذا التمويه يدل على قوة شخصيتها ولا سيما وأنه تم في أحرج الأوقات وأشد المواقف خطورة على البلاد . وأرسلت سرا لاحضار إبن السلطان الصالح من حصن كيفا بديار بكر ليتولى السلطنة . وظلت شجرة الدر تستقبل الوزراء وتعقد مجلس الديوان باسم السلطان المريض . كما كانت تجتمع بالقواد وتعطيهم تعليمات القتال وتصدر إليهم الأوامر باسمه موقعا عليها من عبدها سهيل الذى كان يقلد توقيع السلطان . وظلت تتابع المعارك منذ شهر نوفمبر عام ١٢٤٩ م . حتى شهر فبراير عام ١٢٥٠ م . إلى أن وصل إبن السلطان المعظم توران شاه من حصن كيفا وسلمته مقاليد السلطة . وانتصر المصريون ، ثم بعدها قتل توران شاه الذى لم يحكم سوى أيام .

عصر شجر الدر

أجمع المماليك على تولية شجر الدر زوجة أستاذهم ، فتولت السلطنة عام ١٢٥٠ م . وأصبحت سلطانة مصر والشام . وفي عهدها تم الافراج عن لويس التاسع الذى أسر فى معركة المنصورة مع قواته . ووضعت نهاية الحملة الصليبية على مصر . ولم تقبل شجرالدر الافراج عن الملك الأسير ومعه أسراه نظير الفدية والجزية إلا بعد أن يتعهد بعدم العودة إلى مهاجمة السواحل المصرية والشامية وغيرها من ديار الاسلام لمدة عشر سنوات . وبالمقارنة بين معاهدة شجرة الدر ومعاهدة السلطان الكامل مع فرد ريك نجد عهدها كان عهد إمرأة صانت فيه كرامة المسلمين . فهناك فرق بين سلطانة أمة وبين سلطان حر .

أما شجر الدر فقد بايعها كل المماليك ، وكانت توقع على المراسيم باسم أم خليل أو والدة خليل إشارة إلي إبنها خليل من السلطان الصالح الذى مات طفلا . وتعبيرا عن صلتها بالبيت الأيوبى . وأعلنت الخطبة باسمها في مصر . وكان الخطباء يدعون لها بعد الدعاء إلى الخليفة

العباس المستنصر بالله ، والدعاء للسلطانة شجرة الدر كان نصه : واحفظ الله الجبهة الصالحية ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . ذات الحجاب الجميل والستر الجليل . والدة المرحوم خليل وزوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب .

واحتج الخليفة العباسي في بغداد على تولية إمرأة سلطنة مصر . فأرسل رسولا لأمراء المماليك يبلغهم على لسان الخليفة العباسي قائلا : إعلمونا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة . فنحن نرسل لكم من يصلح لها . فلما بلغ هذا شجر الدر أحست بأن قصر الخلافة في بغداد يداريه الدسائس ضد مصر حيث هناك من يطمع في ملكها . فوجدت أن في أبطالها من هو أحق ، لأنهم ذادوا وحاربوا وحققوا النصر على الأعداء . فتنازلت عن العرش إلى الأمير أيبك وهو مملوكي ، وكانت شجر الدر قد حكمت ثلاثة شهور إلا أياما . وتنازلت له بعدما تزوجته وطلق زوجته أم علي . إلا أنها قتلته بعد ذلك . وقبض إبنه الأمير علي عليها وسلمها إلي أمه التي أمرت جواريها عام ١٢٥٨ م . فضربنها بالقباقيب حتى ماتت ورمينها من فوق سور القلعة وهي شبه عارية ، فسقطت في خندق بجوار السور وظلت جثتها ثلاثة أيام حتى دفنها مماليك السلطان الصالح في مقبرة بجواره .

وشجر الدر كانت سيدة حازمة وراجحة العقل لهذا أحبها المصريون ، لأنها كانت خيرة عليهم وعلى مماليكها الذين بكوها جميعا بعد مقتلها . وأصبح قبرها مزارا لهم يتبركون به . وشجرة الدر لما تنازلت لأيبك أشركت معه في السلطنة الأشرف موسى الأيوبي رغم أن عمره كان ست سنوات وراعت بهذا شعور آل أيوب إكراما لهم . فهدأوا لكن أيبك عزله عام ١٢٥٤ م . ونفاه إلى القسطنطينية بعدما انتصر على قوات المغيث عمر إبن العادل وحفيد الكامل الذى أتى من الشام بقواته التى هزمها أيبك عند العباسية بشرق الدلتا . وبهذا أحكم سلطته على السلطنة وأخضع المماليك له بعدما قتل الأمير أقطاى منافسه . لكن لما شق أيبك عصا الطاعة على شجرة الدر قتلته . وتولى بعده إبنه السلطان علي أيبك وكان عمره ١٥ سنة ولقب بالمنصور وتعين الأمير قطز نائبا له . وكان مملوكا تركمانيا . وبهذا نرى أن السلطنة المصرية بدأت تحكم بواسطة المماليك وهؤلاء أصلهم من الرقيق البيض جلبهم تجار النخاسة من خوارزم وبلاد التركمان ومن شمال شرق القوقاز . وهؤلاء أتوا مصر أطفالا صغارا ، وتربوا في القلعة أحسن تربية وتدربوا تدريبا عسكريا وتفقهوا في الدين وتعلموا العلوم السائدة وقتها . والمملوك لما يشب كان يتخرج من

مدرسة المماليك بالقلعة ويصبح أميرا مملوكا بعد أن يقسم يمين الولاء للسلطان الأيوبى الذى يعتبره أستاذه . وكان المملوك بعد تخرجه يمنح أبعدية من الأرض لينفق منها على معيشته ثم يتزوج . وهؤلاء المماليك كانوا فرسان السلطانه وجنود السلطان الأيوبى . ولما ظهر حكم المماليك أصبحوا جنود السلطان المملوكى . لهذا نجد أن مفهوم الرق لا ينطبق عليهم لأنهم لم يكونوا رقيق سخرة لكنهم كانوا فرسان أحرارا في الدولة . وكان المماليك يبايعون السلطان الجديد بتقبيل الأرض تحت قدميه ، وعندما تولت شجر الدر حضر مماليكها إلى القصر ليبايعوها . فقبلوا الأرض وهى خلف حجاب . والمماليك كانوا لا ينطقون باسم السلطان بل يقولون أستاذنا وابنه إبن (أستاذنا) .

وعهد السلطان منصور كان كله كوارث ألمت بالبلاد في مصر والحجاز [كانت بلاد الحجاز تابعة لمصر وقتها] . ففى عام ١٢٦٠ م حدث زلزال مروع بالمدينة المنورة وتبعه بخمسة أيام بركان اشتهر بنار وادى شطا . وظهرت نيرانه وحممه شرق المدينة المنورة في منطقة وادى شطا . وكان من شدة البركان أن رآه أهل البصرة بالعراق ، وشاهدوا نيرانه بوضوح . وظل البركان ثائرا لمدة شهر . وفى عهد المنصور إستولى هولاكو على بغداد لعلمه بضعف السلطنة المملوكية . واستغل هذا فاستولى على حلب وكانت تابعة لمصر .

المماليك والمغول:

لما أحس بيبرس بالخطر المغولى عام ١٢٥٨ م . حيث إستولى هولاكو على بغداد وقضى على الخلافة العباسية هناك . سار بمماليكه نحو غزة ، وكان قطز قد تسلطن بعدما أفتى العلماء بعدم أهلية المنصور للحكم ، فعزلوه وولوا قطز . لهذا طلب بيبرس منه الأمان له ولقواته التى جاءت للاسهام في الحرب ضد المغول مع قوات قطز . وتشاء الأقدار أن يكتشف السلطان قطز كنزا تحت مسلة المطرية ، فوجده كتلا من النحاس والدنانير الذهبية (حوالى عشر آلاف أوقية ذهب) جهز بها جيشه . وكان عودة بيبرس فالاحسنا له . لهذا إستقبله إستقبالا طيبا .

والمغول بقيادة هولاكو كانوا قد إستولوا على بغداد وأرض الجزيرة بالعراق وديار بكر . ثم اتجهوا من سمر قند إلى الجنوب واستولوا على شمال فارس وطوقوا العراق بعدما قضوا على طائفة الحشاشين (الاسماعيلية) في حصن آلا موت عام ١٢٥٧ م . كما استولوا على حلب ودمشق . والمغول نراهم قد جندوا العلماء والقضاة في ديار المسلمين ليكونوا طابورا خامسا لهم

ويخذلوا أهلها عن الحرب ضد الغزاة الوثنيين . وأخذ لويس التاسع أسير شجرة الدر بالمنصورة يساعدهم على الغزو للقضاء على الاسلام والمسلمين .

وجهز التجار بالقاهرة جيش مصر وسيروه بالأسلحة والعتاد والمؤن وتطوع به المصريون . وفي عين جالوت قرب بيسان إلتقى المصريون بقيادة قطز وبيبرس مع المغول عام ١٢٥٩ م ، وانتصروا عليهم ويرجع الفضل في هذا الانتصار التاريخي الحاسم لبيبرس . بعده أقام السلطان قطز نصبا تذكاريا تخليدا لهذه المعركة وانتصار قواته فيها وأطلق عليه (مشهد النصر) وشيد هذا النصب التذكاري فوق أرض المعركة .

وبات قطز يخشى بيبرس الذى نال شهرة تاريخية بعد إنتصاره . ولهذا لما دخلا دمشق طلب منه بيبرس أن يوليها له فرفض . وكانا قد تعاهدا على هذا بعد الانتصار لتكون ولايتها له مكافأة له . لكن قطز رفض . فأسرها بيبرس في نفسه ، ولما كانا في طريق عودتهما للقاهرة أغتيل السلطان قطز قرب الصالحية عام ١٢٦٠ م . وهناك بايع المماليك بيبرس الذى أحضر القاضي سرا من القاهرة ليشهد على المبايعة بالسلطنة .

وكانت القاهرة قد إزينت لاستقبال السلطان المظفر قطز ، لكن بيبرس السلطان الجديد أرسل مناديا إلى القاهرة ليجوب بشوارعها معلنا وقائلا : ترحموا على الملك المظفر (قطز) وادعوا لسلطانكم الملك القاهر (ركن الدين بيبرس) . بعدها دخل السلطان بيبرس من باب النصر وتوجه إلي القلعة مقر السلطنة . لكن الوزير زين الدين بن يعقوب حذر السلطان القاهر من هذا اللقب قائلا : ما لقب به أحد فأفلح . لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسحل . ولقب به القاهر إبن صاحب الموصل فسم . فتطاير بيبرس من لقبه القاهر وغيره بالظاهر . وإبن يعقوب كان في الواقع يريد أن يثنيه عن هذا اللقب لأنه من أسماء الله الحسنى فرده عنه بلطف ولباقة .

إحياء الخلافة العباسية :

تشاء الأقدار في عام ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ . أن يقتل المستعصم العباسي في بغداد بعد سقوطها وهو الذى اعترض على تسلطن شجرة الدر التى تموت في نفس العام مقتولة أيضا . وبعده أصبحت مسألة إحياء الخلافة العباسية مسألة دعائية تكالب عليها كل الحكام المسلمين ليضفي كل منهم هالة على حكمه باحيائه لها في ملكه . ولهذا نرى الناصر يوسف الأيوبى صاحب

دمشق يسعى لاحيائها هناك . لكنه أخفق بعدما حاول تنصيب أحد العباسيين خليفة ، وحاول السلطان قطز لكنه قتل . وواتت الفرصة الظاهر بيبرس عندما وصل إلى دمشق أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى ومعه البدو الذين شهدوا وأقروا بصحة نسبه أمام نائب صاحب دمشق علاء الدين البند قدار بيبرس الذي أرسل إلى الظاهر بالقاهرة بخبره . فطلب منه إحضاره إلى مصر وخرج الظاهر ومعه القضاة وأمراء المماليك والأعيان والمشايخ ورؤساء القبط واليهود لاستقباله عند مشارف القاهرة . بعدها د خلوها جميعا في موكبهم حيث إستقبل الأهالى أبا القاسم العباسى إستقبالا لا نظير له . وتوجه الموكب إلى القلعة . وكان هذا عام ١٢٦١ م . وهناك انعقد مجلس برئاسة قاضى القضاة الذى أشهد الحاضرين على صحة نسب أبى القاسم ، وأعلن خلافته . فبايعه الحاضرون بما فيهم نواب السلطان الظاهر بيبرس بمصر والشام . ثم قام الخليفة وقلد بيبرس السلطنة . وأصبحت الخطبة تلقى باسم الخليفة العباسى الجديد الذى لقب بالمستنصر . ودعا له فيها الخطباء على المنابر ، وبعده كانوا يدعون للسلطان الظاهر بيبرس . وهذا التقليد كان كسبا لبيبرس نفسه أمام آل أيوب الذين إدعوا أنه إغتصب السلطنة منهم . بل أكثر من هذا ما قاله النويرى في كتابه (نهاية الارب) من أن الخليفة قلد بيبرس مقاليد أمور حكم الولايات الاسلامية كلها . وما يضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ولما أعلنت الخلافة العباسية بالقاهرة ، وأصبح أول خليفة لها هو المستنصر بالله الذى تولاها عام ١٢٦١ م . أقام بيبرس حفلا كبيرا بهذه المناسبة قرب المطرية دعا إليه أمراء المماليك حيث خلع الخليفة عليه خلعة السلطنة . وهى عبارة عن جبة سوداء بطوق من الذهب وعمامة سوداء (شعار العباسيين) وسيف بداوى تمنطق به وفوق العمامة وضعت القبة والطير .

وبعد الاحتفال توجه الموكب ودخل من باب النصر وطاف بشوارع القاهرة إلى القلعة . وها هو بيبرس قد أصبح سلطانا على مصر والشام وديار بكر وما بين النهرين بشمال العراق واليمن والحجاز . وبدأ يشعر أن الخليفة قد أصبح قسيمه في الحكم . فأراد التخلص منه فأرسله على رأس جيش من المماليك إلي بغداد لتحريرها من المغول إلا أن الخليفة قتل وهو في الطريق . وعين خلفا له الحاكم بأمر الله عام ١٢٦٢ م . وجعله بالقاهرة تحت الرقابة بتحديد إقامته في منظرة الكبش بعيدا عن القلعة وجرده من سلطانه . وأصدق وصف للخليفة العباسى ما قاله المقريزى : لا أمر له ولا نهى . وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين . وكان بيبرس يعتبر نفسه قسيم أمير المؤمنين .

فكان الخليفة العباسى مجرد دمية بالقاهرة في أيدى السلطان المملوكى .

السلطان بيبرس :

كانت قصة بيبرس مع الصليبيين فى عام ١٢٦٣ م . عندما قام بهجوم موسع عليهم وكان الامير (هيو) الأنطاكى في قبرص يهم دائما لنجدتهم ، ثم قام بتوحيد مملكة القدس و قبرص في تاج واحد لهذا هاجم بيبرس قبرص عام ١٢٧٠ م . بأسطوله بقيادة ابن حسون الذى قام بدهان سفنه بالقار ثم علق عليها الصلبان لخداع القبارصة . لكن الاسطول المصرى تعرض لعاصفة شديدة عند ميناء ليما سول القبرصى فانقلبت مراكبه وانكشف أمره . فعادت لمصر ما بقى منه من مراكب . بعدها أرسل (هيو الأنطاكى) رسالة لبيبرس يشمت فيها منه لتحطيم أسطوله .(وكان بيبرس وقتها قد استولى من الصليبيين على حصن القرين) . فرد عليه الظاهر بيبرس قائلا كما يقول المقريزى : وما العجب وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح . وفي عام ١٢٧١ م . استطاع عقد هدنة مع الصليبيين ترك لهم ثلاثة مدن ساحلية فقط هي عكا وصيدا وطرابلس وقد حصرهم فيها . وتعاهد مع الدولة البيزنطية على عدم الاعتداء للتفرغ لمحاربة المغول التتار الذين باتوا يهددونه أيضا . ثم اتجه إلي بغداد عام ١٢٧١م وحررها من المغول وأعلن بها عودة الخلافة العباسية ونصب بها خليفة وأخذ يطهر جيوب المغول في العراق .

ومات بيبرس عام ١٢٧٧ م بعدما درأ مصر والعالم العربى من هجمات الصليبيين والمغول والبيزنطيين . ويعتبر المؤسس الحقيقى لامبراطورية المماليك كما يطلق عليها كتاب الغرب لأنها حكمت مصر والشام والحجاز واليمن وشمال العراق لأكثر من قرنين ونصف حتى أن جاء العثمانيون عام ١٥١٧ م . ولقد كان بيبرس قائدا ملهما وسياسيا بارعا وكانت نظريته في الحكم (ما يؤخذ سلما أخذه . وما يؤخذ حربا حارب بشجاعة) . لهذا كان يستغل الظروف السياسية بذكاء . فيكيف سياسته حسب ما تتيحه له هذه الظروف . فلما دب الخلاف بين المغول بعد إسلام (بركة خان) أمبراطور المغول القفجاق الذين كانوا يقطنون بين بحر قزوين ونهر الفولجا . استغل بيبرس هؤلاء المغول المسلمين فهبوا للانتقام من هولاكو لحرقه بغداد واستيلائه على الشام وديار المسلمين . لهذا نرى بيبرس يتحالف معهم ويتزوج إبنة بركة نفسه ويسمح للمغول المسلمين بالمجيء إلي مصر ليعيشوا بالقاهرة . وهذه المصاهرة جعلت بركة خان يحارب هولاكو . بعدها تفرغ بيبرس للصليبيين الذين حصرهم في شريط ساحلى في فلسطين بعدما طلبوا منه مراحم السلطان . وهم لم يرحموا المسلمين لحظة واحدة . وهذه الانتصارات البيبرسية جعلت من الظاهر

أسطورة شعبية يروى سيرتها القصاصون والأدباتية في كل عصر وأوان . وخلف الظاهر بيبرس إبنه الأكبر ، وهو إبنه من الخاتون بركة خان . ولقب بالملك السعيد نصير الدين بركة خان . وكان عمره ١٩ عاما فسيطرت عليه أمه الخاتون حتى أصبح ألعوبة في يديها . فأهملت قواد أبيه وسجنت بعضهم وسمّت البعض الآخر وهذا ما جعل المماليك يتمردون عليه وعلى أمه ، فحاصروا القلعة وعزلوه ونفوه إلى قلعة الكرك حتى مات ودفن بجوار أبيه بدمشق عام ١٢٨٠ م . وولى المماليك إبن بيبرس الصغير وكان عمره سبع سنوات وولاه الأمير قلاوون وتلقب بالعادل بدر الدين سلامش . وظل قلاوون أتابك العسكر وصيا عليه لمدة مائة يوم عزله بعدها . ليتولى السلطنة عام ١٢٧٩ م . وكان أكثر حظا من أستاذه بيبرس لأن السلطنة توارثها بيته لأكثر من مائة عام بعد وفاته عام ١٢٩٠ م . وقد حاول المغول عام ١٢٨١ م . الاستيلاء على الشام مستغلين التمرد على قلاوون هناك . لكنه هزم المغول قرب حمص وكانوا بقيادة (مانجو تيمور) شقيق الخان المغولى . وبهذا بعد عن الخطر من جهة المغول ، ووطد علاقاته بكل العالم الخارجى حتى سيلان التى أرسل إمبراطورها سفارة ومعها خطاب لم يستطع أحد بالقاهرة قراءته أو ترجمة ما جاء به . وشجع قلاوون التجارة الدولية عبر الأراضى المصرية . وفي عام ١٢٨٥ م . بات يسترد بقية المدن العربية من الصليبيين ثم استولى على أرمينية . وشن حملتين على النوبة ما بين عامى ١٢٨٧ و ١٢٨٩ م . فبهذا حافظ على هيبة السلطنة .

وأيام عصر المماليك ... كانت أرض مصر مملوكة لهم وموزعة بين أمرائهم وجنودهم . وكان يطلق على هذا النظام (الروك) السلطانى . ومن كان منهم لا يقوى على مباشرة أبعديته كان يمنح راتبا من بيت المال تعويضا له عن الأرض . وكان الروك يتغير مع تغيير السلطان حيث كان السلطان الجديد يعيد فيه توزيع الأرض على حاشيته وأتباعه .

والمماليك أثناء حكمهم أمنوا طرق القوافل العالمية التى كانت تمر بسلطنتهم ، وكانت الحروب تدور بينهم وبين الصليبيين في الشام ورغم هذه الحروب كان الطرفان حريصين على عدم تعرضهما للقوافل التجارية . وكان العرب يمرون بها من خلال معسكرات الصليبيين دون التعرض لها بسوء بل كانوا يحافظون على سلامتها حتى لا يغضبوا تجار البندقية وجنوا الذين كانوا يمونون حروبهم . فلم يضروهم في قوافلهم التجارية التى كانت تفد إلى مصر . لهذا نجد القاهرة كما يقول الدكتور سعيد عاشور أستاذ التاريخ .... قد (غدت ثقل السياسة العالمية في عصر سلاطين المماليك ومحور العلاقات بين العالمين الاسلامى وغير الاسلامى . وكانت القاهرة عاصمة

المال حيث كانت تحدد فيها أسعار العملات والسلع والغلات ذات القيمة العالمية سواء من حاصلات في الشرق أو انتاج الغرب) . ولهذا نجد القاهرة كانت سوق للتجارة وكان الدينار المصرى هو العملة الدولية للتجارة وقتها . وأصبحت مصر بعد سقوط بغداد مركز الحضارة والقوة العسكرية الاسلامية طوال العصر المملوكى .

و كانت بلاد الشام تابعة لمصر فى العصر المملوكى حتى العصر العثمانى . وكان السفر إليها يبدأ من مدينة دمياط التى كانت تعتبر مدينة حرة لا يخرج منها الشخص إلا بعد دفع الخراج الذى كان يعطى صك به للمسافر يقدمه إلي نقاط الحراسة للسماح له بالمرور أو يوضع له علامة مميزة على ذراعه تفيد الدفع وتعتبر كجواز للمرور . وكان يوجد بين العريش ودمياط ديوان التفتيش وكان يعتبر منطقة جمركية حيث يقوم العمال به بتفتيش الأمتعة والبضائع التى كانوا يحصلون المكوس عليها من المسافرين ، ويمنحونهم صكا بها يجيز لهم المرور على النقاط التالية على طريق رحلتهم إلي الديار الفلسطينية والشامية . والمماليك لتشجيع التجارة الدولية أعفوا الأجانب من الضرائب . وكانت نقاط التفتيش تدقق في هوية المسافرين ، حتى لا يندس بينهم مغول أو صليبيون . لأن أجزاء من الشام كانت محتلة أو مهددة من المغول والصليبيين . لكن معظمه كان يتبع السلطنة المملوكية بالقاهرة حيت كان حكامه نوابا للسلطان وكان نائب دمشق يتبعه أمراء حلب وطرابلس واللاذقية .

أما بلاد الحجاز فكانت تابعة لمصر وكان اليمن تحت حكم بنى رسول يخضع لنفوذ المماليك وكان بنو رسول يتبعهم ظفار وحضر موت وتهامة وعدن ، وهذه كانت بلدان تمر بها التجارة العالمية إلي البحر الأحمر ، لهذا كان المماليك يرسلون إلي أهلها الهدايا ليسترضوهم وليؤمنوا القوافل التجارية عبر مياههم الاقليمية . لذا كان السلاطين على علاقة طيبة بملوك اليمن وزعماء القبائل هناك . ولا سيما وأن التجارة إزدهرت أيام المماليك الذين كانوا يحظون باحترام المشرق الاسلامى حتى حدود الصين . وهذا الازدهار الاقتصادى جعل التجار الأجانب يفدون إلي الاسكندرية ودمياط ويفتحون وكالات تجارية ويكونون جاليات هناك ، بعدما هدأت الحروب الصليبية وبعدما استولى السلطان المملوكى أشرف خليل عام ١٢٩١ م . على مدينة عكا آخر معاقل الصليبيين . لكن البنادقة حاولوا إحتكار التجارة الدولية . فنراهم في عام ١٣٥٤ م أيام حكم السلطان شعبان يرسلون أسطول القبارصة ، فشن غاراته على رشيد وأبو قير والاسكندرية أيام الفيضان حتى لا تأتى قوات المماليك وتحاربهم ولا سيما وأن المدن الثلاثة كانت تعزلها مياهه

ونهب القبارصة الاسكندرية وذبحوا أهلها وأحرقوا مساجدها ونهبوها . وفي عام ١٣٦٥ م حاول أسطول البنادقة معاودة الهجوم ففشل ، لكن السلطان أشرف برسباى شن حملاته على قبرص بأسطوله في أعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م . وآخر حملة مصرية أسرت ملكها وعادت به مكبلا إلي القاهرة وسيّربه في شوارعها . وكان الملك هو جانوس الثاني الذى كان يهدد سواحل مصر ويغير عليها . وبهذا استطاع برسباى أن يؤمن طرق القوافل التجارية في البحرين الأبيض والأحمر ومنع السطو عليها في اليمن والحجاز . لكن ارتفاع المكوس والضرائب على البضائع (الترانزيت) عبر الموانىء والطرق المصرية رفع من السعر العالمى لها . وهذا أدى بالبنادقة إلي قطع علاقاتهم التجارية مع مصر . فلما لمح برسباى خطر الكساد الاقتصادى كما يقول الدكتور حسين مؤنس الذى بات يهدد موارده كف عن الاحتكار . وخفض المكوس وأطلق التجارة لكنه عاد فرفعها فكسدت ثانية .

الحضارة المملوكية :

يمتاز العصر المملوكى بالعمارة التى عرفت بالعمارة المملوكية في مصر والشام وفلسطين . ومازالت مدارسهم ومساجدهم وأسبلتهم نموذجا لفن عمارتهم وشاهدا حيا على عظمتهم .

وفي فترات سلاطينهم الضعاف كثرت المؤامرات بخلع أو قتل هؤلاء السلاطين . مما أضعف السلطنة وحط من نهضتها . فالأمير الأقوى كان بمماليكه يملك ويحكم ويعين حوله أهل الثقة متغاضيا عن أهل الخبرة . وهذا المفهوم السياسى لا يبعث أمة ولا يقيم حضارة . لأن أهل الثقة بلا كفاءة أو خبرة يجرون الخراب للبلاد ويفسدون أحوالها . فلذا كانت السلطنة في عهودهم نهبا ونهما لحكام الأقاليم ونواب السلطان في ولايات الشام . وهذا جر السلاطين إلي الصراعات مع أمرائهم الذين كانوا يوالون من يدفع أكثر أو الأقوى سلطانا و نفوذا . فساءت أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية والادارية . فلم يهتم المماليك سوى بما يحقق أطماعهم أو يكفل وجودهم وتسلطهم أو يبقى على سلطانهم ونفوذهم وهيبتهم بين أبناء جنسهم .

وفي غيبة حكم السلاطين العظام أصبح المماليك لا هم لهم سوى تحقيق مصالحهم الشخصية وزيادة نفوذهم واملاكهم . وانصرفوا عن الفروسية والحروب وأخذوا يمارسون التجارة فحققوا ثورات ضخمة حتى كان بعض الأمراء أكثر غنى من السلطان نفسه . فنجد أن بيت يلبغا (منظرة الكبش) كان يفوق قصر السلطان بالقلعة . فبعد خلع السلطان حسن عام ١٣٥١ م . وعودته عام ١٣٥٤ م . انتبه إلي هذه الحقيقة فقرر كما قال ابن تغربردى تكوين جيشه من

المصريين . فأمر كثيرا منهم على المماليك قائلا : مصلحة لى وللرعية والبلاد . فأما مصلحتى فانهم لا يخرجون عن طاعتى . ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك خوفا على أملاكهم وأرزاقهم . بخلاف المماليك فانهم لا رأسمال لهم في مملكة من المماليك . لكن يلبغا لم يمهله المماليك ليحقق حلمه فقتل عام ١٣٦١ م .

والعلاقة بين المصريين والمماليك وصفها إبن خلدون في (العبر) حيث بين أن من أسباب إضطراب أحوال مصر هو طغيان هؤلاء الأجلاب وكثرة عبثهم وتجاوزهم عن الشريعة . وكان العامة في كثير من الأحيان يقفون لهم بالمرصاد ويؤازرون السلطان . وكان المماليك يخشون ثورة المصريين الذين كانوا مؤيدين ومساندين للسلطان الأشرف شعبان ضد المماليك اليلبغاوية فقبضوا على يلبغا وسجنوه .

والسلاطين المماليك أول من تلقبوا بلقب (خادم الحرمين الشريفين) وقلدهم السلطان سليم العثمانى بعدما فتح مصر وقبض على الخليفة العباسى بها . وأخذه معه للآستانة . وتبعه في حمل هذا اللقب سلاطين العثمانيين بعدما آلت إليهم بلاد الحجاز وبعد القضاء على الحكم المملوكى هناك.

وبنظرة عامة على أحوال مصر الثقافية في العصر المملوكى . فبعد إحراق مكتبة بغداد وسقوط الخلافة العباسية أصبحت مصر تضطلع بمسئولية إحياء الثقافة الاسلامية والحفاظ على التراث الفكرى الاسلامى . فظهرت في العصر المملوكى الموسوعات الجامعة حيث جمع فيها كتابها كل العلوم التى كانت في كتب بغداد حتى لا تندثر . فظهرت كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة (الموسوعات الثقافية والدراسات الموضوعية) كصبح الأعشى ونهاية الارب ولسان العرب . وهذه الموسوعات المملوكية اتسمت بطريقة مصرية تختلف في كتابتها عن طريقة علماء بغداد . فالكتاب المصريون إعتنوا في كتاباتهم بالموضوع وقسموا الكتاب إلي أبواب وفصول وأطراف ومذاهب وجعلوا لكل مذهب وجوهه . هكذا قال الدكتور حمزة في مقدمة عرضه لكتاب (صبح الأعشى) للقلقشندى . وهذا المنهج في الكتابة يختلف عن منهج بغداد حيث كانت الكتب بها تجميعا لأشتات ومعلومات من هنا وهناك . ولا يوجد بينها روابط فكرية أو حتى موضوعية أو على حد تعبير الدكتور حمزة (بنيت على الفوضى) . لهذا ظهر في العصر المملوكى أعلام فطاحل ومؤرخون من الثقات أمثال العسقلانى وابن خلدون والقلقشندى والأسنوى والنويرى والسخاوى والمقريزى وابن إياس والسيوطى وغيرهم . ومع هؤلاء أعلام الشام حيث كان خاضعا للحكم

المملوكي . وهؤلاء لم تترجم أعمالهم إلى اللاتينية لتوقف حركة ترجمة التراث الاسلامي في الغرب ، ولو لحقوا عصر الترجمة الأوربية لنالوا شهرة إبن سينا وإبن رشد والغزالي والبيروني .

والقصر السلطاني كان يضم ديوان الإنشاء يقوم بكتابة الرسائل السلطانية ويقوم المترجمون به بترجمة الرسائل الواردة من الدول الاجنبية والرد عليها . وكان الديوان يقوم بكتابة نصوص المعاهدات والمهادنات ومراجعتها من الناحية الشرعية حتى لا تتعارض مع الشريعة وأحكام الدين ، وكان البريد السلطاني يتبع ديوان الانشاء وكان يشرف على أبراج الحمام الزاجل ومحطات الحمام على الطرق السلطانية . وكان يقوم بحفظ الرسائل والمكاتبات الرسمية .

والقاهرة أيام المماليك كانت مقسمة إلى حارات بكل حارة بوابة عليها بواب وخفير للحراسة وكان لكل حارة شيخ لفض المنازعات فيها . والحمامات العامة كانت منتشرة في أحيائها وبعضها كان ملحقا بالمساجد . أما أسواق القاهرة فالبضائع كانت تصلها من مصر القديمة أو روض الفرج بالمراكب لتنقلها الجمال على ظهورها إلى الاسواق . وكانت وسيلة الانتقال داخل شوارع القاهرة بالحمير وكانت وكالاتها منتشرة حول الأسواق وفي مداخلها . وكانت توجد مواقف إنتظار الحمير في كل الاحياء لتأجيرها . والتعريفة كانت محددة حسب المشوار لترتفع في المواسم والاعياد . وفي ليالي الصيف ورمضان كان الأهالي يجلسون على المصاطب بجوار البيوت ويأكلون عليها ويسهرون .

وكان المحتسب بالقاهرة كوزير للتموين وكانت سلطاته واسعة لمراقبة الأسواق ونظافتها . كما كان يقوم بمراقبة الأسعار بها وفحص البضائع والسلع لمراقبة جودة صناعتها فاشتهرت المصنوعات المصرية بالجودة والمتانة والدقة وعدم الغش فيها . وكان شعار صنع في مصر كفيلا بترويج المصنوعات في أوربا بلامنافسة لذا غزت الأسواق الغربية وازدهرت الصنعة والصناعة لهذا السبب . وكان يقوم بمعايرة الموازين والمكاييل للتاكد من صلاحيتها . كما كان يفتش على السقائين ويتاكد من نظافة قربهم وعدم خلطهم المياه النيلية بمياه الآبار والتزامهم بأخذ المياه من المردات (موردات) التى حددها لهم والممنوع نزول البهائم للشرب منها . وكان السقاء ملزما بتغطية القرب بسعف النخيل حتى لا تبتل ملابس المارة بملامستها . وكان السقاؤن مكلفين برش الشوارع يوميا بالصيف ونقل المياه لاطفاء الحرائق . وكان مشهودا لهم بالأمانة وحسن الخلق لأنهم كانوا يدخلون البيوت ويكشفون عوراتها . وكانوا يضعون علامات مميزة على كل بيت لبيان عدد القرب التى نقلوها . وكان المحتسب يقوم - أيضا - بالتفتيش على المطاعم العامة والحمامات والأسلبة

للتاكد من نظافتها . ويسير في الشوارع لإزالة إشغالات الطرق من المصاطب والبضائع . كما كان يفتش على المدارس والكتاتيب وكان تفتيشه مستمرا على الورش لمراقبة جودة مشغولاتها ومصنوعاتها . واشتهرت صناعة المشربيات في نوافذ البيوت لمداراة عوراتها من الداخل . وتفنن الصناع المصريون في صناعتها وتعشيقها . لكن في أواخر عصر المماليك أصبح المحتسبون مرتشين ودب فيهم الفساد وخربت ذممهم فتهاونوا . فانحدرت الصناعة وفسدت الأسواق وتفشى الغش في السلع والمؤن . فاستغنت أوربا عن إستيراد المصنوعات المصرية ولاسيما الطنافس والستائر المخملية التي كانت قد اشتهرت مصر بصناعتها وكانت تزين بها الكنائس والقصور هناك رغم ما كان عليها من آيات قرآنية . ولما انحدرت صناعتها أخذت أوربا تقلد صناعتها وعليها الآيات القرآنية والزخارف الاسلامية الجميلة .

واشتهرت مصر بالكفت وهو صناعة التكفيت بتطعيم النحاس بأسلاك من الذهب أو الفضة بملء الشقوق في النحاس بهذه الاسلاك . وكانت الزخرفة عبارة عن التوريق بروسومات نباتية . وقد أخذ المصريون هذا الفن عن أهل الموصل وبرعوا فيه وطوروه . وكان النحاس المكفت له ورشا خاصة اشتهرت بصناعته ، كما كانت الفضة المكفتة بالذهب لها شهرتها العالمية . وحذق الصناع المصريون فن تطعيم الخشب بالأبنوس والعاج والصدف . وكانت العروس تجهز بدكة من الخشب المطعم بالصدف أو العاج المكفت بالنحاس . وكان يوضع عليها الدست من النحاس أو الفضة المكفتة .

وإبان العصر المملوكى كانت صناعة الخزف منتشرة بمصر ، وكان مشهورا ببريقه اللامع (التزجيج) . وكان الصناع أيام الفاطميين قد أدخلوا على صناعته الروسومات . وكانت صناعة المعادن شائعة حيث كان يصنع التماثيل من المعادن والشمعدانات والحلى المزخرفة والمطعمة بالمينا التى إشتهرت بها الصناعة المصرية . وبعدما داهم التتار بغداد هج الصناع من العراق وايران إلي مصر وأدخلوا صناعة تكفيت المعادن ، وكانت بلاد الموصل بالعراق مشهورة بها . وأدخلوا صناعة الحفر على الخشب وتصفيحه بالنحاس ولا سيما بالبوابات . كما أخذوا يحفرون وينقرون الخشب ويزينوه بالتوريق وروسومات الحيوانات والطيور والكتابة عليه بالنقر والحفر أو بالتصفيح . كما أدخلوا صناعة التنانير النحاسية المخرمة والمزخرفة لتوضع بها القناديل . وكانوا يصنعون العلب المطهمة لحفظ القرآن والمجوهرات .

وفي القاهرة كان يوجد سوق القفصيات حيث كان يباع به الأحجار الكريمة والأساور

والحلى والخلاخيل ، وكان البائعون يضعونها في أقفاص من الحديد المشبك ليسهل على الزبائن رؤيتها . وسوق القفصيات هو سوق الصاغة حاليا . وكان يوجد سوق اللحميين تصنع به الأخفاف الملونة التى كان يلبسها السلطان والأمراء ، أما العلماء فكانوا يلبسون الأخفاف السوداء من الجلد البلغارى حفاظا على وقارهم . وكان يصنع بالسوق السروج المطهمة وأدوات اللجم للخيول والبغال والحمير .

وفي فترات إنحطاط الحكم المملوكى إبتدع المماليك موردا للمال أطلقوا عليه ضمان الغوانى أو المغانى . فلقد كانوا نهمين لجمع الأموال بأي وسيلة فاتجهوا إلي العهر . وهذا الضمان هو ضريبة تدفعها الضامنة عن البغايا التابعين لها في نظير حماية عهرهن . فكانت المومس تدفع أموالا للضامنة في نظير أن تضمنها بتسجيل إسمها عندها ، بعدها لا يقوى أي شخص في الدولة على التعرض إليها بعد دفعها هذا الضمان . وكانت الضامنة هى التى تقدر هذه الرسوم وكان لا يقام أى فرح في مصر إلا بعد دفع هذا الضمان لضامنة الناحية وإلا فض الفرح ولحق صاحبه الأذى . وكان للضامنة سلطة قوية على المواطنين ، فلو دخل شخص بطريق الخطأ أو الصدفة حارة البغايا فلابد أن يزنى بامرأة مومس ويدفع الرسوم المقررة ، وإذا رفض يدفع رسوما مضاعفة تحددها الضامنة ليفتدى بها نفسه . وكانت حارات البغايا منتشرة في الأرياف يمارس فيها البغاء علانية . والمومس كانت لا تغادر الحارة لزيارة أهلها إلا بتصريح من الضامنة التى بين لنا المقريزى سلطاتها في قوله : فلو خرجت أجل إمرأة في مصر تريد البغاء حتى نزل إسمها عند الضامنة . لما قدر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة . وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن أو خضبت يدهن بالحناء أو أراد شخص عمل فرح أو نفست إمرأة بلا إذن من الضامنة حل بها بلاء لا يوصف . لأن الضامنة تعتبر جابية لضرائب المماليك وكان البغاء من أكبر مصادرها . ويدل هذا على التردى الذى وصلت إليه الأحوال بمصر .

ولقد ألغى السلطان الأشرف أبو المعالى عام ١٣٧٧ م . هذا الضمان وكان لقراره وقع طيب لدى القضاة والمشايخ بل ولدى المصريين جميعا . وأصدق وصف للبغاء في مصر وقتها ما قاله المقريزى من أن البغايا أصبحن يقفن بلا حياء أو خشية في أسواق القاهرة ومدن الوجه البحرى والصعيد تحت حماية الضامنات والشرطة . وهذا البغاء كان قد ظهر في أواخر العصر الأيوبى إلي أن جاء الظاهر بيبرس فمنعه نهائيا وأرغم البغايا وقتها على الزواج . وأنشأت إبنته تركان خان دارا للنسوة المطلقات والأيتام في رباط البغدادية قرب شارع أمير الجيوش بالقاهرة

عام ١٢٨٥ م . وهذه الدار خصصتها لسكناهن لرعايتهن حتى يتزوجن . وكانت تنفق عليها . ووكلت إدارتها لنسوة مشهودا لهن بحسن السمعة . وجمع بيبرس البغايا وحبسهن حتى يتزوجن. وأراق الخمور ومنعها من الأسواق وألغى معاصر العنب . بعدها رخص سعره كثيرا . وبعد بيبرس عاد البغاء ثانية مما جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلغى ضمان غوانى عام ١٣٠٩ م . وألغى معه البغاء ومنع أى ضرائب تجلب مما يخالف الشرع كالفحش والخمور . وألغى الضريبة التى كانت تفرض على كل شخص ينزل بخان البغايا .

ظهـــور المـــاليك الشـــراكســة :

استطاع الأمير برقوق القضاء على سلطنة بيت قلاوون بمساعدة المماليك الشراكسة أبناء جنسه بعدما ضاقوا بسلطنة الصغار كما يقول إبن خلدون . فلما ساءت أحوال البلاد جمع برقوق الخليفة المتوكل العباسى والقضاة والمشايخ ومعهم الشيخ البلقينى شيخ الأزهر وتباحثوا في الأحوال المتردية ولا سيما وأن عرب الصعيد وبدو الشام قد تمردوا مطالبين بحكم عربى وإنشاء مملكة عربية منهم في مصر والشام وعلى هذا فالسلطنة محتاجة إلي شخصية قوية أو على حد قول العينى في (عقد الجمان) : سلطان يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام . فأعلنوا عزل السلطان الصبى أمير حجى عام ١٣٨٢ م . وأخذه أميران من المؤتمر بعدما أخذوا منه شارة السلطنة وأدخلاه عند الحريم وولوا برقوقا وكانت توليته قد تمت أثناء الظهيرة لهذا لقبه الشيخ البلقينى بالظاهر . وبعد عدة شهور حاول برقوق التخلص من الخليفة العباسى لأنه تآمر ضده إلا أن القضاة أفتوا بأن الخليفة له حق تعيين بدلا منه لأنه ولى الأمر شرعا . وفي القاهرة قابل السلطان برقوق أربعة من فقهاء الشام جاؤا إليها وقد أرسلهم المماليك الأتراك هناك ومعهم فتوى بعدم أحقيته وأهليته بالولاية والسلطنة . وأفتوه ببطلانها لأنه ليس عربيا قرشيا فلا يحق له ولاية المسلمين والقيام بأمورهم . فقبض عليهم وعذبهم وزج بهم في السجن . وهذه الدعوة ظهرت في عهده لأول مرة في مصر التى حكمها الطولونيون والاخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك وكلهم لم يكونوا عربا . لكن تمرد العربان في بوادى الشام وصعيد مصر قواهم فادعوا هذا الحق { ولا سيما عندما أعلن الشريف حسين بالحجاز الخلافة الهاشمية عام ١٩١٨ } .

وبدأ عهد السلطان برقوق بالفتن والثورات ضده وكان يستميل مماليكه بالأموال تارة والبكاء أمامهم تارة أخرى . وكان المصريون قد ثاروا أيضا ضده . لأنهم باتوا لا يثقون فيه ،

وكان يسير في الشوارع يستجدى عطف الأهالى ويجذبهم إليه بالبكاء كما يقول المقريزى . ولم ينقذه من هذا سوى تفشى الطاعون ، فانشغل الناس بدفن موتاهم لكن المماليك خلعوه . ثم عاد إلي السلطنة عام ١٣٩٠ م. واستقبله الشعب إستقبالا حافلا وخرج الأهالى عن بكرة أبيهم إلي مشارف القاهرة حاملين القرآن والانجيل والتوراة ليستقبلوه . وكان هذا بداية قيام الدولة المملوكية الثانية .

السلطان برقوق :

كان السلطان برقوق متعلما ومتدينا وذا شخصية قيادية . كما كان يجيد فنون الحرب والقتال . وكان ظهور الدولة التيمورية المغولية متزامنا مع بداية دولة المماليك الثانية . وكان تيمور لنك (الاعرج) قد استولى على بلاد ما وراء النهر وأعلن مدينة سمر قند عاصمة لامبراطوريته . مما جعل المماليك في مصر والشام يخشون الخطر المغولى بعد إستيلائه على تبريز (إيران الأن) عام ١٣٨٦ م. ومحاولته الاستيلاء على مارد ين على حدود السلطنة المملوكية . إلا أنه خشى قوة المماليك فاحجم عن التوسع في هذه المنطقة . وبعد عامين انسحب من تبريز . وهذا جعل حاكمها يتودد للسلطان برقوق ويضرب السكة (النقود) ويعلن الخطبة باسمه وأصبح نائبا عن السلطان برقوق هناك . وبهذا أصبحت تبريز تابعة لمصر لأول مرة .

أما الأحباش فتوالت هجماتهم على أسوان ما بين عامى ١٣٨١ م و ١٤١١ م . مما جعل السلطان برقوق يستدعى البطريرك القبطى (متاؤس) ويكلفه بارسال مبعوث عنه يصاحبه واحد من القضاة إلى نجاشى الحبشة داود بن يوسف . وأرسل معهما رسالة مطولة يستنكر فيها الهجوم على أسوان وطالبه بالعودة إلي بلاده والكف عن أذى المسلمين الأحباش . فاستجاب النجاشى لهذه السفارة متوددا للسلطان برقوق وكف عن تهديداته بتحويل مجرى النيل بالحبشة لمنع الفيضان عن مصر . ولهذا كانت العلاقات ودية بين مصر والحبشة طوال عصر الدولة المملوكية الثانية . أما العربان فواجه برقوق تمردهم وعصيانهم في الصعيد والدلتا وأخمدهم وألحقهم بجيشه ليتقى شرهم ويتخلص منهم في حروبه ويشغلهم عنه .

وفي عام ١٣٩٣ م . قام تيمور لنك بالاستيلاء على بغداد وقضى على حكم الجلاير بها وهذا جعل السلطان برقوق يقوم بتحصين الجبهة الشرقية المتاخمة لحدود العراق . وكان تيمور يلاحقه برسائله التى يهدده فيها . وكان رد برقوق عليه بتمزيق الرسائل وقطع رؤوس السفراء . فشن تيمور هجوما على ولاية الرها المملوكية فشل فيه . بعدها جهز برقوق جيشا عام ١٣٩٤ م .

أسهم فيه وجهزه التجار المصريون لرد هذا الخطر المغولي . وتحاشى تيمور دخول معارك مع المماليك فترك بغداد لابنه مران شاه واتجه إلي الهند متحاشيا المواجهة مع الجيش المصرى . وأرسل برقوق جيشه لتحرير بغداد وأعاد بها حكم الجلاير وعين أحمد بن باديس الجلائرى نائبا عنه هناك . وظلت بغداد ولاية مملوكية حتى وفاة السلطان برقوق وبعد خمس سنوات من حكم المماليك لها إستردها تيمورلنك عام ١٣٩٩ م .

ومن أخطاء السلطان برقوق التوسع في جلب المماليك الشراكسة أبناء جنسه وتكالبه على شرائهم مما رفع أسعارهم في أسواق النخاسة . وهؤلاء المماليك كانوا يجلبون بالغين وكبارا في السن مما كان يصعب تدريبهم أو تأهيلهم عسكريا أو تطويعهم على الولاء الكامل له . عكس العصر المملوكى السابق كان المماليك فيه يجلبون أطفالا ويربون على الطاعة العمياء والولاء التام لاستاذهم السلطان . وكانوا مماليك جلابة من كل لون وجنس حتى يسهل تسييسهم وقيادتهم . وقد لفتت خوند الكبرى نظر زوجها برقوق إلي هذه النظرية حيث قالت له : إجعل من عسكرك أبلق من أربعة أجناس . تترو جركس وروم وتركمان . تستريح أنت وذريتك . فتعدد أجناس المماليك كان يحقق التوازن في سلوكهم والتنافس فيما بينهم . فلا يتمردون على السلطان عملا بالمثل (فرق تسد) . فلو وحد جنسهم سادوا عليه . لكن وقت النصيحة فات ، لأن الشراكسة كانوا يستحوزون على كل شيء في السلطنة ولا سيما بعد السماح لهم بترك القلعة وسكنى القاهرة كما يقول المقريزى : فنزلوا من الطباق بالقلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلي البطالة ونسوا تلك العوائد . ولهذا لم يطبعوا على الطاعة كما فعل قلاوون . ولما خلف فرج إبن برقوق أباه وكانت أمه رومية . فنراه يقرب الروم من المماليك . واستبعد الشراكسة أبناء جلدة أبيه وكانوا الأغلبية في جيش السلطنة . فدخل معهم في صراع دموى حتى قضى على معظمهم مما أضعف من قوته العسكرية .

ظهور العثمانيين :

كان البحر الأحمر أيام العصر المملوكى له إستراتيجية بحرية لدى المماليك . ولا سيما عندما حاول البرتغاليون الاغارة على السفن العربية في جنوب البحر الأحمر . وهذا ما جعل قانصوه الغورى يتحالف مع البنادقة الذين كان البرتغاليون ينافسونهم في السيطرة على التجارة العالمية بأوربا . فأوعز القانصوه بأن يرسل رسالة تهديد لبابا روما ليضغط على البرتغاليين بالكف عن شن غاراتهم البحرية وإذا لم يفعل سيقتل المسيحيين بفلسطين والشام ويهدم كنيسة القيامة هناك .

لكن قانصو لم ينفذ تهديده بعد ما بنى أسطولا بمعاونة سلاطين العرب بعدن واليمن والحجاز وجنوب الجزيرة . وهذا الاسطول انتصر بقيادة حسن الكردى على ابن البرتغاليين ولاحقهم حتى بومباى عام ١٥٠٨ م . حيث تصدت له السفن البرتغالية وهزمته في معركة (ديو) بالمحيط الهندى . إلا أن البرتغاليين حاولوا معاودة هجومهم على مصر من البحر الأحمر عام ١٥٤١م . لكن العثمانيين كانوا قد استولوا على مصر . فارسلوا أسطولا بقيادة سلمان الرومى وهزمهم عند مصوع وكانوا في طريقهم إلي السويس بقيادة إبنى فاسكو دى جاما (استيفانو وكريستافو) .

* * * * * *

* * *

* *

*

الإ فــــول

في مطلع القرن الـ ١٦ أصبح الصراع في الشرق الأسلامي يدور بين دولة الصفويين الشيعة في تبريز بايران والعثمانيين في القسطنطينية والمماليك بالقاهرة . لكن كان موقف القاهرة هو الترقب لما يدور على الساحة السياسية ، لأن الصراع كان على أشده بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة . واستطاع الشاه إسماعيل الصفوى إستمالة الأوزبك والتركمان في شمال فارس وهؤلاء سنة . كما تحالف مع المماليك في القاهرة وهم أيضا سنة . وهذا التحالف الشيعى السنى أزعج السلطان سليم الأول . فنراه يستولى على آلبستان عند منابع الفرات وكانت تابعة للدولة المملوكية بالقاهرة وكان إستيلاؤه عليها مؤقتا حتى يصل لنجدة الاكراد من الخطر الصفوى . فهزم الصفويين في معركة كاليدران على حدود الدولة المملوكية . وبعدها خلص الاكراد من الصفويين واتجه مستوليا على كردستان والموصل وتبريز عاصمة الصفويين . وترك سليم الاكراد يحكمون إقليم كردستان والموصل وديار بكر وهذه كلها أراض كردية سنية ولم يضمها إلي الدولة العثمانية وانسحب من آلبستان المملوكية بعدما حقق الغرض من الغزو . كل هذا جعل قانصوه الغورى يتوجه بجيشه إلي دمشق ليرقب الأحداث عن كثب . وخلف نائبه طومنباى بالقاهرة . وأرسل سليم إلي قانصوه سفراء للتفاوض على عقد معاهدة تحالف فيما بينهما لكن قانصوه رفضها ، وأهان رسله ، بل طردهم ردا على سليم الذى اعتدى على إمارة آلبستان المملوكية واتخذ منها معبرا للوصول إلى الصفويين حلفاء قانصوه . وأراد سليم تأديب قانصوه في الشام . فأشاع أنه حامى الاسلام ومدافع عن أهل السنة وهذه الدعاية العثمانية أثرت في قوات المماليك فانشقت على قانصوه وهو في مواجهة قوات سليم في مرج دابق عام ١٥١٦ م . حيث قتل قانصوه وانسحبت قواته . بعدها إستولى سليم على حلب وأعلنت فيها الخطبة باسمه . وكان أول مرة تعلن الخطبة باسم سلطان عثمانى في العالم العربى . وبعد إنهيار الشام أصبح الطريق أمام قوات سليم مفتوحا إلي القاهرة بعد إنهيار الحلف الصفوى المملوكى . ووصل سليم إلى غزة وحاول طومنباى التصدى له لكنه هزم . وكان سليم سيتوقف عندها ، فلم يكن في نيته الوصول للقاهرة إلا أن خيرى بك الذى كان مستشاره في حربه ضد المماليك أشار عليه بدخولها . وكان خيرى من المماليك الترك أنشق وتمرد على قانصوه ولجأ إلى القسطنطينية . فدخل الجيش العثمانى القاهرة في ٢٣ يناير ١٥١٧ م . وكان يومها المصريون يحتفلون بيوم الهجرة وكان يوم

الجمعة . وفجأة دهشوا عندما أعلن الخطيب اسم سليم العثمانى معلنا سقوط الخلافة العباسية بمصر . وأعدم طومنباى على باب زويلة بعده انتزع العثمانيون إستقلال مصر منذ عهد الدولة الطولونية . واصبحت ولاية عثمانية تابعة للأستانة . وأصدق وصف ما قاله الدكتور حسين مؤنس من أن العرب لما فتحوا مصر كانت ولاية بيزنطية تابعة للقسطنطينية ولما فتحها العثمانيون جعلوها ولاية عثمانية تابعة للقسطنطينية (الآستانة) . وكما عانت مصر التخلف أيام تبعيتها لها أيام البيزنطيين . عانت مصر - أيضا - من هذا التخلف في تبعيتها الثانية لها أيام العثمانيين .

الحكم العثمانى لمصر :

كانت مصر مركزا للتجارة العالمية حتى عام ١٤٩٦ م عندما اكتشف (فاسكودى جاما) طريق رأس الرجاء الصالح ففتح طريقا جديدا لنقل التجارة الهندية والشرق أقصية بعيدا عن مصر ولاسيما تجارة التوابل والأفاوية . ومما ساعد - أيضا - على تدهور هذه التجارة العالمية في مصر دخول العثمانيين بها بعدها بحوالى ٢١ عاما وأخذوا يراقبون السفن التجارية البندقية وجنوا . وأخذ الاتراك يشجعون الأوربيين على نقل التجارة العالمية عبر أراضيهم فسهلوا للقوافل التجارية العبور بمعابرها مستغلة موانيها في آسيا الصغرى ولا سيما بمدينة بورصة (بروسة) .

ومما ساعد - أيضا - على تدهور أحوال البلاد أن السلطان سليم بعد احتلاله لمصر - كما يقول إبن إياس - عند رجوعه لبلاده أخذ معه الصناع المهرة ونهب ذهب مصر وفضتها واستولى على أسلحتها وتحفها وخيولها وبغالها . فبطلت في مصر خمسون صناعة حيوية وتعطل أصحابها عن العمل لندرة الصناع . وهؤلاء المصريون الحرفيون بعدما علموا الاتراك فنون صناعاتهم وبنوا القصور المنفية للعثمانيين وشيدوا المساجد طردهم السلطان سليمان (القانونى) لما خلف أباه سليم فأصدر فرمانا عام ١٥٢١ م . حيث أمر بطردهم شر طردة من تركيا وهدد من يتخلف منهم بالاعدام . فهج المصريون ومنهم من لجأ للبلاد الشامية وآخرون قد قضى نحبهم في طريق العودة ومن وصل للديار المصرية كان حطاما من قسوة رحلة العودة إلي الوطن . ولما وصلوا رأوا بلادهم قد داهمها الخراب والشعب لا حول له ولا قوة يلعن حكامه وينعى الزمن الأغبر.

وكانت الدولة المملوكية تحكم مصر والشام وبلاد الحجاز واليمن . وكل هذه الدول إنفصلت عنها . حتى قبرص التى كانت تخضع لها آلت تبعيتها للدولة العثمانية بعد الغزو العثمانى لمصر . وأصبحت مصر ولاية تابعة بعدما كان سلطانها يمتد للبحرين الأحمر والأبيض طوال عدة قرون .

ودفعت إستقلالها ثمنا لضيق أفق السلطان قانصوه الذى إنصاع وراء الشيعة الفرس متخليا عن العثمانيين السنة . فخسر ملكه وحياته معا . وتناسى قانصوه أن بيازيد الثانى العثمانى قد سانده عندما أرسل له الأخشاب والمعدات لانشاء الاسطول المصرى لمواجهة الغزو البرتغالى في البحر الأحمر . وأرسل هذا الدعم العسكرى البحرى بلا مقابل للدفاع عن الإسلام ضد البرتغاليين الصليبيين . وفى عام ١٥١٥ م أرسل سليم أسطوله لمساندة القوات المصرية في حربها ضد الاسطول البرتغالى .

لكن الصفويين خدعوا قانصوه وتخلوا عنه تماما . لأن مخططهم كان التخلص من النفوذ العثمانى أولا ثم ينقلبون على مصر . ولم ينتبه قانصوه إلي هذا المخطط الشيعى وانساق فيه حتى جر البلاد إلي الاحتلال العثمانى الذى ظل يجثم فوقها منذ ١٥١٧ م . حتى ١٩١٤ م . وهذه القرون الأربعة كانت كافية للقضاء على كل مظاهر العمران والتقدم الاقتصادى والفكرى في الميراث المملوكى سواء في مصر والشام والحجاز واليمن . مما أصاب هذه الدول بالتخلف والانحطاط في شتى المجالات . وهذا ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وعين سليم المملوك التركى خيرى بك فى مصر كنائب للسلطان بالآستانة . لأنه إعتبر مصر إقطاعية وليست ولاية عثمانية . وترك معه حامية من الانكشارية والأزبان والسباهى والتفنكشية والمتفرقة والقبوجان يعاونها المماليك الشراكسة . وأخذ خيرى بك يسلك كأنه سلطان مملوكى فلقب نفسه بملك الأمراء . وأبقى على نظام الادارة المملوكية . وعين له نوابا بالأقاليم أطلق عليهم الكشافين وكلهم من المماليك . وترك شئون قبائل البدو لمشايخهم الذين كانوا شبه مستقلين بالصعيد ليحكمه حاكم من العرب الهوارة . وأثناء هذه الفترة الانتقالية إنقطعت قوافل الحج لمدة ثلاث سنوات . وأصبح قانصوه الغورى وطومنباى أسطورة شعبية لدى المصريين حيث تروى سيرتهما في منتدياتهم ومجالسهم . وأعتبرا في التراث الشعبى بطلين حاربا ببسالة العثمانيين .

وبعد وفاة خيرى بك أصبح نائب السلطان عثمانيا فتعين عثمان باشا مصطفى . وبعد وفاة سليم الأول تمرد عليه الكشافون في أقاليم البهنسا والفيوم والغربية قائلين : مات سليم وإن إبنه صبى صغير فلو أتى ليحاربنا سنحطمه . فلن نترك هذه المملكة للتركمان العثمانيين الذين لا يعرفون حرب الفروسية . وقضى الوالى عثمان باشا على هذا التمرد المملوكى بصعوبة .

وفي عام ١٥٢٣ م . تولى أحمد باشا إقطاعية مصر وأعلن إستقلاله عن الدولة العثمانية وقضى على الجنود الانكشارية وأعدم قائدهم وأعلن الخطبة باسمه في كل مساجد مصر . وسك

النقود أيضا باسمه وكون جيشا من فلول المماليك وبقايا العباسيين والانكشارية . وبايعه القضاة الأربعة عام ١٥٢٤ م . وتحالف مع الصفويين الشيعة بفارس عن طريق أحد دعاتهم بالقاهرة . إلا أنه أعدم بمؤامرة ضده وأصبح يطلق عليه في التاريخ العثماني أحمد باشا الخائن .

والدولة العثمانية في كل ولايتها كانت سيئة السمعة . لأن ولاتها كانوا يعينون بالرشوة والمحسوبية . وكان الباب العالى بالأستانة يعيد تجديد تعيينهم سنويا . والتجديد معناه إعادة شراء المنصب لدرجة بعض الدول الاجنبية كانت تدفع للوالى أموال الشراء ليبقى في الولاية وليعاونها في تحقيق مصالحها . وبهذا الاسلوب الملتوى أصبح لبعض الدول الاجنبية نفوذها الداخلى في معظم الولايات العثمانية . وكانت ولاية مصر لمن يدفع أعلى سعرا كرشوة للصدر الأعظم (رئيس وزراء الباب العالى) . وبالطبع كانت الهدايا والرشاوى تقدم إلي حاشية السلطان بالقصر العثمانى لاصدار الفرمان والتصديق على ترشيح الصدر الأعظم للولاة . لهذا كان الولاة يجمعون الأموال بشتى الطرق وتفننوا في إغتصابها حتى يعوضوا ما دفعوه من الإتاوة السنوية ليصلهم فرمان التجديد . والمطالع ليوميات الجبرتى سيجد فيها قصة تعيين أحد الولاة بمصر . فذكر قصة المملوك محمد بك أبو شنب عندما حمل صرة أموال الضرائب من مصر إلي الأستانة . وكان قد قدم عند وصوله رشوة إلي الصدر الأعظم مقدراها أربعة آلاف كيس . بعدها شوه صورة المماليك عنده واتهمهم بالتآمر ضد السلطان للاستقلال بمصر مستغلين ضعف الوالى الذى يتآمر معهم . فعاد أبو شنب وبصحبته وال جديد معه فرمان التعيين . وكانت لدى الوالى الجديد تعليمات بقتل الوالى المخلوع . فقتله وأرسل رأسه إلي الأستانة .

وفي القرن الـ ١٨ أصبح الوالى العثمانى في مصر لا يملك فيها سوى لقبه (الباشا) . وأصبحت أمور البلاد في أيدى المماليك البكوات (الباشوات) . وهؤلاء كانوا جميعا من الشراكسة . وكأن قدر مصر أن يحكمها الأتراك الجلابة منذ الحكم الطولونى عام ٨٦٨ م . حتى عام ١٩٥٣ م . أي حوالى إحدى عشر قرنا وهذه أطول فترة قطعتها مصر في تاريخها الاسلامى . حكمها الفاطميون خلالها ما بين عامى ٩٦٩ م و ١١٧١ م . والأيوبيون من عام ١١٦٩ م . حتى ١٢٥٢ م ورغم هذا كان المماليك الأتراك لهم نفوذهم في جيشى الفاطميين والأيوبيين . وإذا كان من بين هؤلاء الاتراك سلاطين وحكام عظام إلا أنهم في جملتهم كانوا نقمة على مصر . ولا سيما أيام الدولة العثمانية بعدما أصبح بأيديهم الأمر والنهى . فكانوا يهلكون الفلاحين في أراضيهم كما كانوا يولون أشرار الناس بيت المال . فعلاوة على الضرائب الفاحشة فرضوا على المصريين

جعلا لهم شهريا .

والدولة العثمانية أصبحت تدار بواسطة الحريم السلطاني وكان السلطان دمية . فأصبح ولاء كبار رجالها لهن قبل أن يكون الولاء للسلطان فالعثمانيون كما يقول (ساكس) قد ورثوا بعد فتحهم للقسطنطينية مفاسد البيزنطيين ولا سيما لما أبقوا على الخصيان وخدم وحراس القصور . وكان معظم هؤلاء من الجواسيس والمرتشين والقوادين . فلقد أضاع العثمانيون كنزا وورثوا أوبئة بيزنطة . فكان نظام الحريم السلطاني من أهم الأسباب التى نخرت في كيان الدولة العثمانية الفتية . فترهلت وراء جدران قصورها بالقسطنطينية بين أحضان الجوارى . فزجت أوربا بجواريها في عقر قصور السلاطين العثمانيين ليتجسسن عليهم ويتآمرن ضدهم . فبهذا الأسلوب كانت تدار مصر من الآستانة .

التصوف فى العصر العثمانى :

فى العصر العثمانى لعب التصوف دورا إجتماعيا وسياسيا ودينيا رئيسيا في مصر . فلقد تحول من الذكر لله والعبادة كما كان في العصر المملوكى إلي البدع والدجل والشعوذة مما كان لهذا أثره الخطير على المجتمع المصرى . فانتشرت الطرق الصوفية كالوباء في شتى أنحاء البلاد . وكلها كانت تروج الجهل حيث حرم متصوفة العصر العثمانى تلقى العلوم على يد مدرس أو فى كتّاب . وكان المتصوفون يعيشون في رفاهية مع زوجاتهم وأبنائهم بعدما كانوا يعيشون إبان الأيوبيين والمماليك عيشة الزهد . وانتشرت الزوايا والتكايا والخانقهات و كانت لها أوقافها الكثيرة التى أوقفها هؤلاء الايوبيون والمماليك عليها . لهذا كانت هذه الأموال ينهبها المتصوفون الذين كانت لهم دولتهم من الفقراء والمجانيب والمريدين . وكان مشايخ الطرق الصوفية قد نصبوا أنفسهم ولاة فوق أى عرف أو قانون . وفاق سلطانهم سلطان العلماء والفقهاء الذين كانوا يتصدون لبدعهم ويعارضون ضلالاتهم . وكان شائعا خروج مجاذيب الصوفية في الشوارع والأسواق والقرى عراة حفاة . وكانوا يلقون من الأهالى كل إحترام . لأن هؤلاء المجاذيب (بركة) . وكان أولياء الصوفية فوق الشرع والأعراف روجوا عن أنفسهم بأن التكاليف الشرعية قد سقطت عنهم فلا يصلون ولا يصومون كما يقول عنهم الدكتور سيد الطويل في كتابه (التصوف في مصر) . واستباحوا الزنا والخمر والميسر والحشيش . وكانوا يمارسون هذه الموبقات علانية وبلا مواربة . وكان المصريون يتحاشونهم خشية اللعنة لاعتقادهم في سلطانهم الروحى وإيثارا للسلامة .

وكان لكل ولى منطقة نفوذ لا يتعداها ولا يعتدى عليها ولى آخر . حتى أصبحت مصر دويلات لهؤلاء الأولياء في إطار الحكم العثماني وهؤلاء الأفاقون إستطاعوا القيام بعملية غسيل مخ للشعب المصري وسقوه الوهم بل جسدوه له لدرجة أي معارض لتصرفات الولى الشاذة والتى ليست من الشرع كان الأهالى يزدرونه ويرمونه بالكفر . ومما ساعد على ترويج هذا الافك ما كان كتاب هذا العصر يروجونه في كتاباتهم عن معجزات وخوارق هؤلاء الأولياء الأفاقين مما جعل الأهالى عند رؤيتهم لهؤلاء الأدعياء يهرعون إليهم ويقبلون أيديهم وأرجلهم . ولكثرة ما أشيع حول هؤلاء من كرامات ملفقة ومزيفة أخذ الولاة العثمانيون وأمراء المماليك يتسابقون ليحظوا برضاهم عنهم . وهذا كان نعمة للمصريين الذين كانوا يلجئون إلي هؤلاء الأولياء ليردوا عنهم حيفا وقع بهم من حكامهم أو يشفعوا لهم عندهم . فكانوا واسطة بين الشعب وحاكميه الذين كانوا لا يردون لهم طلبا وهذا قوى من سلطان هؤلاء الأولياء . وكانوا بدورهم ينفقون من الأموال التى كانت توهب لهم من الأمراء على الفقراء . لهذا كله كانت السلطات العثمانية تطلق هؤلاء كأبواق دعاية لها بين رعاياها وتتخذ منهم عيونا لها عليهم .

وأمام هذا الفيض من الدجل السياسي الديني كان الأزهر قلعة صامدة وكان علماؤه يتصدون بضراوة لكل زيغ . ومما ساعد على استقلاليته وجود ريع له من أوقافه التى لم تمس حتى قيام ثورة ١٩٥٢ م .

الإدارة العثمانية لمصر :

قسم العثمانيون مصر إلي سناجق (مديريات) وكان سناجقة الأقاليم مكلفين بجمع أموال الالتزام في سناجقهم . والالتزام كان نظاما ضرائبيا لجمع الأموال . وكان كل سنجق يعطى حق جباية الضرائب إلي ملتزم بالاقليم يقوم بدفعها للخزانة مقدما سنويا . ثم يقوم كنائب عن السنجق في جمعها ، فكان الملتزم يغالى فيها ليعوض ما دفعه وليثرى منها ثراء فاحشا . وكانت قيمة الأموال التى تدفع كالتزام تعادل عشر الاموال التى كانت تجمع فعلا ، علاوة على إستعانة الملتزمين بكتبة من القبط لأنهم كانوا يتقنون الحساب وامساك الدفاتر وكانوا يزورون في حساباتهم ودفاترهم ليحققوا ثراء على هامش أموال الالتزام .

ونظام الادارة أيام الحكم العثمانى كان يتمثل في الأوجاق وهو عبارة عن الحملة العثمانية التى كان مهمتها حماية الوجود العثمانى في مصر . وكان الأوجاق يرأسه الأغا ومعه نائبه

ويتبع الاغا الدفتر دار الذى كان يتولى الشئون المالية والادارية بالأوجاق . والولاية كان يديرها الوالى الذى كان يلقب بالباشا . وكان تعيين هؤلاء بما فيهم القاضى يصدر بهم فرمان التعيين من الآستانة . لهذا لم يكن للوالى حق تعينهم أو عزلهم لأنهم كانوا يتبعون الصدر الأعظم مباشرة .

وللولاية ديوان كان بمثابة مجلس شورى للوالى يتكون من الأغا والكخيا وقادة فرق الحامية ودفتردار الولاية والخازندار والروزنامجى . وكان للديوان سكرتير يطلق عليه (ديوان أفندى) . أو أفند يسى . وكان الدفتردار رئيس الجهاز المالى بالولاية يعاونه الروزنامجى في تقديم ميزانية الولاية واستلام كشوفات الأموال التى يرسلها كاشفو الاقاليم إليه .

وأول قانون وضعى لمصر هو (قانون نامة) مصر الذى وضعه السلطان العثمانى سليمان القانونى عام ١٥٢٥ م . وأصدر به فرمانا حمله إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى القاهرة لتطبيقه . وكان القانون من جزئين: الجزء الأول يحدد مهمة الأوجاق في مصر والجزء الثانى يبين نظام الادارة المدنية بالولاية . وهذا الجزء لا يختلف من النظام المملوكى إلا في أنه قسم مصر إلى ١٤ إقليما . وجعل الحكم من أسيوط حتى أسوان خاضعا لعربان بنى عامر بدلا من الهوارة . وأبقى على نظام الكشافين والالتزام .

والمماليك إستغلوا ضعف الولاة فباتوا يطلقون على أنفسهم الباكوات . وكان معظم هؤلاء المماليك من الشراكسة الأتراك . أخذوا يتحدون الوالى العثمانى ويتطاولون عليه ، حتى نراهم عام ١٦٠٥ م . يثورون على الوالى إبراهيم باشا ويقتلونه . وخلفه الوالى محمد باشا الذى يعتبر قاهر المماليك . فنراه يلغى الفردة التى فرضها الجنود السباهى على المدن والقرى . ويرد هم عن التمادى في ظلمهم . وفى عام ١٦٠٩ م . انشق عن طاعته مماليك الغربية وطردوا كاشفها . وأعلنوا بها السلطنة المملوكية ، وعينوا سلطانا ووزراء له يعانونه . وامتد عصيانهم حتى بلغ الخانكة . وجمع محمد باشا زعماء المماليك بالقاهرة وطلب منهم القبض على المتآمرين وإلا أعدمهم جميعا . فقبضوا على زعماء الفتنة فأعدمهم ونفى من ساعدوهم إلى اليمن . وظل محمد باشا واليا لمصر مدة أربع سنوات ضبط فيها أمور البلاد وقام بعدة إصلاحات وعزل حاكم الصعيد شيخ بنى عامر وعين بدلا منه حاكما عسكريا مخالفا بهذا قانون نامة الذى ينص على أن الحاكم هوشيخ بنى عامر . ولما استدعى للآستانة خرج المماليك من جحورهم وعينوا منهم أمير

خزنة بيت المال ليقدم الخراج سنويا للأستانة . كما عينوا أمراء الحج من بينهم بعدما كان يعين من بين العثمانيين بمصر .

ظهور المماليك البكوات :

وسط هذا الجو من الانحطاط السياسى للدولة العثمانية برز على بك الكبير وكان أمير المماليك ، فأعلن عام ١٧٦٩ م . أنه شيخ البلد . وأخذ خطباء المساجد يعلنون إسمه بعد إسم السلطان . وكانوا يدعون له في خطبهم . وعلى بك الكبير أصله من المماليك الشراكسة وكان أبوه قسيسا . جلب كعبد إلي مصر عام ١٧٤٣ م . ومما قوى مركزه طلب السلطان منه مساندته في حرب العثمانيين ضد روسيا . لهذا كون جيشا له . وبدلا من التوجه إلي مسرح العمليات ضد الروس عزل الوالى العثمانى بالقاهرة ورحله إلي الأستانة . وفي عام ١٧٧٢ م . أعلن السلطنة المملوكية في مصر مستقلة عن الدولة العثمانية وعين نفسه سلطانا لها وتلقب بحاكم البحرين الأبيض والأحمر وكان يطلق عليه عزيز مصر . وعلى بك الكبير كان قد وطد علاقاته بالسلطان العثمانى ونال رضاه عندما أرسل قواته بقيادة إبراهيم بك إلي الحجاز لاخماد الفتن والقلاقل ضد الدولة العثمانية هناك . وبهذا أصبح على بك يحكم مصر والحجاز بعدها تطلع إلي ضم الشام له لاحياء الدولة المملوكية الثانية التى قضى عليها العثمانيون . ففى عام ١٧٧٠ م . أرسل قواته لغزو الشام بقيادة إسماعيل بك مستغلا تمرد الشيخ زاهر العمرى حاكم فلسطين ما دعا على بك يرسل حملة ثانية بقيادة أبى الذهب الذى هزم عثمان باشا واستولى على دمشق بعدها أعلن السلطان عصيان على بك الكبير . فأرسل له أسطولا لتأديبه مما جعله يسحب قواته من الشام . لكن أبا الذهب أخذ ينافس على بك . فتوجه بقواته إلي الصعيد لتكوين جبهة مضادة له . فأرسل على بك قوات أخرى بقيادة إسماعيل بك للتصدى لقوات أبى الذهب لكن إسماعيل إنضم إلي المتمردين وزحفوا جميعا إلي القاهرة لشن هجوم على علي بك الذى فر إلي الشام بعدها أسره المماليك وأحضروه للقاهرة . ورحب به إبراهيم بك الذى كان له نفوذه على المماليك . وقتل على بك عام ١٧٧٣ م . وكان أبو الذهب قد أرسل مماليكه . فاستولوا على الساحل الفلسطينى إلا أنه مات هناك فجأة . فعادت قواته إلي القاهرة . وبعده نشب الصراع بين أمرائه الثلاثة وهم إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك . واستبعد إسماعيل ، وأصبحت مصر تحكم ثنائيا بين إبراهيم ومراد منذ عام ١٧٧٤ م . كل هذا الصراع والوالى العثمانى في القلعة لا سلطان له . وإبراهيم بك قد أصبح شيخا للبلد .

وفي عام ١٧٨٦ م . ضاقت الأستانة ذرعا بالمماليك فأرسلت أسطولا بقيادة حسن باشا للقضاء على نفوذهم . واستقبله المصريون بترحاب وحفاوة على طول طريقه في النيل . وكان الفلاحون يطالبونه بعودة قانون نامة وتخفيض الضرائب . ولما وصل المبعوث العثمانى إلي القاهرة كان مراد وإبراهيم قد هربا إلي الصعيد وعين منافسهما إسماعيل بك شيخا للبلد . وكان حسن باشا قد أتى ومعه الاصلاحات الجديدة التي أعلنها أمام الديوان بالقلعة . فعين لأول مرة نقيبا للأشراف ليضفى هالة دينية على هذه الاصلاحات وقضى على الحكم الذاتى المملوكى الذى ظهر أيام على بك الكبير بجعل الأشراف لهم وضعهم السياسى في مصر . وهذه الاصلاحات كانت هامشية . فلم تتعد تعيين نقيب الأشراف ومنع المرأة من العمل العام والمسيحيين من توظيف المسلمين أو شراء العبيد . ومنع معهم اليهود بألا يسموا أنفسهم بأسماء الانبياء . لهذا نجدها إصلاحات مظهرية وليست جوهرية . ولم تتناول المشاكل الملحة في مصر . وصبغت بالصبغة الدينية لاضفاء هالة زائفة عليها . فخيبت آمال المصريين فيها . لكن حسن باشا حقق المهمة الأساسية التى جاء من أجل تحقيقها . حيث أعاد مصر ولاية عثمانية تخضع للأستانة والوالى العثمانى بالقلعة . وحجم نفوذ المماليك . لكن مهمته لم تطل فاستدعته السلطات العثمانية وطلب الباب العالى منه العودة على عجل بأسطوله .

ومن إستقرائنا للأحداث ومما كان يدور وراء الكواليس في الباب العالى نجد أن المؤسسة الحاكمة هناك تديرها أيد خفية لاضعاف الولايات العثمانية . وجعل السلطان خليفة صوريا . وكان لزواج السلاطين من الأوربيات ولا سيما الإيطاليات والفرنسيات قد جعلهم أسرى زوجاتهم اللائى كن يصدرن الأوامر للصدر الأعظم والوزراء . وعلى هذا نجد إنسحاب الوالى العثمانى حسن باشا بأسطوله فجأة من المياه المصرية . كان الهدف منه إضعاف القوة العسكرية البحرية في مصر للتمهيد لنابليون باحتلالها بأسطوله دون مقاومة . فحملة نابليون كانت مؤامرة حيكت في قصر السلطان العثمانى نفسه .

****
****
***
*

الحملة الفرنسية
واليقظة المصرية

لا أكون متجنيا بل منصفا عندما أقول أن الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م أتت غازية ومستعمرة لها . ورغم هذه الأهداف إلا أن هذه الحملة أيقظت المصريين من غفوة القدر ليروا بلادهم في واقعها المؤسف وتخلفها المهين . وهذا كان كافيا لبعث الروح القومية لديهم . فلقد ضاقوا بالمماليك وضاق المماليك بأنفسهم .

فنابليون رغم شدة المخاطر التى كان معرضا لها من الأسطول البريطانى في البحر الأبيض توجه بأسطوله إلي الاسكندرية . فكانت هذه الحملة مغامرة فرنسية في مصر . عندما نزل بقواته عند منطقة العجمى على أطراف الصحراء الغربية وعلى مشارف الاسكندرية . وداربه الخيال وتذكر ما طالعه وما سمعه من التجار الفرنسيين عن هذه المدينة التاريخية . فالاسكندرية كانت لها سمعتها العالمية وشهرتها بأنها عروس البحر بمبانيها وقصورها وآثارها اليونانية والرومانية . وتخيل شوارعها الواسعة والممتدة وقلاعها الحصينة المتعالية وحصونها الفارهة . فأمر قواته بأن يغذوا السير للوصول لمدينة الاسكندر قبل حلول الفيضان . وكان الجو في يونيو خانقا وحارا مما جعل قواته تبحث بجنون عن المياه دون جدوى . ولا سيما وأن الآبار قد جفت مياهها . وهذه القوات قد أنهكتها الرحلة البحرية من طولون إلي شاطىء العجمى . فعندما نزلت البر تبددت آمالها لما لا قوه من حر الصحراء المكشوفة . فسقط الكثيرون من ضربات الشمس وهب العربان للسطو عليهم وأسروا منهم الكثيرين . وهذا ما جعل نابليون يواصل سيره ليصل إلي الاسكندرية للحصول على الماء بها . وأحس محمد كريم حاكم المدينة بوصول الفرنسيين فدهش . وأعتقد أنهم أصدقاء السلطان العثمانى أرسلهم إلي مصر بعلمه وإذنه ولا سيما وأن معظم التجار في البلاد منهم . ولا يوجد أى عداوة بين مصر وفرنسا . فأرسل رسالة عاجلة إلي مراد بك بالقاهرة يبلغه بوصول العمارة الفرنسية ووصفها له مستنجدا به . لكن مراد بك لم يعير الرسالة إهتماما واكتفى بالتعليق قائلا : ان الفرنسيين كحبة الفستق للكسر والاكل . إلا أن هذه الحبة زرعت في مصر وأثمرت . فبعد ساعات كان نابليون يدق بمدافعه أسوار الاسكندرية المتهدمة أصلا . وهب الأهالى للدفاع عن مدينتهم بشجاعة وبسالة . وألقوا بالحجارة من فوق

الأسوار على الفرنسيين . فأصيب الجنرال مينو إصابة بالغة وأطلق عيار نارى على الجنرال كليبر فأصابه بحاجبه . ووصف نابليون مقاومة الاسكندرية بتقرير أرسله للحكومة الفرنسية . بعدما هرع الأهالى إلي المساجد ليحتموا بها ويتضرعوا إلي الله والنبى لترد عنهم هذه الغمة . وأخذ الفرنسيون يذبحون كل من صادفهم . وحاول أحد القناصة المصريين إغتيال نابليون . فأطلق عليه الرصاص وأصابه في طرف حذائه الأيسر لكن نابليون أمام هذه المقاومة المصرية العنيفة لم يلن ولم يضعف فاتبع إسلوب الد عاية الفورية للقيام بعملية غسيل مخ جماعية للمصريين . و انهالت منشوراته التى طبعها بالعربية على الأهالى معلنا فيها بأنه صديق السلطان جاء إليهم ليحقق لهم العدل والمساواة والحرية . وجنده هم جنود الخلاص لهم من المماليك الذين بغوا في كل واد . فأتى ليجعل من المصريين حكاما للبلاد . والفرنساوية مسلمون مؤمنون . فلما نزلوا روما حطموا كرسى البابوية هناك . لأن البابا يحرض النصارى لمحاربة المسلمين والاسلام . والفرنساوية أعداء المماليك أعداء السلطان . وتوعد في منشوره كل من يساندهم بالويل بعدما لعنهم . وختم المنشور بالدعاء للسلطان والعسكر الفرنساوية .

وكان لهذا المنشور وقعه السحرى لدى المصريين ولا سيما النسخة العربية منه ، وانتشر في كل البلاد حتى في إقليم برقة حيث طلب الأهالى هناك منه نسخا كثيرة لتوزيعها . ومما قوى تأثير هذا المنشور قول نابليون فيه بأنه يحترم الأشراف والعلماء . وهذا المنشور أطلق عليه المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بأنه كان دجلا نابليونيا . واعترف نابليون نفسه بهذا . إلا أن الحرب خدعة . وهذا المنشور كان قد طبعه بالعربية . وهذه النسخة كانت مختلفة تماما عن الطبعة الفرنسية والانجليزية . وكان من الواضح أن نابليون وضعه بعناية فائقة بعد دراسته لموقف مصر وأحوالها دراسة مستفيضة . فلهذا ركز فيه على الهجوم على المماليك الذين يكرههم المصريون . وحافظ فيه على هيبة السلطان العثمانى لأنه خليفة المسلمين . وكان له مظهره الدينى لدى المصريين . فرغم مساوىء الخلافة العثمانية إلا أنها كانت مظهرا ورمزا للخلافة الراشدية في صدر الاسلام . والسلطان ظل الله في الأرض هكذا روج العثمانيون عن أنفسهم . فتوهم المصريون أن نابليون جاء ليخلص السلطان من المماليك الذين انشقوا عن طاعته . وها هو الغازى الجديد يحدثهم عن العدل الذى يفتقدونه . وعن المساواة التى يتطلعون إليها وعن الحرية التى كبلت بأغلال المماليك المفترين . وأخذ التجار الفرنسيون والشوام بدمياط ورشيد والاسكندرية يشكلون طابورا خامسا بين المصريين لحساب الدعاية الفرنساوية . والترويج لمنشور نابليون الذى كان

المصريون أنفسهم حريصين على توزيعه وترويجه بين المواطنين تشفيا وأملا في التخلص من المماليك .

وبعدما أخمد نابليون المقاومة في الاسكندرية نراه يصف المصريين في تقريره عن الحملة (بأنهم أمة وديعة وباسلة لكنها تعتز بنفسها) . وتجول بالاسكندرية التى داعبت خياله بسحرها وعظمتها . فراعه ما رأى وصدم في رؤيته . فرآها بلدة خربة بمبانيها القديمة إندثرت فيها كل مظاهر الحضارة وأصبحت أطلالا تنعى الزمن الغابر . لقد دخلها سليم الأول فانبهر بها وبعظمة شوارعها وقصورها . وهاله مناعة حصونها . ولما أتاها نابليون وجدها خاوية على عروشها . تلعن العثمانيين والمماليك البكوات .

ونابليون كان هدفه الوصول إلي القاهرة قبل حلول الفيضان حتى لا تصبح الدلتا بحيرات تغمرها المياه مما سيتعذر معها تقدم القوات الفرنسية . فقسم قواته إلي قسمين لتكملة الغزو . مع ترك حامية فرنسية بالاسكندرية بقيادة كليبر . فتوجهت قوة إلي دمنهور عبر الصحراء والأخرى توجهت إلي رشيد لتعبر النيل وتتقابل مع بقية الحملة في شبراخيت للتوجه معا للقاهرة . وحملة دمنهور سارت عبر الصحراء ليداهمها العربان ووباء الطاعون . ولاقت هذه الحامية العطش لجفاف الآبار . وكان الجو حارا . فكان الجنود من شدة العطش وندرة المياه وتفشى مرض الطاعون يتساقطون موتى . وأمام الأهوال التى كانت تلاحقهم كان العساكر يطلقون الرصاص من بنادقهم على أنفسهم . وساد انطباع بينهم أن فرنسا ألقت بهم إلي الجحيم في مصر لتتخلص منهم بضربات الشمس الحارقة من فوقهم . ورغم هذا كان نابليون في الاسكندرية يحثهم على السير للوصول إلي المجهول . وأى مجهول . فالعذاب أمامهم كان بلا نهاية . وعلى الجانب الآخر كانت القوة التى وصلت رشيد أحسن حالا . فالفرنسيون ذهلوا لما رأوا المدينة . فوجدوها قطعة من أوربا تدب فيها الحياة . فاستراحوا بها وأعجبوا بنظافة شوارعها . وحاولوا شراء أطعمتهم . لكن البائعين رفضوا التعامل بالفرنك الفرنسى الذهبى بالرغم أن رشيد كانت مدينة تجارية دولية تتعامل بكل العملات . لكن الباعة خشوا البيع بالفرنك حتى لا يتهمهم المماليك بعد إنتصارهم علي الفرنسيين بتعاملهم مع العدو لو ضبطوا معهم النقود الفرنسية . ولهذا فضل الباعة البيع لهم نظير أخذ أزرار بدلهم النحاسية بدلا من العملة الفرنسية . لهذا لما وصلت قوات نابليون إلي القاهرة دخلتها والجنود بلا زراير ببدلهم . لأنهم إشتروا بها أطعمتهم أثناء الطريق . لكن إسلوب الشراء أدهش المصريين لأنهم تعودوا على نهب المماليك الذين كانوا يأخذون كل شيء

غصبا . وبعد رشيد توجهت مراكب الفرنساوية عبر النيل وكانت النسوة يزغردن لهم على الضفتين كما كان الاهالى يحييونهم أثناء سيرهم .

ونابليون بالاسكندرية أخذ يوزع الهدايا والشارات الفرنساوية على علمائها ليتودد إليهم وقدم لكل منهم شارة ذات ألوان حمراء وبيضاء وزرقاء بلون العلم الفرنسى . وكان العلماء بأمره يضعونها على عمائمهم وهم سائرون في الشوارع . ومن الطريف أن الشيخ المسيرى فقيه فقهاء الاسكندرية كما يقول عبد الحميد الكاتب في كتابه (مصر والمصريين) أولم وليمة كبيرة حضرها الجنرال كليبر قائد الحامية الفرنسية بالاسكندرية ومعه ضباطه . فقدم لهم أطباقا من الأرز الملون بالأحمر والأبيض والأزرق لون العلم الفرنسى فدهشوا . وهذا علامة عن الرضا عنهم . ولنيل مرضاتهم . وكأن لسان حاله يقول مات المماليك ويحيا الفرنسيون . ألم ينعم عليه بالوشاح الفرنسى الذى كان يرتديه فيؤدى له العساكر الفرنساوية التحية العسكرية بما فيهم الضباط والقادة منهم وهذا الاحترام لم يلقه من المماليك .

هزيمة المماليك

التقت قوات نابليون في الرحمانية وتلاقت مع المماليك الذين جاءوا لكسر حبة الفستق وهم على خيولهم المطهمة بالذهب والجواهر وفي ملابسهم المخملية المزركشة . وتفتقت حبة الفستق الفرنسية عن نيران المدفعية المحمولة على العجل و الرابضة . ففر مراد بك بمماليكه مع أول طلقة فانقلبت مركبته . بعدها واصل الفرنساوية سيرهم إلي القاهرة . وخرجت الأهالى من قبور العصور الوسطى لتحيى هؤلاء الغزاة . وقطع نابليون وجنوده المسافة من الرحمانية حتى وصلوا إلي إمبابة سيرا على الأقدام . لأن الخيول كانت تجر المدافع والمراكب كانت تحمل العتاد . ولما وصل مشارف القاهرة طالعته الأهرامات والقلعة ومآذنها . وكانت قوات مراد بك من المماليك والعربان في إنتظاره عند إمبابة . فوصلها وقواته منهوكة القوى وفي حالة معنوية سيئة من السير والحر وبدلهم بلا زراير لأنهم قايضوا بها للحصول على أطعمتهم طوال الطريق . فالتفت إلي الأهرامات وأبى الهول قائلا : الأن تطل عليكم حضارة أربعين قرنا . قال هذا لرفع الروح المعنوية المنخفضة بين قواته ولا سيما والمماليك أمامه في إنتظاره . ولا يهمنا تفاصيل المعركة . فالفرنسيون إنتصروا وفر مراد إلي الصعيد بفلوله . ودخل نابليون القاهرة تتقدمه الموسيقى تعزف مارش المار سيلليز مع ثلة تحمل بيارق المماليك المنهزمين . وأخذت الموسيقى تصدح في شوارع القاهرة . وسمع الأهالى بها موسيقى غريبة عن أسماعهم لأول مرة . وكان المماليك ومعهم

الوالى العثمانى قد هجوا فرارا من المدينة ولم يبق بها سوى أبناء البلد ليلاقوا مصيرهم أمام الفرنساوية . ووصل نابليون بموكبه إلي الازبكية . واجتمع العلماء ليتشاوروا فيما بينهم حول مستقبل مصر . فأرسلوا عنهم رسولا من المغاربة يعرف اللسان الفرنساوى ومعه شاهد منهم للتباحث مع سارى عسكر الفرنساوية . فعادا ومعهما عهد أمان من نابليون .

ولقد كان لسقوط القاهرة وقعه السيء في الآستانة عام ١٧٩٨ م . وكان له صداه في بقية العالم الاسلامى . فنرى قوافل الحجاج المغاربة وغيرهم من حجاج شمال وغرب أفريقيا ومعهم البدو يقفون في أكبر مظاهرة احتجاج إسلامية ضد الفرنسيين عند إمبابة في عام الغزو . بعدها رجعوا إلي ديارهم ولم يحجوا وانقطعت قوافلهم للحج طوال سنوات الاحتلال الفرنسى لمصر . وانقطع علماء المشرق والمغرب عن زيارة الأزهر لتلقى علومهم أو إلقاء دروسهم به . وانقطع الطلاب عنه وعادوا لديارهم . ولما علم أهل الحجاز بدخول الفرنسيين مصر وانقطاع أفواج الحجاج وقوافلهم المصرية والشمال أفريقية أعلنوا الجهاد المقدس فعبروا البحر الأحمر ووصلوا إلي الصعيد منضمين إلي قوات المماليك هناك . واشترك معهم البدو . وأخذوا يدافعون معا ضد الزحف الفرنسى . وأخروا إستيلاءه على أقاصى الوجه القبلى وقضوا على معظم العساكر الفرنساوية .

المصريون والفرنسيون :

كانت القاهرة أيام الحملة الفرنسية في حالة يندى لها الجبين لما شاهدها الفرنسيون . فالمطالع لكتاب الحملة (وصف مصر) يكتشف الحالة المتردية . فبعد عظمة العمائر المملوكية وقصور الفاطميين شاهد علماؤها الخراب الذى آلت إليه إبان العهد العثمانى . فالقاهرة أم الدنيا كانت أية في الجمال والفن المعمارى الذى كان يستحوذ على إعجاب الأجانب الذين كانوا يزورونها مما أذهل الرحالة الأوربيين وسجلوا هذه العظمة في رسوماتهم وكتاباتهم . وأصدق وصف لمصر العثمانية ما كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه (مصر ورسالتها) حيث قال : عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ م . كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية . وعندما غزاها نابليون عام ١٧٩٨ م . وجدها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية (الآستانة) ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ م أحسن من حالها عام ٦٤٠ م . كان الناس في ذل وبؤس . وكان البلد في خراب . لهذا صدم نابليون للمرة الثانية لما رأى القاهرة وأحس أن التجار والرحالة الفرنسيين قد بالغوا كثيرا في وصفهم لمصر . فضللوه وألبسوا الحقيقة زيفا لم يكتشفه إلا بعد المجيء إليها . فوجد القاهرة

قد ضاقت بمن فيها وضاق من فيها بها . ورأى شعبا بائسا يجوب شوارعها . فوصف مشاهداته في تقريره قائلا : ليس من السهل أن يرى الشخص بلدا غناها كثير وشعبها بائس وجاهل وفقير . وأصيب نابليون باحباط شديد كما يقول هارولد مؤرخ الحملة الفرنسية . فهناك فرق بين سراي الأزبكية التى ضاق بسكانها وبين القصور المنيفة في فينا بالنمسا التى إرتمى في أحضانها . وهناك فرق بين أزقة وحوارى القاهرة وبين حدائق وعظمة شوارع باريس . حتى القلعة التى إنبهر بها علماء الحملة وهى تطل عليهم من عل وتذكرهم بقلاع العصور الوسطى ووصفها العالم الفرنسى (لوجيه) عندما دخلها قائلا : إن منظرها من بعيد يلوح بالعظمة والشموخ ولما دخلتها وجدتها زريبة . رغم وجود قصر الوالى بها . ولما زار نابليون الأهرامات أشاد بعظمتها وروعتها لكنه لم يدخلها مع رفقائه . لأنه رفض أن يزحف على الأرض لدخولها حفاظا علي كبريائه .

وطلب نابليون من فرنسا سرعة إمداده بفرقة باليه ومسرح للعرائس للترفيه عن جنوده . كما طلب إرسال أطباء وصيادلة وأدوية لعلاج مرضاه الذين تفشى فيهم الرمد والدوسنتاريا والملاريا والطاعون . كما طلب قماشا أزرق وأحمر لصنع الاعلام الفرنسية علاوة على الخمور . لكن الحكومة ضربت بطلبية نابليون عرض الحائط ولا سيما وأن الاسطول البريطانى يحاصر الشواطىء المصرية . ورغم هذا الحصار كانت الأسواق المصرية قد ملئت بكل أنواع الخمور والعطور الفرنسية الشهيرة والتبغ والقبعات الباريسية على أحدث الموضات . وكلها صناعة مصرية قلدها المصريون بإتقان . وبهذا بدأ الفرنسيون يستمتعون بإقامتهم في مصر . وأخذ المصريون يقلدون الفرنساوية بلبس القبعات وكثرت بالشوارع حوادث مرور الحمير كما يقول لاجنكير وهذا نتيجة لزيادة سرعتها عندما كان يركبها الفرنسيون الذين كانوا يلهون بركوبها في الشوارع وكانت غريبة عليهم . وكانوا عندما يركبونها كانوا كما يقول الجبرتى : يتمسخرون ويغنون ويشاركون المكارية في ذلك . لأنهم كانوا يحملون معهم عليها العاهرات ويستهزئون بالمارة . مما جعل نابليون يصدر أمرا عسكريا للفرنسيين بتهدئة سرعة الحمير عند السير وسط الزحام . وهذه المسخرة التى وصفها الجبرتى جعلت مشايخ الأزهر يصدرون فتوى بالترخيص للفرنساوية بالزواج من المسلمات بعد النطق بالشهادتين وأعفوا من الختان وأباحوا لهم شرب الخمور .

ولما قدم نابليون هداياه وانعاماته على المشايخ رفضوا لبس الوشاح الفرنسى (الطيلسان) بألوانه الثلاثة واكتفوا بلبس الشارة الفرنساوية على صدورهم بدلا من وضعها فوق عمائمهم . ولما كانوا يلبسونها ويمرون على الضباط والعساكر الفرنسساوية كانوا يؤدون لهم التحية العسكرية

إحتراما لهذه الشارة حتى ولو كانوا يتجولون في الشوارع فوق بغالهم . وكان نابليون حريصا على التودد للعلماء والأشراف وكان يقربهم من مجالسه مؤكدا لهم علانية أنه يحترم الاسلام ونبيه . وادعى أمامهم أن الرسول ظهر له في الرؤيا . فطلب منه نابليون أن يمهله عاما ليعتنق الاسلام ويبنى مسجدا كبيرا . وادعى أيضا أنه مبعوث العناية الالهية خصه النبى بعنايته بعدما هزم المماليك . وبين لهم أن حملته ثورة عظمى ورد ذكرها في القرآن . وجاراه المشايخ فيما يأفك به وأظهروا له تقديرهم للسلطان الأكبر المقدر من عند الله . ولما ضاق المشايخ بالا عيبه وإدعاءاته وبهتانه . واجهه الشيخ الشرقاوى قائلا : ما دمت تحب الاسلام ورسوله . لماذا لا تعتنقه ؟ فبهت وصمت ولم ينطق بعدها أشاع المصريون بأن الفرنساوية كفار . وأعاد المشايخ بالحاح عليه أن يسلم هو وجنوده فتعلل أمامهم بأن هناك عقبتين . هما الختان وشرب الخمر . فأفتوه بأن الختان نافلة وليس فرضا . أما شرب الخمر فيمكن للفرنساوية شربها وسيدخلون الجنة لو كفروا عن ذنوبها . ولم يسلم من الحملة سوى الجنرال مينو الذى تزوج بغادة رشيد وكان يصلى ويصوم ويحضر صلاة الجمعة إلا أنه ترك الاسلام على شاطىء الاسكندرية وهو راجع إلي بلاده بعدما أقلعت به المركب ومعه زوجته وإبنه .

ونابليون بمسلكه مع المشايخ والمصريين قد بدا لهم أنه دكتاتور ومرواغ وإنتهازى . فالبلاد لا تفتح بالمنشورات ولا تحكم بالدجل السياسى والكذب المفضوح . فالمصريون من كثرة الغزاة وما ألم بهم من حكام وعهود كانوا على بينة بأساليبهم الملتوية . فعلمتهم التجارب المريرة التى مرت بهم كيف يحتوون حكامهم وغزاتهم . وكانت مقاومتهم على مر العصور بالتقية وليس بالسلاح وبالسلبية التى تودى بطغاتهم . فالنسوة كن يزغردن لقوات نابليون وهى زاحفة للقاهرة وكان الأهالى على طول الطريق يحيونهم تحيات حارة حتى ظن أن مصر دالت له وحده . ومع هذا كانت جنوده تقتل خفية في كل مكان . وقتل منهم المصريون المئات في المدن والقرى وكانوا يقابلونهم بالأحضان ويفتحون لهم دورهم . كل هذا تم بعدما إنكشفت النوايا الاستعمارية للحملة الفرنسية وبعدما دخل الفرنسيون الجامع الأزهر بخيولهم وضربوا مآذنه بالمدافع من فوق القلعة . بعدها أعلن المؤذنون الجهاد المقدس من فوق المآذن في كل مكان . وثارت القاهرة ضده وضد أوامره التى كانت تتنافى مع تقاليد وعادات المصريين . ولا سيما وأن الفرنسيين رفعوا من قدر السوقة وسفلة القوم والعاهرات والقوادين متحدين إرادة الشعب .

وأصبح المصريون ينظرون إلي إصلاحات نابليون على أنها إفك وضلال . لأنه كان يعتبر

مصر قطعة من فرنسا فهدم الأحياء بالقاهرة ليوسع شوارعها وهدم البوابات في الحارات والأزقة للتهوية وأمر السكان برش الشوارع وتنظيفها لكن هذا جلب سخط الأهالى وضيقهم . وأصدر جريدتين بالعربية والفرنسية كانت تتضمن الأوامر واللوائح التى يصدرها . والاعلانات عن المحلات والبضائع التى ترد إليها وعناوين الخمارات وأنواع الخمور التى تقدمها . وبيوت الأزياء الفرنسية . وهاتان الصحيفتان كانتا بداية ظهور الصحافة في مصر . وكان من المناظر الشائعة في الشوارع بالقاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى سير النسوة الفرنسيات المرافقات للحملة بلا حجاب أو نقاب . وبعضهن كما يقول الجبرتى كن لا يسترن عوراتهن حتى أصبحت المسخرة متفشية في كل مكان . وكان هذا شيئا غير مألوف وقتها .

والحكم الفرنسى كان حكما عسكريا بمصر إلا أن المصريين كما يقول شفيق غربال في كتابه (محمد على الكبير) قد ضاقوا بضبط دفاتر الفرنسيين (بالنسبة للضرائب) وبالاجراءات الوقائية الصحية (للوقاية من مرض الطاعون) التى فروضوها على البيوت والحارات والأسواق منعا لانتشار الأمراض . وهذا شيء لم يألفه المصريون ولم يتجاوبوا فيه مع السلطات الفرنسية . وأعتبره المشايخ خيانة وخطيئة .

وبعد تحطيم الانجليز لأسطول نابليون في مياه أبو قير وتصاعد المقاومة ضد قواته وشن البدو حرب العصابات على رسله القادمين من فرنسا بالبريد . كل هذا جعله يشعر أنه في مصيدة مصر وكان المصريون يسخرون منه عندما يلبس العمامة فيبدو أمامهم كمهرج . فأطلقوا عليه لقب فرط حب الرمان للسخرية منه . فنابليون أصبحت مهمته في مصر صعبة للغاية . فالانجليز في مياه الاسكندرية له بالمرصاد والسلطان أعلن الحرب على فرنسا بالأستانة والمماليك ومعهم العربان يحاربون قواته وأسطوله قد أغرقه الانجليز . والمصريون أخذوا يسخرون منه علانية ولا سيما بعدما أخذ يفاوض مراد أمير المماليك سرا عن طريق القنصل النمساوى صديق مراد بك . ووعده بمنحه حكم إقليم جرجا . ورفض مراد عرض نابليون وأصر على رحيله عن مصر . كل هذا بين أن منشوره كان وقاحة بل صفاقة كما أجمع المؤرخون على وصفه حيث ظهر فيه بهتان نابليون عندما إدعى أنه صديق السلطان . والسلطان يعلن خيانته والحرب عليه . وادعى أنه أتى ليخلص المصريين من المماليك الكفرة فها هو يرسل القنصل النمساوى روزينى للتفاوض معهم باسمه ليوليهم إقليم جرجا . وإدعى إحترامه للإسلام فداهمت قواته صحن الأزهر الشريف وضرب مآذنه بالقنابل . وكانت أمام نابليون أكثر من فرصة يظهر فيها صدق نواياه . ولو كان قد

فعل هذا لأصبح إمبراطور مصر الفرنسية . وأهم فرصة لوكان قد أسلم وأخلص في إسلامه . والفرصة الذهبية الثانية هى مشروعه لاصلاح ملكية الأراضى الزراعية . فلقد ترك الملتزمون من المماليك ٧٥ ٪ من الأراضى الزراعية بعدما قتلوا أو فروا هربا . فلما عرض نابليون على مستشاريه مشروع توزيعه للأرض على الفلاحين وإلغاء الالتزام نهائيا . عارضته الأغلبية التى خضع لتصويتها . ولو كان أصدر أمرا عسكريا بهذا التشريع لما عارضه أحد . وهذا كان حقه كقائد عسكرى . فلو فعل هذا لنال رضا وتأييد الفلاحين الذين كانوا وقتها السواد الأعظم من الشعب المصرى حيث كانوا يمثلون حوالى ٨٠ ٪ من تعداد السكان وقتها .

أما منشور نابليون فلم يتحقق منه سوى نقطة واحدة على جانب كبير من الأهمية . وهى قوله إشراك المصريين في حكم بلادهم . ففى أكتوبر ١٧٩٨ م . كون الديوان بالقاهرة ودواوين في المدن الكبرى بالأقاليم تتبع الديوان العام . وشكلها من المشايخ والأعيان والتجار والفلاحين والأقباط . ويعتبر الديوان العام هذا أول مجلس نيابى في الشرق كله . فحقيقة كانت مشاركة المصريين فيه صورية إلا أنه كان بمثابة اللبنة الأولى للحكم الدستورى في مصر . وحدد نابليون في قرار تشكيله نظام وطريقة التكوين والعمل به . وكان الجبرتى عضوا فيه وأعجب بنظامه إعجابا شديدا سجله في يومياته ولا سيما عندما طلب من الأعضاء المجتمعين لأول مرة إختيار رئيس لهم فيما بينهم . فهرع الأعضاء فورا وقالوا الشيخ الشرقاوى بوصفه شيخ الأزهر . فرد الترجمان قائلا : نو . نو . (أى لا . لا) . فيعلق الجبرتى على هذا قائلا : فأجروا قرعة بالأوراق . فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى . بعدها عرض على المجلس قانون جديد للميراث حسب القانون الفرنسى فرفضه المجلس بالاجماع لأنه يخالف شريعة المسلمين والأقباط . ورفض المجلس القوانين المدنية والجنائية الفرنسية لهذا السبب أيضا . وشدد أعضاء المجلس على عدم قبول أى قانون وألا يحدث أى تغيير في النظم السائدة في مصر لتظل على ما هو عليه وما سيكون . لأنهم إستشفوا أن وجود الفرنسيين أصبح مؤقتا . وكان المشايخ بالديوان حريصين على التصدى لكل ما يعرضه عليهم نابليون في الجلسات . ولا سيما وأن هؤلاء المشايخ أفتوا فيما بينهم بألا طاعة لكافر ونابليون وضح لهم كفره . ولقن علماء القاهرة سارى عسكر درسا إستوعبه أخيرا وطبقه باعترافه في مذكراته عندما أصبح إمبراطور فرنسا بعد ذلك . وهو أن يروض الدين ولا يقاومه . لأن الدين ينتصر دائما على الحرية في عقول الشعب . فالأهالى كانوا قد تظاهروا أمام الديوان معارضين قوانين نابليون . وأخذوا يتفقون على الثورة بقراءة الفاتحة . فلما شاهدوه وقتها خارجا

منه صاحوا قائلين : الفاتحة . رافعين أكفهم . فسأل مترجمه مذعورا . فأجابه بأنهم يدعون للسلطان الأكبر سارى عسكر . وفى الواقع كانوا يقرؤونها لتثبيت إتفاقهم . بعدها بساعات قامت الثورة بالقاهرة . وكانت مفاجأة أفقدته رشده وأصابت كبرياءه .

الثـــورة علي الفـــرنـســيين :

كانت ثورة القاهرة عام ١٧٩٨ م . بعد أيام من وجوده بمصر نذيرا بأن عهده بها قد إنتهى . فاعتدى الأهالى على الجنرال ديبوى حاكم القاهرة وقتلوه . واستقبل الشعب نابليون بالحجارة فألقوه بها . وسيطروا على القاهرة تماما ماعدا القلعة . وأصبحت جثث الفرنسيين بالعشرات في الشوارع . وأخمدت المدافع من القلعة هذه الثورة وقبض على الأهالى ، وأعدم نابليون العشرات وألقى بجثثهم في النيل للتنكيل بهم . وكان من بينهم ستة من العلماء . وبينما كان الجنرال رينيه يعدم يوميا ما لا يقل عن ثلاثين ثائرا نجد نابليون يعود إلي دجله الدينى قائلا أمام المشايخ الذين جاءوا يتشفعون في المصريين المقبوض عليهم بأن : (هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان سيكون على يديه) . ويعلق على أحكام الاعدام التى أمر بها بأنها حكم إلهى . وبعد مذبحة القاهرة نزلت القوات الفرنسية تداهم المدن والقرى يحرقون ويعدمون يوميا العشرات . بعدها هدأت الامور وتشفع المشايخ لدي نابليون ليعفوا عن المماليك . فعفا عنهم لارضائهم . بعدها كما يقول الجبرتى دخلوا الأزهر يلونون به وهم في ثيابهم الرثة . وأخذوا من صدقات الفقراء المجاورين به . ويتكففون المارين وفي ذلك عبرة للمعتبرين . فذاقوا بما كانوا يفعلون . لكنهم لم يعتبروا فبعد نابليون إفتروا في المصريين .

وأمام فشل الحملة على مصر والحصار عليها في البحر لجأ نابليون إلي حيلة ينال بها تأييد أوربا للضغط على إنجلترا لفض هذا الحصار . فأعلن حربا صليبية جديدة على الشام وفلسطين . وبهذا كشف زيفه وتضليله بأنه حامى الاسلام وضد البابوية فتوجه إلي العريش ثم يافا حيث ذبح الآلاف من المسلمين هناك . ووصف المؤرخون هذه المجزرة الوحشية بأنها مذبحه بربرية قام بها رسل الحرية على الطريقة الفرنسية . ووصل عكا حيث كانت نهايتها . فالجزار باشا واليها لقنه درسا خسره فيه نصف قواته عند أسوار قلعتها المنيعة . وكانت النسوة المسلمات يقفن يزغردن فوق الأسوار لبث الحماس في المدافعين . وعاد نابليون مدحورا وقام بتمثيلية يجر معه فلول جيشه المهزوم . وجعل الموسيقى تصدح بالمارشات العسكرية على طول طريق العودة . ورجاله كانوا يسيرون حفاة على الأقدام معه . لأن العربات كانت متخمة بحمل الجرحى والمصابين

واضطر من كثرتهم إلي التخلص من مدافعه ومعداته بدفنها في رمال فلسطين . ليخلى العربات لنقل هؤلاء المصابين . ومن كثرة العدد وعدم التمكن من نقلهم أو إسعافهم أمر أطباءه بتسميمهم للتخلص منهم . وهذا ما أكده (لاجونكير) المعلق العسكرى بالحكومة الفرنسية في تقريره الذى كانت الحكومة قد كلفته بكتابته من الوثائق الفرنسية للحملة النابليونية . فنراه في مجلداته الستة يعلق على موقعة عكا بقوله : كان شبح الجزار يلاحق ويطارد نابليون عند انسحابه المهين من فلسطين والشام . وكان المسيحيون الموارنة قد انسحبوا معه حتى لا ينالهم إنتقام الجزار بعدما تواطئوا مع الفرنسيين ضده . ومما ساعد على إحباط هذه الحملة المقاومة السرية التى قام بها عربان الشرقية حيث كانوا يغيرون على خطوط إمدادات نابليون المتجهة للشام ويستولون عليها ويدمرونها . وهذا ما أضعف موقف القوات الفرنسية هناك . وعزلها عن بقيتها في مصر . لكن نابليون تمادى في تمثيليته . فلما وصل لمشارف مصر أمر بتوزيع الجرحى والمصابين الذين بقوا معه في سرية تامة . فوزعوا على المدن لإخفاء حقيقة الهزيمة في عكا . ورتب مسرحية لدخوله القاهرة فسارت فلول قواته يصاحبها الموسيقى وثلة تحمل الأعلام التركية التى إستولى عليها في يافا . وأعلن البروجي دخول القائد المظفر من باب النصر . وكانت غنائمه بيارق تركية . لكن المصريين لم تنطل عليهم حيل نابليون . فكانوا يسألون عن عدد الباقين من الفرنسيين . لأنه كان من السهل عدهم وحصرهم . فمعظم أفراد الحملة قد دفنوا فى رمال الشام . بعدها إنتهز نابليون الفرصة فسافر إلي فرنسا سرا قبل أن تصل لباريس أنباء الهزيمة . وحتى يمكنه تزييف الحقيقة أمام الشعب الفرنسى . فسافر بعدما أوصدت أمامه أبواب الانتصارات في آسيا وأفريقيا . ولما وصل العاصمة الفرنسية أعلن إنتصاراته المزيفة وأصبح إمبراطور فرنسا بعدها .

ومقاومة المصريين لم تلن بل إشتدت ضد الفرنسيين المحتلين . ففى دمنهور إستولى العربان على الحامية الفرنسية وذبحوا أفرادها . واشتعلت الدلتا والاسكندرية . وأخذ بدو الشرقية يغيرون على القوات الفرنسية . وأصبح الفرنسيون يواجهون الكمائن المسلحة في كل مكان .

فرار نابليون :

المطالع لوثائق الحملة الفرنسية يجدها فقدت ١٥٪ من قواتها البرية و ١٠٠٪ من أسطولها في مصر . ورغم هذا نجد نابليون يقوم بآخر كذبة له في منشوره الذى وجهه لأعضاء الديوان العام والجنود وقواته عند رحيله حيث جاء فيه أنه ذهب إلي فرنسا وسيعود إليهم سريعا . وغادر خلسة تاركا جيشا مفلسا ومهلهلا . وفي باريس أخذ يتاجر بانتصاراته الوهمية .

وبعد فرار نابليون المفاجيء أو على حد وصف أحد المؤرخين له بالفار الذى ترك السفينة بعدما نخر فيها . تركها لتغرق بعيدا عنه . وهذا الفرار جعل القوات في إحباط تام . مما جعل القوات الفرنسية تتمرد على قادتها . وتمزق العلم الفرنسى في كل مكان . فالفرنسيون أحسوا أن نابليون خذلهم وتركهم لمصير مجهول . ولم يكن أمام كليبر خلفه سوى التفاوض على الانسحاب من مصر ولا سيما وأن نابليون أخل بوعده بارسال معدات وإمدادات عند وصوله فرنسا . وكان الأتراك قد أتوا بأسطولهم وأنزلوا قواتهم في أبو قير والانجليز كانوا موجود ين بأسطولهم هناك وبعض القرات الهندية قد جلبتها المراكب البريطانية وقد أحضرتها من مستعمراتها بالهند . وأنزلتها عند البحر الأحمر . فآثر كليبر التفاوض لعقد معاهدة إنسحاب على فقدان ٢٠ ألف جندى فرنسى بقية الحملة لأنه سيكون مسئولا عن قتلهم أمام الرأى العام والحكومة الفرنسية . وهذا الموقف الصعب وضعه فيه نابليون قبل فراره . واتفق مع الأتراك في معاهدة العريش التى ضمنتها إنجلترا . واشترط في المعاهدة أن يتم الانسحاب على مراكب عثمانية وليست إنجليزية حتى لا يقع الفرنسيون فى أيدى الانجليز ويعتبرون أسرى حرب فينقلونهم إلي إنجلترا بدلا من فرنسا . وأخذ كليبر يستعد لتنفيذ الاتفاقية في مواعيدها . لكن إنجلترا الضامنة والشاهدة على هذه الاتفاقية تراجعت فيها بعد توقيعها بحجة أن الملك لا يوافق عليها بشروط . وبريطانيا تعللت بهذا لأنها علمت من رسالة وقعت في يديها أن الجيش الفرنسى في مصر في أسوأ أحواله القتالية ولا يقوى على الحرب . لهذا نقضت الاتفاقية لإلحاق الهزيمة بهذا الجيش الفرنسى المتداعى وتحطيمه . وهذا جعل كليبر يواجه قوات العثمانيين عند (عين شمس) وتحالف معه مراد بك بمماليكه ضدهم . وبسبب هذا التحالف المملوكى الفرنسى أن مراد وجد نفسه قد إستفاد من وراء الوجود الفرنسى بعدم دفعه الضرائب للباب العالى . لهذا تحالف مع كليبر حتى لا يعود العثمانيون لمصر . فحاصر كليبر ومعه مراد القاهرة التى دخلتها القوات التركية بعد إنسحاب الفرنسيين منها . وحوصرت المدينة لمدة ٢٧ يوما سلمها العثمانيون على شرط الرحيل بقواتهم سالمين وعودة المماليك للصعيد . بعدها خلا الجو لكليبر الذى أصبح صديقا لمراد بك . ولما كان كليبر يستعرض قواته المنتصرة ناحية الروضة إغتاله سليمان الحلبى عام ١٨٠٠ م . وحوكم بعدها أمام محكمة عسكرية وأعدم بوضعه فوق الخازوق وترك ثلاثة أيام فوقه ليراه المارة .

وتولى الجنرال مينو قيادة الحملة وكانت فترته فترة إستقرار بمصر بعدما هدأت الأحوال . وقام بعدة إصلاحات هامة ومفيدة . لكن الأهالى رفضوها رغم منفعتها لأنهم لم يتقبلوا النظم

الفرنسية كرها فى الفرنسيين . وكانوا يعتبرونه باسلامه دجالا .

واستطاعت القوات العثمانية الانجليزية المشتركة مطاردة القوات الفرنسية بمنطقة الاسكندرية حتى القاهرة . وحاصرت المدينة . بعدها إجتمع الجنرال بليار حاكمها بالمشايخ وطلب منهم إلتزام الأهالى بيوتهم . وحذرهم من قيام أى ثورة شعبية . لكنهم أجابوه قائلين : كل نفس بما كسبت رهينة . فرد عليهم أحد الحاضرين من الفرنسيين قائلا : إن المدافع والدانات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح . لأنها لا تقرأ القرآن . لكن الفرنسيين لم يحاربوا بل سلموا القاهرة بلا قتال لأن دفاعهم عنها كان خسارة فادحة . وانسحبت القوات الفرنسية بنفس شروط كليبر السابقة وتنفيذا لمعاهدة العريش .

ومصر والحق يقال إستفادت من الحملة الفرنسية رغم المآسى التى حلت بها . فتخلصت لفترة من ظلم وقسوة المماليك واكتشفت أثناء هذه الحملة إلى أى مدى كانت متخلفة فظهرت الروح القومية بين المصريين .

****

****

**

*

مصر في مفترق الطرق

وصف الدكتور حسين مؤنس القاهرة في القرن الـ ١٧ بأنها كانت قرية صغيرة لا قيمة لها ولا حساب . ولما أتى الفرنسيون إنتبه المصريون إلي أنهم أصحاب بلدهم ولا سيما عندما أشركهم نابليون في الديوان وإدارة شئون البلاد . ورغم هذا الشعور ظلوا يعتبرون أرض مصر هي أرض السلطان بالآستانة . فنراهم يقولون لنلسون قائد الاسطول الانجليزي بأن أرض مصر هي أرض السلطان وليست أرضهم . لأن السلطان خليفة الله في الأرض وكان السلاطين يروجون هذه المقولة وكانوا يدونون على واجهة القصور والدور الحكومية عبارة (السلطان ظل الله في الأرض) ورغم هذا فالحملة الفرنسية نشلت الشعب المصري من هذا الوهم الديني . وأصبحت مصر بعدها كما كانت قبل مجيئها قسمة ظالمة بين أو باش الأتراك وصعاليك المماليك كما يقول الجبرتي . لهذا أصبح الشعب لا يثق سوى في مشايخ الأزهر . ونابليون ضمن دعاياته التي روجها في منشوره تحدى المماليك قائلا : فان كانت الأرض المصرية إلتزاما لهم فليظهروا الحجة التي كتبها الله لهم . وهذا التحدي أيقظ في المصريين روح القومية وبعث فيهم الشعور الوطني . ورغم هذا بعد رحيل الفرنسيين لم يطمح الشعب المصري في الاستقلال عن الآستانة . وانحصرت إهتماماتهم القومية في رد المظالم وتخفيض الضرائب وكان لاختيارهم محمد علي واليا بعد الاتفاق معه للالتزام بهذه المطالب . لأن الضرائب كانت تستحوذ على إهتمام الفلاحين وغيرها لم يكن يهم .

والحكم العثماني الذي عاد بعد خروج الفرنسيين من مصر كان نقمة علي مصر كما يقول جيب وهارولد في كتابهما (المجتمع الاسلامي والغرب) . فلقد سار على وتيرة واحدة لم تتغير أو تتبدل طوال هذا الحكم . فكانت تدار الصناعة والزراعة ويمارس التعليم بأساليب عقيمة . وطرق عفا عليها الزمن . فانعزلت مصر عن العالم وانفصلت عن الحضارة الحديثة . لأن الدولة العثمانية قطعت كل جسور الاتصال بين ولاياتها والعالم الخارجي الذي أخذ يتطور ويتقدم من حولها .

وبالنظر إلي الساحة السياسية المصرية في أعقاب الحملة الفرنسية نجد زعامات مصرية قد ظهرت كعمر مكرم والجداوي والمحروقي وغيرهم . وهذه الزعامة الشعبية تصدت بعد ذلك للوالي العثماني وعزلته إحتجاجا على ما أقترفه الدلاة من نهب وسلب . وأخذت الجماهير تهتف بصوت عال : شرع الله بيننا وبين الوالي الظالم . وأخذوا يرددون في الشوارع (يارب يا متجلي

إهلك العثمانللى) وبهذا خرج عمر مكرم نقيب الأشراف ووراءه الشعب المصرى من القمقم العثمانى الذى ظلوا به قرونا طويلة . أما المماليك فنراهم قد أصبحوا شراذم متناحرة ولم تعد مصر مرتعا لهم . فالدولة العثمانية بعد انسحاب القوتين الفرنسية والانجليزية من ديار مصر كانت حريصة على وأد أى حركة مملوكية يستعيد المماليك بها نفوذهم وحكمهم الذاتى لمصر كما كانوا .

حكم محمد على :

على الصعيد العسكرى أصبح في مصر ثلاث قوات مسلحة . الأولى قوات المماليك والبدو في الصعيد . والثانية قوة الأتراك العثمانيين . ومعهم قوة ثالثة هى الألبان (الأرناؤط) وكان بينها محمد على ضابطا شابا أتى معها عام ١٧٩٩ م . وكان عمره وقتها ثلاثين عاما . ومحمد على من مواليد سالونيك باليونان لكن أصله من ألبانيا . وفى بدء حياته عمل جابيا للضرائب . وهذه الوظيفة طبعته بالقسوة التى لازمته طوال حياته . وفي عام ١٨٠٣ م . نراه وراء تمرد العساكر الألبان بقيادة قائدهم طاهر بك . وهذا التمرد كان سببه مطالبة الوالى برواتبهم المتأخرة . وكان محمد على نائبه . فاستولى طاهر بك على القلعة وعزل الوالى وساعده المماليك ليعلن نفسه واليا على مصر . لكنه قتل ليخلو الجو لمحمد على الذى تولى قيادة الحامية الألبانية . وكانت أكبر حامية عثمانية في مصر . ولعب محمد على دورا خبيثا بينه ناتنج في كتابه (العرب) فأوقع بين جنوده الألبان والمماليك حلفائهم . ولما عينت الأستانة عام ١٨٠٤ م . خورشيد باشا واليا أيده وأعلن الولاء له . وكان يحرض المشايخ سرا ضده . فاكتشف خورشيد ألاعيبه . فعينه حاكما لجدة وكان هذا المنصب التعيين فيه يتبع والى مصر . فعارض محمد على في تعيينه وقبض على الوالى وحرض الأهالى التى خرجت مطالبة بتوليه الولاية . وأتاه المشايخ ومعهم عمر مكرم يطلبون منه قبول المنصب . فتمنع ثم قبله بعدما تعهد أمامهم بتحقيق العدل ورد المظالم وتخفيض الضرائب . وأتى مبعوث عثمانى إلي مصر ليبحث هذه المشكلة ويحلها . ولم يكن أمامه سوى الرضوخ لمطالبة الشعب بتولية محمد على . فصدر فرمان الولاية عام ١٨٠٥ م . وكان بداية حكمه هو بداية حكم الأسرة العلوية لمصر كولاية ثم خديوية ثم سلطنة وآخرها مملكة ظلت حتى عام ١٩٥٣ م . حيث أعلنت ثورة يوليو قيام الجمهورية .

وانجلترا كانت حليفة للماليك وكانت لمحمد على بالمرصاد . فأرسلت عام ١٨٠٧ م . حملة عسكرية لخلعه وكان المماليك يعاونونها . إلا أنها فشلت بعد هزيمتها في رشيد . وحاول المماليك

إغتياله فدبروا مؤامرة له لتنفيذها أثناء توجهه للاحتفال بعيد وفاء النيل . إكتشفها وقبض على المتآمرين وأعدمهم . لكنه ظل يتودد لزعماء المماليك بعدها . وأظهر حاجته لهم لمساندته في حربه ضد الواهبيين في شبه الجزيرة العربية . وطلب منهم حشد قواتهم وتدريبها والاستعداد للسفر إلي نجد . وفي عام ١٨١١ م . طلب من أمرائهم المجيء إلي القلعة ومعهم القوات لاستعراضها قبل الخروج للسفر . فلما جاءوا بخيولهم المطهمة ووراؤهم عساكرهم في أتم إستعداد لهم . دخلوا بالقلعة . بعدها أغلق حراسها الألبان أبوابها عليهم . فأصبحوا محصورين بها . واستقبل محمد على الأمراء المماليك في قاعة الديوان وكان قد أظلمها . واحتفى بهم جميعا . وهو جالس القرفصاء على أريكة . فطلب لهم الشربات بعدها إنهال حراسه باشارة منه عليهم وذبحوهم ومن فوق أبراج القلعة إنهال الحراس الألبان بطلقات الرصاص على الجنود المماليك المتراصين في الساحة . فقضوا عليهم . ونزلت قوات محمد على بالشوارع للقبض على فلول المماليك وذبحهم . وهذه المذبحة المملوكية أشاعت الرعب في نفوس المصريين والخوف من محمد على الذى أخذ يحكم مصر بالكرباج والسخرة .

وأيام محمد على كانت هزيمة نابليون في معركة واتر لو وسقوط الامبراطورية الفرنسية . بعدها سرحت فرنسا جيشها بضباطه وفنييه . وهؤلاء رغم الهزيمة كانوا على مستوى عال من الكفاءة القتالية والتدريب . فوجد محمد على فيهم فرصته الذهبية لتكوين جيش حديث يقوم هؤلاء الضباط بتدريبه . ومما سهل مهمته علاقته الطيبة بالقنصل الفرنسي وإغلاس فرنسا . فحضرت البعثات التدريبية وكانت تضم خيرة القواد الفرنسيين . وقام باستيراد الاسلحة والمعدات الحديثة وبعث الضباط الشراكسة لفرنسا للدراسة في معاهدها العسكرية .

وكان محمد على أميا لا يقرأ ولا يكتب وحاول التعلم وهو في سن الأربعين إلا أنه كان واسع الأفق ذكيا ومدركا للأمور وبعيد النظر . وكان ملما بالأحداث العالمية والتيارات السياسية الدولية من خلال ما كان يصله من صحف ومجلات أجنبية بصفة مستمرة . وكانت تترجم له أولا بأول ثم تتلى عليه .

ومحمد على لأول مرة يدخل نظام الدواوين في مصر بانشائه الديوان العام الذى كان رئيسه (لاظوغلى) باشا . وهذا الديوان بمثابة مجلس الوزراء حاليا . وكان رئيس الديوان العام نائبا عن الوالى . وكان يتبع الديوان العام دواوين الجهادية والبحرية والتجارة والخارجية والمدارس والمبانى والأشغال . وبانشاء ديوان الخارجية نجد أن سياسة محمد على كانت تخطو

لأول مرة في الحكم العثماني لتتجه إلي الاتصال بالعالم الخارجي بعد العزلة التي فرضت على الولاية المصرية . وبهذا كانت مصر أول ولاية عثمانية تخرج من العزلة عن الغرب بالذات .

وفي عام ١٨٣٧ م . أصدر محمد علي فرمان (سياست نامة) وكان يعتبر دستورا للبلاد حيث أنشأ مجلسا للمشورة نصب إبنه إبراهيم باشا رئيسا له . وكان يضم علماء وكبار الموظفين والأعيان ومأموري الأقاليم . و قراراته إستشارية للديوان العام حيث كانت تقدم إليه في شكل توصيات . وتضمن الفرمان - أيضا - إنشاء المجالس العمومية بالاقاليم وكانت تتبع الوالي وإنشاء (الجمعية الحقانية) وهي بمثابة الهيئة القضائية العليا للبلاد وكانت تضم عالما حنفيا وآخر شافعيا . وأصبحت هذه الجمعية عام ١٨٤٩ م مجلس الاحكام . وضم إليه بعض كبار الدولة ليقوم بالتشريع بالتعاون مع المجلس الخصوصي الذي تكون كوصي على محمد على الذي شاخ وأصيب بالخرف وقتها وكان هذا يدير البلاد بالوصاية ويرأسه إبراهيم باشا أكبر أبناء محمد على

والمجتمع المصري كما صنفه لويس عوض في كتابه (تاريخ الفكر المصري الحديث) كان يتكون من ثلاث طبقات واضحة ، وهي طبقة النوات (الطبقة الارستقراطية الحاكمة والاتراك والجراكسة) وطبقة الأعيان (كبار الملاك المصريين) وطبقة الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يطلق عليهم وهم السواد الأعظم من الشعب المصري . وكانوا مسخرين لخدمة النوات والأعيان بلا مقابل . وكانت أسرة محمد على مستولية على معظم أراضي مصر كأنه قد جلبها معه من قولة باليونان بعدما أفلس محل تجارته في الدخان هناك .

وكانت قوات محمد على في بدايته من الألبان الذين إستشرى فيهم الفساد . فكانوا يفطرون جهارا في رمضان ويرتكبون المعاصي أثناء الصيام . فخشى محمد على تمردهم عليه . لهذا إتجه إلي تشكيل جيشه الجديد من المصريين ليكون ولاؤهم للبلد عكس الألبان أو المماليك أو غيرهم الذين سيكون ولاؤهم لمن يدفع أكثر . لهذا لجأ إلي المصريين ليكون جيشه ويبني بالسخرة دولته العصرية . فنجدهم إلزاميا جندوا للعمل في الجيش والمصانع والورش والزراعة . بعدما جعل كل شيء في قبضته حتى التجارة الداخلية والخارجية . وكانت عبارته المشهورة كما يقول (تربال) : لا بد لي أن أقود هذا البلد قيادة الأطفال فان تركها لنفسها يسلمها للفوضى التي سبق وأن أخرجتها منها وكانت هذه السياسة العلوية هي سياسة حكام الثورة منذ مطلع الخمسينات فيما بعد .

وألغى محمد على الالتزام وهو نظام جباية الضرائب الذى كان معمولا به لأكثر من عشرة قرون وكان السبب الرئيسي في سوء الأحوال الاقتصادية للفلاح المصرى وشكواه المزمنة . لأن الالتزام كان قاصرا على حفنة من المماليك أو الأعيان . وكان النظام هو أن يجلس صاحب الخراج في جامع عمرو كل سنة ويعرض التزام كل إقليم بمبلغ كذا يدفع مقدما . فيأخذه ملتزم بعد دفع أموال الالتزام لبيت المال . وينفض مجلس الالتزام . بعدها كان الملتزمون ومعظمهم من المماليك بالقاهرة يؤجرون هذا الالتزام من الباطن لأعيان الناحية أو يوكلون شيوخ البلد عنهم لجباية أموال الالتزام . و الكشافون وجنودهم ملزمين بمعاونتهم في التحصيل . وكان الصيارفة وكلهم من الاقباط الذين كانوا يجيدون الكتابة والحساب و يقومون بدورهم بتحديد الأموال المقررة على الفلاحين . وكانت تقديرات هذه الضرائب لا تخضع لقاعدة . و تقديرها كان متروكا للملتزم يحددها ويفرضها على كل قرية . وكان أهالى القرى ملزمين بتقديم الطعام للصيارفة والعساكر أثناء تواجدهم . فكانت أموال الالتزام كما حسبها نابليون كالآتي :

حصة لبيت المال الذى كان يرسل منها جزءا إلي الأستانة سنويا . وحصتين للملتزم وأربع حصص للقائمين على تحصيلها سواء وكلاء الملتزم أم الصيارفة . أما العربان فكان لهم حصة حتى لا يهاجموا القرى أو يغيروا عليها . و الكشافون (حكام الاقاليم) كانت لهم حصص عينية من المواشي والغلال . لهذا لم يبق للفلاحين شيء يذكر . و يعتبر المؤرخون أن من أهم إنجازات محمد على إلغاء الالتزام . لكن على الجانب الآخر أصبح ٧٥ ٪ من الأراضي ملكه وملك أسرته وكبار موظفيه من الاتراك . يعمل بها الفلاحون بالسخرة وبدون مقابل . وكانت هذه الأراضي يطلق عليها الدائرة السنية . وبقية الأراضي كانت أبعديات ووسايا للأعيان وكبار الموظفين وما تبقى كان أراضي خراجية وزعت على الفلاحين ليكون نصيب الفلاح ثلاثة أفدنة في مقابل العمل سخرة في أراضي الباشا والعمد والمشايخ والأعيان . وكانت هذه الأراضي لا يحق للشخص بيعها أو التصرف فيها . هذه قصة الالتزام .

وانجازات محمد على كانت كلها تهدف تحقيق طموحاته . وكانت سياسته تخضع لفكرة إنشاء جيش قوى وإمبراطورية له . لهذا كانت كل مشروعاته ومدارسه ومصانعه وتوسعه في الزراعة لخدمة الجيش وتجهيزه . فنراه ينشيء الترسانة البحرية لانشاء الاسطول ومصنع الطرابيش بالعباسية لامداد عساكره بالطرابيش والقايشات وصوف العسكرى . وكانت كل المدارس التى يطلق عليها المكاتب جميعها مدارس عسكرية يجند فيها الأطفال إجباريا لتدريبهم

على الطاعة والولاء له . بعدها يتدرجون بها ليتخرجوا أنفارا (جنود) أو صف ضباط معلمين . ونادرا ما كان يتخرج من مدارسه العليا ضباط مصريون . لأن معظم الضباط كانوا من الشراكسة ليضمن ولا هم له . وكانت الدراسة بالمجان يقدم للتلاميذ فيها الاقامة الدائمة والأكل واللبس ومصاريف اليد بلا مقابل طوال مدة الدراسة والتعليم والتجنيد في الجيش . وكلها فترات متصلة كان الشخص ينقطع فيها تماما عن أهله ولا يراهم . وقد تصل المدة لأكثر من عشر سنوات . فكان المصريون يعتبرون الداخل مدارس محمد على مفقودا والطالع منها مولودا . لذلك كرههم في التعليم ونفرهم من الجهادية . ولم يستثن من هذا التجنيد سوى الصبيان الذين يترددون على الكتاتيب لحفظ القرآن . أما الباقى فكان يؤخذون عنوة لمكاتب محمد على . فأصبح في هذه المدارس هؤلاء الصبيان موظفين في الحكومة . لهذا كان التعليم بمثابة جندية وليس مسألة تربوية . فاذا كان اليوم فشل الابن في التعليم كارثة لأسرته نجد أيام محمد على إستمرار الابن في مدارسه مصيبة ولو فر التلميذ منها كان الابن والأب يسجنان ويضربان بالكرابيج . ويعتبر هذا هروبا من الخدمة العسكرية . ناهيك عن سوء المعاملة والسباب أثناء التدريب . كل هذا وصفه بالتفصيل على مبارك في مذكراته . فالتجربة القاسية التى مر بها في هذه المدارس متحملا المعاملة اللاآدمية بها جعلته فيما بعد يغير من نظام التعليم أثناء حكم الخديو إسماعيل وينشىء التعليم المدنى (الأهلى) . وألحق هذه المدارس بالجهادية لتشرف عليها وفصلها تماما عن هذا التعليم الأهلى الذى إستحدثه .

أما المدارس العليا فكانت مدارس عسكرية لامداد الجيش بالضباط المؤهلين . حتى مدرسة الألسن كانت مهمتها الأساسية ترجمة العلوم الفرنسية العسكرية وطبعها بالمطبعة الأميرية لتوزيع كتبها على طلاب المدارس . وكان كل مدرسيها من الفرنسيين علاوة على أشراف الجنرال(ستيف) على الجيش المصرى . وهؤلاء الخبراء الفرنسيون كانوا مدربين على الحروب الميدانية في جيش نابليون ومعاركه ، لهذا دربوا الجيش المصرى على تكتيكاتها ونهضوا به . وهذا الجيش حقق به محمد على إستقلاله بولاية مصر عن الباب العالى . وهذا الاستقلال كما يقول عبد الرحمن الرافعى : ثمرة الحروب التى خاضها في عصره . تلك الحروب التى بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة أبنائها سقوا أديم الأرض بدمائهم في ربوع مصر والسودان وفي صحارى الجزيرة العربية وجبال كريت والمورة وبطاح سورية والأناضول وفي قاع اليم بمياه اليونان وعلى سواحل مصر والشام . فلا جرم أن كان الجيل الذى عاش في عصر محمد على هو

أكثر الاجيال عملا وتضحية في سبيل تكوين مصر المستقلة . فالحق يقال أن مصر قد ألقت بأبنائها سخرة في أتون جيش محمد على وألقت بآبائهم سخرة أيضا . . في أرض محمد على . فالشعب الذى بنى مصر الحديثة أيامه بذاها دون أجر من ولى النعم لتحقيق طموحاته . فخاض حروبه بالكرباج والسجن والموازة فكانت السلطة سيفا ومسلطا فوق رقاب المصريين . حتى أصبحت هذه الكلمة في القاموس القومى معناها التعذيب والجلد والقبض والترحيل إلي المجهول . فالسلطة هى السخرة عندما سخرت الآلاف من الفلاحين ورحلتهم بلا هوادة أو رحمة لحفر قناة السويس . والسلطة هى التى سخرت الفلاحين في حفر الترع والرياحات وبناء القناطر الخيرية والمصارف الأميرية ومد خطوط السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية . كل هذا بلا مقابل ليتضور الآلاف جوعا وعطشا متعرضين أثناءها للهلاك . كل هذا جعل عبء زراعة الأراضى بما فيها أراضى الباشا ولى النعم وعزيز مصر كما وصفه كتاب السراى يقع على الشيوخ والنساء . لأن الأطفال لم يتركهم محمد على . فقد جندهم في مدارسه فانخفضت محصولية الأرض رغم التوسع الزراعى . لهذا كله كره المصريون السلطة التى هى الحكومة .

وفتوحات محمد على حيث زج بجيشه كانت إلي مجاهل أفريقيا للسيطرة على طرق التجارة الأفريقية حيث البهارات والعاج والذهب في السودان . كما هدف من وراء حملته على السودان مطاردة فلول المماليك الذين هجوا للنوبة بعد المذبحة . فخشى أن يؤسسوا لهم دولة بشمال السودان ويهددوه . واتجه للحبشة لتأمين منابع النيل . ووصل بقواته إلي شرق البحيرات بجنوب السودان لهذا الغرض . حيث خشى نضوب مياه النيل أو منعها عن أبعدياته . وحربه للوهابيين الأصوليين في نجد ليس مجاملة للباب العالى كما يفهم لكنها كانت تحالفا معه على وأد إنتفاضة عربية في الجزيرة . وهذا معناه ضرب البعث العربى الذى سيهدد الوجود العثمانى في العالم العربى . فالسلطان ومعه محمد على الذى أصبح يحكم مصر حكما ذاتيا خشيا من ثورة الوهابيين التى باتت تهدد حكمهما . والدولة العثمانية كانت تريد إسلاما على الطريقة التركية . فالوهابيين كانت دعوتهم أصولية للعودة إلي الاسلام مع نبذ البدع والضلالات . فكانوا مصلحين ولم يكونوا مرتدين لهذا حاربهم محمد على وشنع العثمانيون بدعوتهم . فدفع بالمصريين ليحاربوا أخوة لهم في الاسلام يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولم يقولوا كما قال العثمانيون السلطان ظل الله في الأرض . وهذه الظلال ظلمت وأرتشت وفسدت وفسقت .

ومحمد على أو الوالى العجوز كما وصفه هولت في كتابه (مصر والهلال الخصيب) قد

حقق الحكم الذاتي لمصر ، وورثه لأبنائه من بعده ، لكن الجيل الذى خلفه محمد على من المصريين أصبح في موقف جعله يتطلع إلي تغييرات جذرية في بلاده ولا سيما الأجيال التى سافرت إلي فرنسا حيث رأت الدنيا من حولها ، فكانت في جرة فعلا وطلعت برة ، فرأت الحضارة هناك فاستوعبها أبناؤها ، وعادوا على أمل إجراء التحديث في البلاد ، فرأى هؤلاء المبعوثون فيما رأوه شعوبا تقدر الحرية وتمارسها بلا غبن ، ووجدوا فيها الديمقراطية والعدالة والمساواة مما حقق رفاهية هذه الشعوب ، عرفوا المواطنة والوطنية والمشاركة في حكم بلادهم ، فوجدوا الشعب الفرنسى يوجه حكومته والحكومة تنصاع للارادة الشعبية ولا تسوق الشعب بالسخرة والعصا والكرباج فعاد المبعوثون من بعثاتهم وكلهم أمل في النهوض ببلادهم ، لكن محمد على تلقفهم وزج بهم في أتون حروبه ليحققوا طموحاته ، و أفكارهم تهامسوا بها ، وامتدت إلي الجيل التالى في الربع الأخير من القرن الـ ١٩ .

ومحمد على كان عنصرى النزعة وكان يتعالى على الشعب المصرى ويحتقره وهذا ما بينته عفاف لطفى السيد في كتابها (مصر في عهد محمد على) حيث بينت أنه كان يعتز بتركيته التى كان يتحدث بها أمام السفراء والجميع ، و تكلمه بالتركية - كان - حتى لا يتقلد بالمصريين ، لأنه كان هو وأبناؤه وحاشيته يتعالون عليهم بل يحتقرونهم ، وكانوا يعتبرونهم عبيدهم أصحاب الجلاليب الزرقاء ، و كانت اللغة الرسمية في الدواوين والمدارس هى التركية وكان الموظفون بالدولة العلية من الأتراك والفرنسيين والاقباط واليهود الذين يجيدون التركية ، ولهذا نراه قد عزل مصر تماما عن العالم العربى ، لينتزع منها هويتها العربية لا سيما وأن دعوة الخلافة العربية قد إنبعثت على أيدى الوهابيين فنادوا بأن يكون الخليفة عربيا قرشيا وليس تركيا أناضوليا ، وهذا ما جعل محمد على التركى النزعة يهب بالزج بقواته لوأد هذه الدعوة العربية في مهدها قبل إعلانها قيام الخلافة الاسلامية في مكة أو المدينة وليس في الأستانة ، فحرب محمد على لقتل الوهابيين ليس تقربا أو حبا للسلطان كما توهم المؤرخون لكنه حارب كرها للعرب لأن هذه الدعوة كانت ستلقى هوى لدى الأمة العربية مما سيهدد حكمه ، فعرب شبه الجزيرة لهم أبناء عمومة في مصر بالصعيد والبحيرة والشرقية وكانوا هم أيضا يروجون هذه الأفكار بل ثاروا وحاربوا المماليك من قبل مطالبين بحكم عربى قرشى وإحياء الخلافة الاسلامية الراشدية ، لهذا نجد محمد على يقصى المصريين المسلمين عن الوظائف العامة بدولته ، والحكم العثمانى طوال تاريخه لم يفرض آدابه أو لغته ، ولم يروج لعاداته وتقاليده ، لكن محمد على كما يقول شفيق غربال في كتابه عن محمد على

بين أنه فتح مصر للغة الترك وأدابها . واندثر لهذا التراث العربى من مصر . وأهل الصفوة كانوا من الأتراك والمماليك وأسرى المورة والسودانيين . رباهم على التركية لغة ولسانا وعادات وتقاليد ليضمن ولاءهم . كما ضم إلي مجتمع الصفوة التركى النصارى من مصر والشام . هكذا قال غربال في كتابه (محمد على الكبير) الذى نشره في الذكرى المئوية لوفاته وكتبه بتكليف من الملك فاروق وقتها .

ومصر في عهد محمد على كانت تعج بالأوربيين ولا سيما بالفرنسيين . ولم ينتبه أن هؤلاء إستعمار مقنع . فوجودهم كان له أثره السيء فيما بعد . ولا سيما في عصر إسماعيل . وكانوا سببا مباشرا في جلب الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ م .

والمؤرخون يلومون عمر مكرم على إتيانه بمحمد على وفرضه على الآستانة ولم يول مصريا. ومن بين هؤلاء المؤرخين الجبرتي الذى علل موقف عمر مكرم بأنه أراد أن يأتى بقائد محنك يواجه المماليك ويحد من طغيان الألبان وقد أمل عليه خيرا .

وفي عام ١٨٤٨ م . عزل إبراهيم باشا إبن محمد علي أباه لأنه كان قد خرف لكبر سنه . وقد أفتاه بذلك المشايخ . وتولى الولاية عدة شهور مات بعدها ليخلفه عباس حلمى عام ١٨٤٩ م بعدها مات محمد على في نفس العام .

وعهد محمد على كان كله غلاء فاحشا . حيث بلغ سعر الخبز عشرة أمثاله في الأيام الخوالى كما يقول الجبرتي الذى كان يمثل بقلمه وكتاباته معارضة قوية لمحمد على . فنراه لم يرض عنه ولم يرض محمد على عنه طوال حكمه . ولهذا نراه يصف إبراهيم باشا إبن محمد على عندما أرسله للصعيد للقضاء على المماليك والبدو هناك فيقول : وليس ببعيد على شاب جاهل سنه دون العشرين عاما وحضر من بلده ولم ير ما هو فيه . لم يؤدبه مؤدب . ولا يعرف شريعة ولا مأثورات ولا منهيات . لأنه فعل بالصعيد مالم يفعله التتار ببغداد . ولهذا كانت يوميات الجبرتي إبان حكم الأسرة العلوية حتى قيام ثورة ١٩٥٢ ممنوعة من النشر أو الطبع أو التداول حتى لا يعرف الشعب المصرى حقيقة عصر محمد على كما صوره الجبرتي كشاهد عيان . ففى كتاباته يصف هذا العهد بعهد الظالمين والظلم . حتى نراه في لومه لعمر مكرم الذى جلبه يقول : وأما السيد عمر مكرم الذى وقع له بعض ما يستحق . فمن أعان ظالما سلط عليه . ولا يظلم ربك أحدا وقد كان محمد على قد نفاه في دمياط . هذا عهد محمد على بما له وعليه وقد أوجزه الجبرتي عندما وصفه بقوله : فلا يهنأ بعيشه في الجملة إلا من كان مكاسا (جابى ضرائب) أو في خدمة

خدم الدولة .

وفى القرن الـ ١٩ شهدت مصر ثلاث إنتفاضات للفلاحين ضد محمد على والخديو إسماعيل . وكلها كانت في الوجه القبلى . وقد حدثنا على مبارك عن هذه الانتفاضات في كتابه (الخطط) . والانتفاضة الأولى كانت أيام حكم محمد على عام ١٨٢٠ م . في مديرية قنا ببلدة قفط وما حولها حيث أقصى الفلاحون رجال الادارة وطردهم وعينوا بدلا منهم . ولم يستطع جيش محمد على إخمادها إلا بعد شهرين وبصعوبة . والانتفاضة الثانية كانت في الأقصر حيث امتدت منها إلي إسنا وقنا عام ١٨٢٣ م . إبان حكم محمد على أيضا . وطالب الثائرون باقصاء محمد على عن الحكم . وانتقم منهم محمد على بوضع زعماء هذه الثورة في فوهات المدافع المنطلقة لارهاب الثوار . أما الانتفاضة الثالثة . فكانت أيام الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٥ م . واشتهرت بحادثة قاو . وشبت جنوب مدينة أسيوط . وأرسل الخديوى الجيش ودمرت مدافعه قرى قاو والريانية والقطرة والشيخ جابر وهج الأهالى إلي الجبال . وكان سبب نشوب هذه الثورة إجبار الخديوى الفلاحين على العمل بالسخرة في أراضيه الشاسعة في الوجه القبلى .

بداية عصر التنوير :

بدأ عصر التنوير بالحملة الفرنسية في أواخر القرن الـ ١٨ وتولى محمد على في مطلع القرن الـ ١٩ . وكان لظهور التنوير أكبر الأثر في العالم العربى قاطبة وأفريقيا عامة . فلقد كان جيش محمد على وأسطوله ثانى قوة عسكرية في العالم بعد إنجلترا . وهذا تحقق بفضل الخبراء والقواد الفرنسيين وعزيمة المصريين الذين إستوعبوا التكنولوجيا وقتها . وبنى العمال والفنيون المصريون في الترسانة البحرية بالاسكندرية ثانى أسطول بحرى في العالم . مما جعل الدول الأوربية تجتمع معا بأساطيلها لتدميره بقيادة إبراهيم باشا عندما كان يحارب ثورات المورة ضد العثمانيين فانقضت القوات البحرية الاجنبية عليه وهو رابض هناك بدون أى مقدمات .

وتنبه العالم العربى إلي أهمية التحديث بعدما رأى مصر في عهد محمد على الذى جعل التعليم في مدارسه قاصرا على المصريين والاتراك . لكن سعيدا واسماعيل تحمسا لاستقبال البعثات التعليمية العربية في هذه المدارس علاوة على الأزهر الذى كان يؤدى دوره التقليدى في التعليم الدينى بعيدا عن تدخل الولاة . والمطالع في دار الوثائق القومية على الرسائل الخديوية سيجد رسائل متبادلة بين سلاطين المغرب والخديو إسماعيل يطلبون منه فيها السماح للطلاب المغاربة بالالتحاق بالمدارس المصرية ولا سيما المدارس العليا كالطب والهندسة والصيدلة لأن

التعليم في عهده خطا خطوات كبيرة بفضل السياسة التعليمية التى وضعها على باشا مبارك . مما جعل تركيا تطلب من مصر المناهج التعليمية لادخال العلوم العصرية المصرية في بلادها . وانهالت البعثات التعليمية من بلدان المغرب وغيره من العالم العربى شرقه وغربه بما فيها الشام لتتلقى العلوم وتتدرب على الصناعات المتطورة في مصر . وكانت مصر تقدم أيام اسماعيل هذه المعونات لأى عربى يلتحق بمدارسها بلا مقابل . بل كانت تتحمل نفقات هذه البعثات بالكامل . ففتحت مصر الأزهر ومدارسها ومعاهدها ومصانعها ومطابعها أمام أبناء الأمة العربية إبان عهد إسماعيل ليتعلموا العلوم الحديثة في الطب والفلك والزراعة والهندسة . كما ألحقتهم بالمدارس العسكرية ليتعلموا ويتدربوا على فنون القتال . وكان الأزهر يستقبل الوافدين ويقدم لهم الكساوى والجراية والمسكن . ليرجع أبناء العالم الاسلامى بعد تعليمهم دعاة ومبشرين في آسيا وأفريقيا وتركيا نفسها . وكان به أورقة تضم أبناء كل جالية كالرواق الشامى والجاوى والهندى والمغربى والصومالى والتركى وغيرها من الأروقة التى مازالت حتى اليوم . وهى بمثابة مساكن الطلبة . يقيمون فيها بالمجان .

عباس يحكم مصر :

تولى عباس الأول كما أشرت في حياة جده محمد على خلفا لعمه إبراهيم . وتبعه سعيد إبن محمد على وإسماعيل إبن إبراهيم . وهؤلاء الثلاثة عباس الأول وسعيد وإسماعيل نراهم قد حددوا علاقاتهم بالباب العالى والقوى الأوربية . فنراهم قد تطلعوا إلي التنظيم الداخلى للبلاد كما يقول هولت . وانحسر تفكيرهم وطموحاتهم في إقامة إمبراطورية أفريقية بعيدا عن نفوذ السلطان . وتدخل القوى العظمى . إلا أن الولاية الوراثية للأسرة العلوية قد أصيبت باحباط بعد خلع الخديو إسماعيل عام ١٨٧٩ م . فنرى عباس الأول يكره الأوربيين ويتخلى عن صداقة الفرنسيين بالذات . فعزل الأجانب من الوظائف واستغنى عن خدماتهم وخبراتهم وخسر فرنسا عندما إلتجأ إلي إنجلترا مما أثار عليه الباب العالى الذى كان يخطط لاضعافه أو الاطاحة به ليطبق الاصلاحات والتنظيمات العثمانية التى طبقت في كل الولايات ما عدا الولاية المصرية . وسنحت الفرصة للباب العالى لفرض هذه التنظيمات عندما وافق عباس لانجلترا عام ١٨٥١ م . على مد خط سكك حديد بين القاهرة والاسكندرية لتسهيل نقل تجارتها وبضائعها من مستعمراتها بالهند إلي السفن البريطانية لتحملها إلي بريطانيا عبر الأراضى المصرية من البحر الأحمر . وغضبت تركيا وعارضت هذه الاتفاقية . ورفض السلطان التصديق عليها . لكن إنجلترا تدخلت لدى الباب

العالى بعدها وافق عباس على قبول هذه التنظيمات . ومن وقتها حلت إنجلترا محل فرنسا كوسيط ما بين والى مصر والباب العالى . وفي عام ١٨٥٤ م . مات عباس مخنوقا بقصره في بنها وتولى سعيد الولاية حسب فرمان ١٨٤٠ م . الذى حدد ولاية مصر لأكبر أسرة محمد على . وأيامه إستعاد الفرنسيون نفوذهم بمصر لأنه قد تعلم في فرنسا ضمن بعثة الأنجال التى كانت تضم على مبارك . وكان تربطه بفرد يناند ديليسبس صداقة منذ الصغر عندما كان أبوه قنصلا لفرنسا في مصر .لهذا أعطاه امتياز حق حفر وشق قناة السويس بمنتهى السهولة . وهذا الامتياز فجر أزمة بين إنجلترا وفرنسا . وكانت العلاقة بين سعيد وفرنسا وطيدة لدرجة أن نابليون الثالث لما هزمت قواته بالمكسيك إبان الثورة هناك ضد الاستعمار الفرنسى إستنجد بسعيد ليرسل الجيش المصرى لاخماد هذه الثورة . فأرسل القوات المصرية إلي المكسيك وحاربت في الأدغال هناك وأحرزت الانتصارات وأخمدت هذه الثورة .

عهد سعيد :

كان عهد سعيد رخاء لمصر ويعتبر عصرا ذهبيا للفلاح المصرى لأنه وزع الأرض على الفلاحين وخفف الضرائب وألغى السخرة وفاض النيل في أيامه . وزاد الدخل القومى زيادة لم تتحقق أيام محمد على . لكن سياسة سعيد كانت ضد التعليم فنراه يقول : الأمة الجاهلة أسلس قيادا من الأمة المتعلمة . وبعد هذه المقولة أغلق كثيرا من المدارس وأهملها . وسرح المصريين من الوظائف والجيش ومن بينهم على مبارك كبير مهندسى الجيش المصرى وقتها . وأبقى على الاتراك في وظائفهم . عكس إسماعيل الذى أخذ يهتم بالجيش فاستدعى بعدما تولى عام ١٨٦٣ م . بعثة أمريكية من الضباط الذين مارسوا الحروب إبان الحرب الاهلية الامريكية . وكما يقول لونج في كتابه (حياتى) من أنه إستعان بهم لتدريب الجيش المصرى .

عصر أسماعيل :

في مطلع عصر إسماعيل كانت مصر خزائنها عامرة حتى أنه إقتنى ثروة طائلة من ضياعه الشاسعة في الصعيد . وكان ظهوره كوال واسع الثراء جعله شرها للمال . والتفت حوله حاشية من اللصوص والأفاقين . وهذه الشراهة إمتدت إلي أراضى الفلاحين . فاستولى عنوة وبالاحتيال عليها حتى أصبح يستحوذ على خمس أراضى مصر والباقى ملكه للأتراك والأجانب . ورفع الأموال الأميرية إلي أربعة أمثال ماكانت عليه أيام سعيد باشا مما أفلس الفلاحين . وكان

مستشاره المالى إسماعيل صديق الذى أشتهر بالمفتش . وكان أصله جزائريا . وكان يعمل سايسا في إسطبل خيول الخديو ارتقى إلي أن أصبح وزير ماليته .

والخديوى إسماعيل أدخل لأول مرة الأساليب الحديثة والميكنة الزراعية في أراضيه بعدما نهب أراضى الفلاحين . وكان العمد والمشايخ يجرونهم بالسخرة للعمل في الدائرة السنية وفي أراضيهم . وكانوا يتبعون معهم سياسة الجلد بالكرابيج والحبس لقسرهم على العمل بالمجان . كما أقام المصانع فوق أراضيه مستعينا بالاجانب لادارتها وكانت مرتباتهم خيالية . ورغم هذا كله كانوا ينهبونه لدرجة أن الأراضى والمشروعات وتطوير أساليب الزراعة كل هذا لم يحقق عائدا يعادل نصف ما كان يدفعه الفلاحون كضرائب لسعيد باشا . لأن الدائرة السنية كان وراءها إسماعيل المفتش أكبر لص . وأصدق وصف للخديو إسماعيل ما قاله ولسن وزير المالية الانجليزى في عهده عندما قال : الخديوى يعصر مصر لابتزاز آخر قرش ، بعدها قدم إستقالته للقنصل البريطانى .

وفي عام ١٨٧٧ م . ألغى إسماعيل السخرة والرق رسميا في مصر ولم يكن هذا حبا في المصريين بل إكراها من الانجليز . والقصة أن ديلسبس إشترط علي الحكومة المصرية في قرار حق إمتيازه لحفر قناة السويس أن تقدم مصر للشركة ٨٠ ٪ من العمال يعملون في الحفر كسخرة بلا مقابل . والشركة تدفع قرشا يومية لكل عامل من الـ ٢٠ ٪ الباقيين . وانجلترا بالطبع كانت لمسألة حفر القناة بالمرصاد بعدما ضاعت منها هذه الصفقة . فالفرنسيون سوف يسيطرون على هذا الممر الحيوى الذى يوصل إلي مستعمراتها بالهند . لهذا أخذت تشن حملة دولية ضد الحكومة المصرية لأنها تتبع السخرة التى أهلكت الآلاف من الفلاحين . وحاول إسماعيل تحسين صورته في الغرب بعد غرقه في الديون الأجنبية . فمنع السخرة لكن فرنسا حكمت عليه بدفع ثلاثة ملايين جنيها كتعويض للشركة في مقابل إلغاء السخرة مع دفع تكاليف حفر ترعة الاسماعيلية . وكانت الشركة مسئولة عن نفقاتها . بعدها ألغى إسماعيل السخرة والرق عام ١٨٧٧ م . لهذا السبب .

والخديو إسماعيل إستطاع توطيد علاقاته مع السلطان بالآستانة وحاشيته عن طريق الهدايا والرشاوى . فحصل على فرمانين . الأول فرمان بتعديل نظام وراثة حكم ولاية مصر لتصبح قاصرة على أكبر أبناء الخديوى وليس على أكبر أفراد أسرة محمد على . والفرمان الثانى جعل مصر خديوية وأصبح إسماعيل يلقب بالخديوى . وكلمة خديوى معناها الملك بالفارسية .

وإسماعيل حصل على هذا اللقب بعدما قدم هدايا باهظة وبعدما أرسل الجيش المصرى للحرب في جزيرة كريت لمساندة السلطان ضد الثورة هناك . وهذا اللقب حمله إسماعيل تمييزا له عن باقى الولاة الذين كانوا يحملون لقب الباشا في بقية الولايات العثمانية . وهذا اللقب تلقب به ثلاثة إسماعيل وتوفيق وآخرهما الخديوى عباس الثانى . لكن إنجلترا عام ١٩١٤ م . بعد إعلانها الحماية على مصر وعزلها لعباس وفصل مصر عن الدولة العثمانية وإعلان السلطنة بها ألغت منصب الخديوى وخالفت فرمان عام ١٨٦٦ الذى قصر وراثة حكم الخديوية على أكبر أبناء الخديو ولجأت إلى اتباع ما جاء بفرمان عام ١٨٤٠ م . فولت السلطان حسين وبعده السلطان فؤاد الذى أصبح عام ١٩٢٣ م . ملكا على مصر . وظلت مصر ملكية حتى عام ١٩٥٣ م . بعده أصبحت جمهورية مصر .

وكانت سياسة الخديو إسماعيل هى إنشاء إمبراطورية أفريقية بعيدا عن النفوذ الأوربى والعثمانى فاتجه إلى التوسع في وسط أفريقيا لأنه لقن الدرس الذى ناله جده محمد على عندما حاول التوسع شمالا في الشام والاناضول فواجه الدول الاستعمارية التى تآمرت وحطمت إسطوله الرابض في مياه نفارين شمال اليونان ببحر إيجه . لهذا كان قادة جيش إسماعيل من الأمريكان ولم يستعن في فتوحاته بغيرهم من الاجانب حتى لا تشاركه هذه الدول الكبرى في هذه الفتوحات التى ادعى فيها أنه يصفى جيوب مراكز الرق في أفريقيا الوسطى . ولهذا بلغت امبراطوريته البحيرات الاستوائية بجنوب السودان وضم بعض مناطق الحبشة والصومال واستولى على إريتريا بالأسطول البحرى وضم له مصوع وزيلع على سواحل شرق أفريقيا . والحق هنا يقال أن هذه الفترحات كانت صحوة أفريقية حيث قام الجيش المصرى بإقامة المدن والمستشفيات والمدارس مما انتشل شعوب هذه المنطقة من وهدة تخلف القرون الأفريقية المظلمة . ووقفت الأزمة الاقتصادية التى عانى منها إسماعيل ضد هذا المد المصرى المترامى في قلب أفريقيا التى كانت فعلا أرضا بلا صاحب . لهذا لما احتلت مصر عام ١٨٨٢ م . كان من مخططات بريطانيا مع الدول الاستعمارية الكبرى هو تقليص النفوذ والتغلغل المصرى في أفريقيا . فلما انسحبت مصر من هذه المناطق تسابقت ألمانيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا للاحلال محل مصر ودار صراع رهيب حول إستعمار أفريقيا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأصبحت القارة الأفريقية السوداء والعذراء منتهكة من الدول الاستعمارية التى استنفدت ثرواتها ونهبت شعوبها وصدر أهلها كعبيد لأمريكا (القارة الجديدة) . فكانت تجارة الرقيق بواسطة الاوربيين تجارة من أحط وأقذر التجارات في

التاريخ الانسانى كله . وهذه وصمة عار لأوربا . فالمصريون لما ذهبوا إلي هناك أيام إسماعيل الذى ألغى الرق في مصر كانوا لحماية الأفريقيين من عصابات خطف الأفارقة ومداهمة قراهم وتصدير الأسرى من مراكز تجميع الرقيق في غرب أفريقيا لنقلهم بالسفن مع المواشى إلي أمريكا التى بناها هؤلاء الافارقة الذين سيقوا إلي مصائرهم المجهولة ليسوموا سؤ التعذيب والرق والخلع لهم من أصولهم الافريقية حيث زج بهم في العالم الجديد (الامريكتان) . وأصبحوا سجناء هاتين القارتين سجنا أبديا .

وبعد حصول إسماعيل على لقبه ساءت العلاقات بينه وبين السلطان لأنه أخذ يتصرف مستقلا عن الباب العالى متناسيا أنه وال تابع له . لهذا أطلق إسماعيل على نفسه لقب (عزيز مصر) كما كان أبوه محمد على يلقب نفسه . وهذا اللقب إشارة إلي أن مصر فرعونية وليست عثمانية . و لما زار إسماعيل أوربا عام ١٨٦٩ م . لدعوة ملوكها وأباطرتها لحضور حفل إفتتاح القناة وجه الدعوة باسمه متجاهلا السلطان . ولهذا بعض الملوك تحرجوا من حضور الحفل فأرسلوا نوابا عنهم ولا سيما وأن السلطان أو عز إليهم بمقاطعة هذا الحفل . ولما وصل مبعوث إنجلترا إلي السلطان بالأستانة يستأذنه في حضوره لحفل الاسماعيلية كلفه أيضا بأن يكون نائبا عنه في حضوره . وفى الاسماعيلية أقيم حفل خرافى . ولما بدأت مراسيم الاحتفال وأخذ الحاضرون يشيدون بالخديوى إسماعيل . وحسب تعليمات السلطان للمندوب الانجليزى وهى أن يدخل الحفل متأخرا . فلما دخل السرادق هب قائلا بصوت عال : إدعوا للسلطان أمير المؤمنين . فوقف الجميع بما فيهم إسماعيل مبهوتا وحوله الملوك وكبار الشخصيات يدعون بصوت عال . وكان هذا الاحتفال خياليا لدرجة تنافست الصحف العالمية في وصفه عدة أسابيع كان فيها حديث العالم عن فخامته . وفي الاحتفالات على مسرح دار الاوبرا التى أقيمت خصيصا لهذا الاحتفال عرضت رائعة فيردى (أوبرا عايدة) التى كان الخديوى قد كلفه بوضع ألحانها لتعرض ضمن برنامج حفل إفتتاح القناة . كل هذا البذخ وخزائن مصر كانت قد أنضبت والخديوى المفلس كان الدائنون يلاحقونه أمام المحاكم المختلطة . وكانت الأموال تجمع من الفلاحين بالكرباج لدرجة أنهم باعوا مواشيهم ودوابهم . وأنفقوا كل مدخراتهم ليوفوا فردة الحكومة . وهذا القسر الضرائبى ألجأهم للاستدانة من المرابين اليهود والأروام واليونانيين . حتى بلغت مديونيات الفلاحين وحدها حوالى ٢٠ مليون جنيه لهؤلاء المرابين . فرهنوا لهم أراضيهم وبيوتهم وأعلنوا إفلاسهم . حتى الخديوى نفسه من كثرة ديونه أعلن بدوره إفلاسه معهم

. وكان الخديوى إسماعيل ديكتاتورا ذكيا فلما ألقيت خطبة العرش الخديوى عام ١٨٦٦ م وهى أول خطبة عرش في مصر وجه الخديوى إلي مجلس شورى النواب خطبته يعدد فيها مآثر جده محمد على وأبيه إبراهيم باشا على مصر والشعب المصرى . بين أن مصر قبلهما كانت زرية . فرد عليه نواب الأمة بعريضة يدعون فيها (. لأفندينا الأفخم بدوام سعوده) .لأن المجلس كما يقول (عبد الرحمن الرافعى) كان (شرابة خرج) . وكأن قدر مصر أن تكون مجالسها النيابية والتشريعية شرابة خرج لكل حاكم . حتى باتت ديكورا يتزين بها ومظهرا لديموقراطية زائفة . فمجلس شورى النواب أيام إسماعيل طرد إثنين من المعارضة بعدها وقف الخديو إسماعيل أمام المجلس ملوحا وفى يده ورقة مطوية بعدما تفشت أخبار سرقاته وتبديده . فقال أمام نواب الأمة : هذه صحيفتي بيدى فلسنا نحن لصوصا أو مبددين . ثم هددهم وتجاهلهم قائلا : لا تسألونى بعد الآن .... فأنا لست مسئولا أمامكم . فصفق له الحاضرون لخطابه التاريخى والجامع الشامل ومنذ هذه اللحظة عرفت مصر الدجل السياسى الذى لازمها ... وأهدر الخديو إسماعيل الديموقراطية بلا مواربة وعلانية متحديا نواب الأمة الذين اشترى ذممهم بتعييناته لهم في الوظائف العامة والادارية . فلهذا ظلت المجالس النيابية في أيدى خديوى مصر نقمة لانعمة بل لعنة مصر الكبرى . فالمعارضة بها منبوذة وملفوظة من العبد والرب والبقية لا تنطق عملا بالمثل البوذى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم إلا كفرا بمصر . وكم جرت هذه السياسة النيابية المقادة المصائب لها . ودقت بمسامير الخراب في نعشها . فالديموقراطية بلا ضمانات كالقصور فوق الرمال وكالسراب في يوم حار ....

ديـــون مصــــر :

مصر والحق يقال قبل حكم إسماعيل كانت بمنأى عن التدخل العثمانى أو الأوربى في شئونها الداخلية ولا سيما الأمور المالية . وكان الخديوى إسماعيل ممنوعا حسب فرمان ١٨٤٠ م من الاستدانة باسم الحكومة المصرية إلا بعد موافقة الباب العالى . فلهذا إستدان بصفته الشخصية من البنوك الأجنبية ولا سيما من بريطانيا حتى وصلت جملة الديون ٢٥ مليون جنيه بفائدة تتراوح ما بين ١٢و ٢٦ ٪ وهذه كانت أعلى فائدة عرفتها البنوك العالمية . وهذه المبالغ أنفقت على الاحتفال التاريخى بافتتاح قناة السويس التى أصبحت غرما لا غنما في عهده . ولم يستطع الخديوى المفلس توفية الديون أو حتى فوائدها المتراكمة . لأن الأحوال الاقتصادية أصبحت متردية ولا سيما وأن أسعار القطن المصرى إنخفضت عالميا . لأن الثورة الأمريكية

إنتهت وأخذ القطن الأمريكى ينافس القطن المصرى والأسبانى في الأسواق العالمية . وهذا الافلاس الخديوى أجبر إسماعيل على إستدانة ٧ ملايين أخرى من بنوك إنجلترا . مما جعل الباب العالى يحتج بشدة لدى حكومتها رسميا . لأن هذا القرض بالذات كان بضمان أملاك الدولة . لكن إسماعيل إستطاع بالرشوة والهدايا للباب العالى الحصول على فرمان باطلاق يده في شئون مصر دون الرجوع إلي الباب العالى لأخذ رأيه أو موافقته . فحول بعدها كل ديونه الشخصية وجعلها ديونا عامة على الحكومة المصرية وحصل بهذا على قرض ثالث بـ ٣٢ مليون جنيه . ولشدة شراهة إسماعيل للمال أصدر عام ١٨٧٢ م . قرارا بدين المقابلة وهو عبارة عن تعهد الدولة السنية بالتنازل عن نصف الضرائب على الأطيان الزراعية لو دفع أصحابها ضرائب ست سنوات مقدما . وفى عام ١٨٧٤ م . طرح إكتتابا عاما بدين الروزنامة تتعهد الدولة بدفع ٩ ٪ فوائد سنويا للمساهمين في تمويله . ورغم هذه الأموال أصبح الوضع المالى سيئا للغاية في مصر . فالديون تتراكم مع فوائدها وهذا جعل إسماعيل يبيع أسهم مصر في القناة بأربعة ملايين من الجنيهات إلي بيت آل روتشيلد الانجليزى . وشجعت الحكومة البريطانية إتمام الصفقة ولا سيما وأن الدولة العثمانية تعانى أيضا الافلاس . وبعد إتمام بيع الصفقة طلب إسماعيل من إنجلترا إرسال لجنة لبحث الوضع المالى في مصر لأن البنوك رفضت تسليفه . فأرسلت لجنة (كيف) للاطلاع على ميزانية الحكومة المصرية . فلما قدمت اللجنة تقابل معها إسماعيل المفتش وزير المالية وقدم لها ميزانية مزورة . وبدهائه أقنع اللجنة بأرقامها الخيالية والمفبركة . بعدها نشر (كيف) تقريره الذى جاء على هوى إسماعيل حيث أعلن فيه أن حالة مصر المالية متينة . لكن هذه اللجنة بنشرها هذا التقرير عالميا ثبتت أن ديون إسماعيل حكومية وليست شخصية عليه . وهذا التقرير تضمن تعليقا على الديون جاء فيه : أن مصر كانت تعانى من الجهل والخيانة والتبذير والنفقات الغير مدروسة . وهذه العبارة تنطبق على كل ديون مصر . فعبد الناصر باع الغطاء الذهبى في البنك المركزى (الأهلى وقتها) لتسديد الديون . والسادات أعلن في مؤتمر صحفى إستعداده لرهن أو بيع قناة السويس لتسديد ديون مصر . فالشيء بالشيء يذكر . فديون مصر بلغت عام ١٨٧٥ م . حوالى ٦٨ مليون جنيه . دخل منها الميزانية ٤٤ مليون جنيه والباقى كان سرقات وعمولات أو ما يطلق عليه حاليا خدمة الديون . وبلغ النصب العالمى على خديوى مصر كما يقول (كيف) في تقريره أن الغرب كون مصارف وهمية ومفتعلة كالمصرف الانجليزى - المصرى . والمصرف الايطالى - المصرى . والمصرف الفرنسى - المصرى . وهذه المصارف

أنشئتها المصارف العالمية خصيصا لاقراض مصر بفوائد تفوق أسعار الفوائد العالمية ولتبتعد هذه المصارف الكبرى عن الشبهات أو الانتقادات العالمية . ولهذا وصف (كيف) هذه المصارف بأنها أنشئت لا قراض الخديوى بفوائد عالية جدا وبشروط موبقة ومجحفة . وبين في تقريره - أيضا - أن المشروعات التى أقيمت كان مبالغا في أسعارها وأضعاف الاسعار العالمية فبلغ تكاليف مشروع إنشاء خطوط السكك الحديدية أربعة أضعاف سعره السائد وقتها . أما قناة السويس فكانت غرما لمصر وليس غنما . لأن الدولة لا تجنى منها شيئا ولا سيما بعدما باعت حصتها فيها من الأسهم وكانت التجارة العالمية تمر قبلها عبر الأراضى المصرية نظير دفع مكوس للحكومة المصرية . وهذا إنتهى تحصيله بعد فتح القناة . والحق يقال هنا أن محمد على عرض عليه مشروع شق القناة فرفضه بشدة حتى لا يجلب عليه أطماع الدول الأجنبية فتتدخل في شئون مصر الداخلية . وتقرير (كيف) كان ظاهريا مع الخديوى لكن وضع فيه كل الأسباب التى أدت إلي تراكم الديون . فعادت اللجنة عام ١٨٧٧ م . ومعها مشروع بتأليف لجنة دولية لفحص ميزانية مصر . وهذا يذكرنا بلجنة صندوق النقد الدولى التى جاء ت مؤخرا للقاهرة لاعطاء خطاب النوايا و لاعادة جدولة ديون مصر .

وهذه اللجنة أخذت تدير الميزانية المصرية . فباعت إمتياز إستغلال المناجم والتنقيب على البترول لشركات بريطانية . كما قامت بتصدير عظام الموتى البالية في المقابر لاستخلاص عنصر الفسفور منها . وضاعفت الجمارك وأسعار النقل والشحن بالسكك الحديدية . وهذا جعل الأهالى يلجئون للشحن والنقل النهرى . وهذه الاجراءات تسببت في كساد التجارة والصناعة في مصر . وقامت اللجنة بتخفيض مصاريف القصر الخديوى والحد منها وأوقفت صرف مرتبات الموظفين وسرحت جزءا كبيرا من الجيش بحجة التوفير . لكن هذا الاجراء بالذات كان لاضعاف القوة العسكرية المصرية للتمهيد للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م . وحاول إسماعيل بكل وسيلة توحيد هذه الديون العامة بفوائد ثابتة وإعادة جدولتها . واقترح دفع ٢٥ ٪ من الديون الخاصة كفوائد دمعة واحدة وكتعويضات تستنزل من قيمتها فيما بعد . فأصدر قرارا بانشاء صندوق الدين العمومى يقوم بدفع ٧ ٪ فوائد سنويا من القيمة الاسمية لهذه الديون لمدة ٦٥ عاما بعدها تستهلك نهائيا . ورهن إيرادات أربع مديريات علاوة على محافظتى القاهرة والاسكندرية . كما يقوم الصندوق بتحصيل الجمارك وريع أراضى الدائرة السنية . وبهذا واجه إسماعيل الادارة الأجنبية لمزانية بلاده . ولا سيما في أواخر عهده . فأصبح صندوق الدين العمومى يستولى سنويا على

٥٠٪ من إيرادات مصر والباقى كان يتركها للحكومة المصرية . وكان المشرفون على هذا الصندوق بريطانيين وفرنسيين وإيطاليين ونمساويين . ولهم سيطرتهم الكاملة على الميزانية المصرية يتدخلون في أبواب صرفها . ولهذا كانت قراراتهم ضد الاصلاحات والتنمية . ولما تولى رياض باشا الوزارة أصبح لبريطانيا نفوذها على الحكومة المصرية فعينت ولسن وزيرا بريطانيا للمالية . وكان راتبه ضعف راتب رئيس النظار .

وأمام هذا الكساد الاقتصادى والاضرار السياسى اللذ ين سادا البلاد . أجبرت الدول الأوربية الدائنة إسماعيل على التنازل لابنه توفيق عن الخديوية عام ١٨٧٩ م . ونفى للآستانة حيث توفى هناك عام ١٨٩٥ م . وكانت مصر وقتها ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى تجتر الفقر والديون التى جلبها بطيشه . وليلة وصول الجثمان إلي الاسكندرية بالباخرة غير اللورد كرومر برنامج الأوبرا الخديوية لتمثل أوبرا عايدة رائعة فردى فوق مسرحها والتى مثلت في الاحتفال التاريخى الذى أقامه إسماعيل عند افتتاح قناة السويس . ودفن على موسيقاها جثمانه بالقاهرة . وكان هذا تشفيا من كرومر .

****

****

**

*

كانت مصر دائما يحتلها مستعمر واحد لكن في عام ١٨٧٦ م . أصبحت محتلة من ١٦ دولة بقناصلها ورعاياها بانشاء المحاكم المختلطة والامتيازات الاجنبية .

وقصة الامتيازات الاجنبية أن التجار الأجانب في ولايات الدولة العثمانية كانوا رعايا أجانب يطلق عليهم المستأمنون . أى أنهم أشخاص منحوا الأمان وحق الاقامة . وكانت الدولة تعاملهم كأهل الذمة وفى القرن الـ ١٨ أصدرت الدولة العثمانية تنظيمات لهؤلاء الأجانب من الناحيتين المدنية والقانونية . وجعلت شكوى الأجنبى يتقدم بها لقنصله ليحكم فيها بواسطة محكمة تعقد في القنصلية . وكان الهدف من وراء هذه التنظيمات تشجيع التجار والتجارة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية . وهذه التجارة قد راجت فعلا بعد صدور هذه التنظيمات . فالامتيازات الأجنبية كانت في مجملها معاهدات تجارية بينها وبين هذه الدول . لكن مع تهاوى الدولة العثمانية وضعفها أصبحت هذه المعاهدات إمتيازات للاجانب المقيمين الذين يتمتعون بحماية الدول الأجنبية . فاعتبروها حقوقا مكتسبة لهم . فظهرت الحماية القنصلية للرعايا الأجانب . وامتدت هذه الحماية فأصبحت حمايتهم أمام القانون العثمانى في كل الولايات العثمانية . وفي القرن الـ ١٩ توسعت التجارة في مصر ولا سيما بعد إفتتاح قناة السويس ومد خطى السكك الحديدية بين القاهرة والاسكندرية وبين السويس ومحطة كوبرى الليمون بالعاصمة . وزاد عدد الجاليات الأجنبية في مصر زيادة كبيرة وظهرت الامتيازات الأجنبية في شكل إعفاء الأجانب من الضرائب .

الإمتيازات الأجنبية

في ظل هذه الامتيازات ظهرت مشاكل بين رعايا دولة وأخرى حيث كان القناصل يحاملون رعاياهم . لهذا أوعزت الدول الأوربية للباب العالى أن يصدر أوامر للخديو إسماعيل بانشاء المحاكم المختلطة . فأصدر بها قانونا عام ١٨٧٦ م . وضعه نوبار باشا رئيس النظار . وتشكلت هذه المحاكم من مندوبين عن الـ ١٦ قنصلية ليقوموا بالحكم في قضايا الأجانب حتى ولو كان أحد أطراف النزاع من المصريين أو الحكومة المصرية بما فيها الخديو نفسه . وأحكام هذه المحاكم واجبة النفاذ . وهذه الحقوق القضائية كان يطلق عليها المصريون لفظ الحماية . وبها كان لأحقر

أجنبى أو أى رعية أجنبية اليد العليا في مصر حتى على الخديو ولى النعم . وأى حكم تصدره هذه المحاكم على أجنبى كان له حق الاستئناف أمام المحاكم المختلطة ويرحل الأجانب إلي بلادهم لينفذوا فيها الأحكام . لهذا كانوا يعودون إلي مصر بعد مدة بأسماء أخرى .

وعلى هذا كان الأجانب يتاجرون في الممنوعات علانية ويدخلون البلاد بلا تفتيش جمركى ويقتلون وينهبون ويدعون كذبا على المصريين بأى تهمة لجرهم إلي أتون هذه المحاكم . لهذا كان الأجانب يفرضون (الفردة) على الأهالى تحت تهديدهم بهذه المحاكم التى أصبحت موئلا للظلم وكانت مكاتب المحامين الأجانب منتشرة في البلاد ليوكلهم المصريون عنهم في قضاياهم أمام هذه المحاكم وكان مندوبو القناصل يجاملون رعاياهم ويحابونهم والمصريون كانوا يجرون أمام ساحاتها لا حول لهم ولا قوة ليقفوا أمام قضاة لا يرحمونهم ولا يفهمون ما يقال وما يدور من حولهم . فكان المصرى يقف كالأطرش في الزفة موكلا عنه محاميا أجنبيا لا يعرف أن كان معه أو عليه فمعظمهم كانوا خربى الذمة . ولهذا صدرت آلاف الأحكام على المصريين كلها زيف وبطلان . وأصبحت هذه المحاكم الظالمة وسيلة ظلم وإرهاب وليست أداة عدل وإنصاف .

والمطالع لمذكرات نوبار باشا في مصر ترجمة الاستاذ نبيل زكى . سيطالع عن مأساة الامتيازات الاجنبية حيث نرى نوبار يحكى قصة الفلاح المصرى الذى دخل على مدير المديرية ثائرا وحانقا وهو يلقى بعمامته على الأرض قائلا للمدير : أنت لا تخاف الله ولا أفندينا . أنت لا تعرف غير القناصل الذين تسجد أمامهم وتعفر جبينك بين أيديهم . وقال المدير لنوبار : مكتوب على الجبين أن أسمع اليوم من يقول الشتائم . وانصرف عن الفلاح الذى التقط عمامته لا عنا . وأصدق وصف لهذا الطاعون الذى اجتاح مصر ما قاله نوبار نفسه : إنها سنوات نهب كل موارد مصر على أيدى أجانب يستنزفون كل قطرة من عرقها ودمائها . وحكام يحتقرون شعب هذا البلد ويرتعدون هلعا أمام أى صعلوك أو محتال .

وكان المصرى إذا تعرض لظلم أجنبى يلجأ إلي قنصله بعيدا عن الحكومة المصرية لينال حقوقه وكان القناصل يتدخلون في دعاوى الأهالى ضد رعاياهم . لكن لو كان الأجنبى صاحب الشكوى كان القنصل يحولها إلي أزمة دبلوماسية مع الحكومة المصرية بل يلزمها بدفع التعويضات فورا عن المصريين لصالح رعيته وغالبا ما يكون مغاليا فيها .

والامتيازات الأجنبية جعلت بعض المصريين يتحايلون بشتى الوسائل للانتساب إلي دولة أجنبية للحصول على الحماية ليعيشوا آمنين في وطنهم . وكان معظمهم ينتسبون إلي الجزائر

وتونس بالذات ليحافظوا على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ومصالحهم وتجارتهم على تراب وطنهم بهذه الهوية الاجنبية . لأن الجنسية المصرية كانت وحدها لا تكفى . وكانت عملة رديئة في هذا الزمن الردىء . وكان الأتراك حانقين على هذه الامتيازات التى سلبتهم نفوذهم ولم تحقق تركيتهم لهم هذه الحماية وهذه الامتيازات . وهذا ما جعل الأمير محمد توفيق (ولى عهد الملك فاروق) يقول معلقا : كان الطربوش العثمانلى فيما مضى معتبرا فأصبحت البرنيطة في مقام التعظيم والاحترام . لأن هذه الامتيازات أعطت لهلافيت أوربا ورعايا الدول التى استعمرها الغرب حصانة تفوق حصانة خديو مصر نفسه .

والشرطة المصرية كانت لا تستطيع القبض على أجنبى أو استجوابه حتى ولو كان متلبسا بجريمة قتل إلا بعد استئذان القنصلية التى يتبعها وفى حضور مترجم منها لحضور التحقيق . وكانت هناك قنصليات مشهورة بسوء السمعة لأنها كانت تماطل في إعطاء الاذن أو ارسال مترجم للحكومة المصرية . كل هذا كان لاعطاء الفرصة للمتهم الاجنبى ليخفى معالم جريمته أو لمضايقة الشاكى المصرى فينصرف عن شكواه . ولما احتلت فرنسا دول المغرب العربى اصبح المغاربة رعايا فرنسيين . والشوام أيام الاحتلال الفرنسى لبلادهم والفلسطيون ابان الانتداب البريطانى اصبحوا جميعا حماية أجنبية في مصر . وهذه الامتيازات الاجنبية بما فيها المحاكم المختلطة الغاها النحاس باشا عام ١٩٣٧ م . بعدما وقع معاهدة ١٩٣٦ م . التى عرفت باتفاقية مونتريه . وحدد النحاس في هذه الاتفاقية نهاية هذه الامتيازات والغاء المحاكم المختلطة في عام ١٩٤٩ م . وبهذا تخلصت مصر من وباء إجتاحها ٧٣ عاما .

العرابيون والحياة الدستورية :

كان يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م . يوما مشهودا في تاريخ الحركة الوطنية المصرية حيث كانت مصر كلها في قبضة إبنها عرابى يشهر بها في وجه الخديو توفيق في وسط ساحة عابدين يقسم باسمها أنها لن تورث بعد اليوم . وخلفه وقف أبناء مصر مصطفين يردون لها إعتبارها ويمسحون عن غرتها غوابر الزمن . ويواسونها بعد قرون خلت فيها تجتر محنها . فهذا عرابى يقف صلبا غير هياب يطالب باسم الأمة بالدستور والبرلمان والديموقراطية وإقالة وزارة رياض . فانصاع الخديو لمطالبه . وعمت الفرحة البلاد . وأخذ المصريون يتعانقون في كل مكان . حتى في القرى والنجوع كان الفلاحون فرحين بالحرية العرابية . أما الانتهازيون من العمد والمشايخ فقد وقعوا على عرائض الدستور لعرابى ورفاقة كرها في رياض الذى ألغى السخرة وليس حبا في

الدستور أو الديموقراطية . لأن إلغاء هذه السخرة جعلهم غير قادرين على تسخير الفلاحين في أراضيهم وأبعدياتهم . فاقالة رياض كانت على هواهم . كما أنهم لم يكونوا قادرين على مقاومة الطوفان الشعبى الهادر الذى لا حديث له إلا عن الدستور والحرية والديموقراطية والعهد العرابى الجديد .

وفي عام ١٨٨١ م . تمت أول إنتخابات نيابية في مصر وكانت حرة . ولم يتدخل فيها العرابيون ولم يدخلوها . وتشكل المجلس النيابى الجديد وكان افتتاحه عيدا قوميا في البلاد حيث نزح الأهالى من أقصى الصعيد والأرياف ليشهدوا هذا اليوم التاريخى . وامتلئت الشوارع بالزينات احتفاء بمصر الديموقراطية . والتف المواطنون عن بكرة أبيهم حول مبنى الاجتماع ليحيوا نواب الشعب وفي يناير ١٨٨٢ م . تقدمت الحكومة بمشروع الدستور إلي المجلس لمناقشته وإقراره إلا أن إنجلترا وفرنسا إعترضتا على النظام البرلمانى وقدمتا مذكرة احتجاج مشتركة إلي الخديو بقصر عابدين . وهذا الاعتراض كان على هواه لأنه إجهاض لارادة الشعب وردة إلي حكمه المطلق لعبيده كما كان يحلوله أن يسمى الشعب المصرى . لكن محمد شريف رئيس الحكومة تجاهل المذكرة تماما مما جعل انجلترا وفرنسا يتغاضيان عن اعتراضهما . وصدر الدستور وكان أول دستور لمصر اطلق عليه دستور عام ١٨٨٢ م . بعده أصبحت مصردولة دستورية لأول مرة في تاريخها والفضل يرجع لعرابى والعرابيين وشريف باشا . وقابل الشعب المصرى هذا العمل التاريخى بعدما أصبح له دستوره ونوابه بالافراح وكانت الاهالى تتسابق في توزيع الحلوى والشربات تعبيرا عن فرحتها الغامرة .

ولقد كان لاصدار الدستور وبعث الديموقراطية في مصر أثره على المجتمع المصرى فظهرت فيه المحافل والاجتماعات السياسية . وأخذ الشعب يتعلم السياسة من خطبائها وعلى رأسهم عبد الله النديم . فباتوا يسمعون ويطالعون في الصحف عن الحقوق والواجبات وعن أخبار المجلس النيابى وما يدور فيه من إقتراحات ومناقشات . وأصبح الوزراء مسئولين أمام نواب الأمة يحاسبونهم وكان لهذا المجلس الوليد قوة أرهبت الخديو والأوربيين معه . وسلطت الصحافة على مفهوم الشعب مصدر السلطات وقامت بتوجيه النقد للحكومة . كل هذا كان جديدا على الشعب المصرى .

مذبحة الإسكندرية :

لم يكن للعرابيين أى أطماع شخصية وهذا متفق عليه وواضح في قراراتهم . فلم يدخلوا

في المجلس النيابى ولم يتولوا كمحافظين ولم يتول من زعمائهم الوزارة سوى عرابى الذى أصبح وزيرا للجهادية في وزارة البارودى . وهذا طبيعى أن يتولى عرابى المنصب حتى يحمي الثورة العرابية وإنجازاتها القومية بسيطرته على الجيش . لكن الخديوى لم يعد يثق في الحكومة الجديدة ولم تعد هى تثق فيه . وهذه العلاقة المتبادلة بعدم الثقة جعلت بريطانيا قلقة على مصالحها في مصر والخديوى أصبح لا يبت في قرار إلا بعد أخذ رأى القناصل الأوربيين وقد خاب من إستشارهم . والدولة العثمانية التى تتبعها خديوية مصر أصبحت بدورها في قلق من الثورة العرابية وخشيت أن يمتد تأثيرها إلي باقى الولايات التابعة لها . لهذا إتفقت مع إنجلترا وفرنسا على إرسال إسطوليهما إلي مياه الاسكندرية في مايو ١٨٨٢ م . وأعلنت بريطانيا أن إسطولها أتى لتأمين القناة من عرابى . وهذا طمأن فرنسا عليها . وكان الاتفاق بضرب الاسكندرية (لتهويش) عرابى فينصرف عن هذه القناة . لكن السياسة كذب وخداع ومصالح شعوب أولا وأخيرا .

وتوفيق كان في أول عهده متحالفا مع العرابيين بل شجع إنضمامهم إلي جماعة الحزب الوطنى التى كان يشجعها ليتخذ منها أداة لإشهارها أمام النفوذ الانجليزى بالذات الذى خلع أباه من الخديوية . لكن هذه الجماعة انقلبت عليه لتحقيق أطماع قومية كان قد روج لها الخديو توفيق نفسه . ومن بينها الديموقراطية والحياة الدستورية ليتستر وراءها لحمايته من النفوذ الأوربى . وليحكم قبضته الحاكمة على مصر . ولما انقلبت عليه ارتمى في أحضان الانجليز ولا سيما بعد ظهور دعوة الأمير حليم مطالبا بالولاية لأنه أحق بالخديوية من توفيق حسب فرمان عام ١٨٤٠ م من الباب العالى . وأقال توفيق حكومة البارودى وأصبحت مصر بلا حكومة وظل عرابى وزيرا للجهادية رغم هذا لأن الجيش يسانده . واجتمع عرابى مع قناصل الدول ووقع لهم على تعهد يكفل لهم فيه سلامتهم وسلامة رعاياهم في مصر . وهذا جعل الخديوى يتحرك من وراء ستار ليكشف للأوربيين أن عرابى لا يقوى حتى على حماية نفسه . وهذا التعهد رفع من أسهم عرابى أمام القناصل مما صرف معظم الدول عن الوقوف بجانب الخديو . فخطط توفيق مع القنصلية الانجليزية مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو عام ١٨٨٢ م . وأخذت القنصلية تجلب البنادق ليلا من الاسطول الانجليزى الرابض في مياه الاسكندرية ووزعتها سرا على الأجانب . وجمع عمر لطفى العربان من البحيرة ووزع عليهم النبابيت التى إشترتها الضبطية بالاسكندرية . وزجت إنجلترا بأحد رعاياها المالطيين لإفتعال معركة مع الأهالى بعدها انطلق الأجانب باطلاق

الرصاص وبكثافة . ونزل العربان بنبابيتهم التى وزعتها الضبطية عليهم ومعهم رجال المباحث في زى مدنى . وأخذوا ينقضون على المارة وشوهد عمر لطفى وسط الهياج كما يقول بلنت . وكان يصيح قائلا : سيبوهم يموتوا ولاد الكلب . وأخذ المتآمرون يحرقون الاسكندرية ويأخذون المنهوبات إلي قصره . وكان الخديوى قد أرسل له رسالة من مكتب تلغراف قصر النيل يقول فيها : إما تخدم عرابى في ضمانته للأمن وإما تخدمنا . فوقف عمر لطفى والاسكندرية تحترق أمامه وحوله رجال الشرطة يعيثون فسادا حتى إضطر الجيش إلي النزول للشوارع وإطفاء الحرائق بعد خمس ساعات من المذبحة الرهيبة . وقبض على بعض زعماء هذه الفتنة فاعترفوا بأنهم عملاء لعمر لطفى المحافظ . وأطلق إسم نيرون الاسكندرية الصغير حاليا على أكبر شوارعها . وعين وزيرا للحربية بدلا من عرابى بعد دخول الانجليز مصر إعترافا بفضله وبطولته بالاسكندرية . وكان بقية المخطط إقامة مذبحة أخرى بالعاصمة لكن عرابى أجهضها . وقامت في طنطا ودمنهور محاولات لاشعال مذابح هناك . لكن وكيل مديرية دمنهور أخمدها في حينها وعوقب بعدها بالطرد من الخدمة والنفى لمدة ١٥ عاما بعد الاحتلال بتهمة تحريض الجماهير وقتها .

وأخفى الخديو ملف التحقيق في هذه المذابح لكن الانجليز فتحوه بعد الاحتلال مباشرة وشكلت لجنة إنجليزية للتحقيق برئاسة بيمان . بعدها أرسل رسالة لتشرشل يصف فيها الخديو بقوله : هذا الرجل الذى قد ذهبنا لنحارب من أجله في مصر . أكبر دجال . فقد دبر مذبحة الاسكندرية عن طريق رجاله . وعرابى منها برىء . وتقرير بيمان الذى كتبه بعد التحقيقات المستفيضة وثبت فيه بعدها براءة عرابى من المذبحة جعل الحكومة البريطانية تعدل سرا عن تقديم عرابى إلي المحاكمة بهذه التهمة التى سقطت عنه .

ضرب الاسكندرية :

أول مرة في تاريخ مصر يحارب الجيش المصرى بقيادة مصرية ويدافع ببسالة عن ترابها في يوم ١١ يوليو الأغبر . فلقد كان الجو السياسى إبان عرابى قد جعل مصر كما يقول المؤرخ أحمد شفيق في مذكراته مسرحا سياسيا للخطباء في كل مكان . وكان السبب في هذه الحياة الدستورية التى اجتاحت البلاد لدرجة كان المغنى المشهور محمد عثمان عندما يسأل : أى الافراح ستغنى الليلة ؟ كان يجيب فورا : الفرح الفلانى مع عبد الله النديم (خطيب الثورة العرابية) . وكان النديم يشرك معه في تبادل الخطابة الطلبة ومن بينهم سعد زغلول الذى كان يقود المظاهرات وقتها وتربى هؤلاء الطلبة في مدرسة الوطنية العرابية . وبث النديم بخطبه في الشعب

روح القومية والحرية وحب مصر . وكان عرابى وزملاؤه حريصيين على حضور الاجتماعات والمحافل الخطابية . وكان عرابى نفسه خطيبا مفوها يثير في الجماهير الحماس الفياض . وكانت هذه الخطب الوطنية تجعل الجماهير المحتشدة تخرج بعدها أهل سياسة كما يقول المؤرخ أحمد شفيق . ولعبت الصحافة المصرية دورا أساسيا في تعبئة الرأى العام المصرى بهذه الروح الوطنية التى سادت في البلاد طولا وعرضا . وكانت تنتقد الخديو صراحة وتنشر الأحداث العالمية وأخبار الثورات في الخارج . و تركز على الحروب التحريرية مسلطة الضوء على زعماء الحرية وقتها . ومما ساعدها وصول الصحف الأجنبية التى كانت تصل للأجانب في مصر وكانت أخبارها تترجم وتنشر في الصحف المصرية . وكان للثورة التعليمية التى قام بها أيام إسماعيل المصلح على باشا مبارك أثرها . حيث جعل التعليم مدنيا حتى فى المدارس العليا . فطلاب هذه المدارس كانوا أيام عرابى طليعة المصريين المستنيرين الذين فتح أمامهم على مبارك أبوابها لينهلوا فيها العلوم العصرية . وهؤلاء تربوا على الوطنية وعاصروا الاحتلال فكانوا مع مطلع القرن العشرين قادة الرأى والفكر في مصر كما سيجيء بعد .

وفي هذا الجو المشحون وطنية تقدمت إنجلترا وفرنسا في ٢٥ مايو ١٨٨٢ م . بمذكرة للخديوى يطلبان فيها نفى عرابى خارج مصر وإقالة حكومة البارودى مستغلين وجود الأسطولين الانجليزى والفرنسى في مياه الاسكندرية . وقبل توفيق المذكرة . وطلب من البارودى تقديم إستقالة حكومته . فقدم خطاب الاستقالة . وبمطالعة نصه نقرأ عبارة تتنافى مع الدستور ولا تصدر عن حكومة دستورية كانت تطلق على نفسها الحكومة الوطنية . وهذه العبارة نصها (ونحن لجنابكم العبيد المطيعون) وهذه العبارة وردت في نهاية الخطاب وموجهة للخديو . والخطاب كان موقعا عليه من البارودى وبقية الوزراء بما فيهم عرابى نفسه . وهذه الهفوة الدستورية تدل على أن الأمور الدستورية لم يستوعبها عرابى وزملاؤه . كما أن هذه المذكرة كان المفروض الخديوى لايبت فيها برأى إلا بعد عرضها على نواب الأمة ليقروها أو يرفضوها . لأن هذا يعتبر تدخلا من الخديوى والانجليز والفرنسيين في الشئون الداخلية لمصر الدستورية وليبرهن توفيق أمام الدول الأجنبية أنه ما زال يمتلك زمام الأمور . لهذا جمع النواب والمشايخ والاعيان وكبار الضباط في قصر عابدين وأعلن أمامهم قبول الاستقالة بعد قبول المذكرة الثنائية . وتمادى في قراراته معلنا تأليف الحكومة برئاسته بما فيها وزارة الجهادية التى ستتبعه شخصيا . وهب طلعت عصمت معترضا أمام هذا الحشد واستنكر قبول توفيق المذكرة لأنها من إختصاص الباب العالى

بالآستانة . وكان على إنجلترا وفرنسا تقديمها هناك . وطالب أن تكون الجهادية لعرابى . فأيده الحاضرون الذين إنفضوا دون إستئذان . بعدها أرسل ضباط الاسكندرية برقية عاجلة إلي الخديوى يطالبونه فيها بعودة عرابى للجهادية وأمهلوه ١٢ ساعة . بعدها لو رفض عليه أن يتحمل مغبة ما سيحدث . فانصاع الخديو لمطلبهم وأصبح عرابى وزيرا للجهادية بلا وزارة يمارس بمفرده مهام أعماله . وانهالت العرائض عليه تطالبه برفض هذه المذكرة وعزل الخديوى . وفى ٢٠ يونيو عين توفيق حكومة راغب باشا وظل عرابى وزيرا للجهادية بها . وكان عرابى قد أعطى القناصل عهدا بحفظ الأمن في مصر والسودان رغم أن السودان كان فيه وقتها ثورة المهدى كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي . لكن رغم هذا كانت نذر الحرب قد لاحت أمام المصريين عندما أخذ الأسد البريطانى يكشر بأسطوله عن أنيابه في الاسكندرية . فاجتمع الشيخ محمد عبده بالضباط في قشلاق عابدين وأقسموا على المصحف للوقوف يدا واحدة إذا قامت الحرب .

لقد كان واضحا أن ثمة عمليات حربية سيقوم بها الأسطول البريطانى في الاسكندرية . وهذا ما لاحظه العسكريون المصريون . وذلك من طريقة توزيع البوارج الحربية وتكثيف مهام الاستطلاع وقياس المسافات ورصد الطوابى المصرية على الشاطىء وقياس الأعماق البحرية لمياه الميناء . وترحيل الأجانب بأموالهم وأمتعتهم في الأسبوع الأول من شهر يوليو ١٨٨٢ م . وابلاغ القنصليات الأوربية لرعاياها بمصر بسرعة مغادرتها نهائيا وحضور سفن الركاب لمينائى الاسكندرية وبورسعيد لحملهم إلي بلادهم . وسفر توفيق فجأة إلي الاسكندرية في هذا الوقت على غير عادته . ونزوله في سراى الرمل خارج الاسكندرية ولم ينزل بسراى رأس التين التى قرب الميناء . كل هذه كانت مؤشرات أمام العرابيين أن هناك مؤامرة كبرى ضد مصر .

وإنجلترا لم تضيع وقتها للتمهيد على الساحة الدولية لشن حرب على مصر . فروجت صحافتها عن مذبحة الاسكندرية ووصول الأجانب النازحين ومعهم أمتعتهم وأموالهم مؤكدة للغرب أن في مصر مذابح رهيبة ضد الأجانب . وأشاعت إنجلترا أن بمصر قلاقل داخلية وأوعزت إلي قناصل الدول الأجنبية أن يطلبوا من حكوماتهم شحن الأسلحة لتوزيعها على رعاياها للدفاع بها عن أنفسهم ضد المصريين . وبهذا كتبت إنجلترا لسفراء الدول الكبرى في الآستانة تدعوهم للإجتماع في مقر السفارة الايطالية هناك في ٢٣ يونيو . ووجهت الدعوة للحكومة التركية لحضور هذا المؤتمر . لكنها قاطعته لأنه يبحث مشاكل مصر الداخلية التى تخص تركيا وحدها . ولا سيما وأن مصر أصبحت مستقرة بتعيين حكومة راغب باشا في ٢٠ يونيو . وأعلن المؤتمرون [ميثاق

النزاهة] الذى ينص على عدم إحتلال مصر بواسطة أى دولة موقعة على هذا الميثاق منفردة . وفى آخر لحظة قبل التوقيع عليه أضافت انجلترا في النهاية فقرة وهى (إلا في الضرورة القهرية) . وانفض المؤتمر يوم ٦ يوليو وكانت فرنسا قد سحبت أسطولها يوم ٥ يوليو تاركا الأسطول الانجليزى بالاسكندرية .

وفى فجر ١١ يوليو عام ١٨٨٢ م . إنطلقت مدفعية الاسطول الانجليزى تطلق نيرانها على الاسكندرية . وأثناء القصف كان عرابى موجودا في دار البحرية (القيادة) قرب رأس التين . وهى في مرمى الاسطول الانجليزى وناحية الاهداف البحرية والطوابى المدافعة عن المدينة . وفي المساء توجه عرابى إلي الخديو لمقابلته في قصر الرمل (المنتزه) وقدم له تقريرا شفهيا عن سير المعركة إلا أن الخديو تعمد توبيخه لأنه لم يقدم تقريره مكتوبا إليه . وطلب من الخديو وحاشيته التوجه إلي القاهرة بالقطار المعد لذلك . إلا أن الخديو ورئيس الحكومة والوزراء والمبعوث العثمانى درويش باشا توجهوا خلسة إلي سراى رأس التين حيث كان يحرسهم مشاة الأسطول الانجليزى باتفاق مسبق مع سيمور قائد الأسطول . وأصبحوا ثانى يوم الضرب يقيمون في سراى رأس التين رهائن للانجليز . تنفيذا للدور والمسرحية المتفق عليها وانسحب عرابى بقواته إلي كفر الدوار ليبعد بها عن مرمى المدفعية بالأسطول . وأشاع الانجليز أن عرابى أمر باحراق الاسكندرية لاخفاء جريمة ضربهم المدينة وتدميرها أمام الرأى العام العالمى . وتكملة للدور المأساوى والتآمرى أرسل توفيق وهو رهين الانجليز رسالة عاجلة لعرابى ليستدرجه بمفرده بدون قواته للحضور والقبض عليه فابلغه في رسالته أن الانجليز مستعدون لتسليم الاسكندرية لجيش مصرى نظامى . وأمره بالحضور للتفاوض حول هذا الأمر . إلا أن عرابى كان قد أصبح على بينة بابعاد المؤامرة . فرفض الحضور إلا بعد خروج الانجليز باسطولهم من مياه الاسكندرية . بعدها أرسل الخديو منشوراته للأقاليم يتهم عرابى بالعصيان والخيانة لأنه رفض التفاوض مع الانجليز على الانسحاب ولهذا عزله من نظارة الجهادية . كل هذا والقصف مستمر فوق الاسكندرية وأحيائها والآلاف ينزحون منها إلي خورشيد وكفر الدوار والبيضا فرارا من هول القصف والضرب . وعلى الفور تكون مجلس عام بالقاهرة من المشايخ والأعيان والأقباط لتيسير الأمور بالبلاد وحكمها . لأن الخديو أسير الانجليز وكلف هذا المجلس القومى عرابى بمواصلة الجهاد للدفاع عن مصر . فلقد باع الخديو بلاده للشيطان من أجل السلطان .

وحاول الجنرال أليسون الهجوم بقواته التى نزلت للبر عند كفر الدوار لكن المقاومة ضده

كانت عنيفة . فلما هزم مد حورا عاد إلي الاسكندرية . وحاولت القوات الانجليزية لأكثر من شهرين الاستيلاء على الجبهة الشمالية الغربية بالاسكندرية وكفر الدوار إلا أنها فشلت . فاتجهت إلي الجبهة الشمالية الشرقية بالدلتا حتى وصلت هذه القوات للتل الكبير . ولا يهمنا تفاصيل المعركة هناك سوى خيانة وتآمر محمد سلطان باشا رئيس مجلس الأمة وقتها . الذى تقابل مع خنفس باشا [سرا] وكان قائد الجبهة المصرية في مواجهة القوات البريطانية كنسق قتالى أول . ورشاه بالذهب وطلب منه (كروكى) الخطة الموقع عليها من عرابى والتى وضعها محمد عبيد باشا قائد القوات في المعركة وكان عليها الموقف القتالى بالكامل . وهذا الكروكى سلم إلي الانجليز . كما إتفق محمد سلطان مع خنفس باشا على الانسحاب من المواقع الأمامية وإخلاء الخنادق من القوات وسحب سرية الاستطلاع ونفذت المؤمراة الخنفسية وفتح خنفس الطريق على مصرعيه بلا مقاومة لتدخل القوات البريطانية لمؤخرة الجيش المصرى بلا قتال أو إنذار . واكتشف عرابى هذه الخيانة أثناء التحقيق معه . فلقد عرض سير تشالز ويلسون على عرابى الرسم الكروكى للخطة وعليه توقيعه . فبهت وعلق ويلسون عليها قائلا : لقد كان من المحتمل جدا أن تهزمونا لو كنتم قد إتبعتم هذه الخطة لولا إنسحاب خنفس من خنادق المواجهة وإنسحاب قائد الخيالة في سرية الاستطلاع . وانكشفت المؤمراة أمام قائد الثورة وهو رهين السجن إنتظارا لمحاكمته بتهمة الخيانة وتهم أخرى كانت في جعبة الخديوى والانجليز الذين هزموا عرابى في ١٦ سبتمبر عندما سلم سيفه ونفسه درأ للأخطار وحفظا للقاهرة من الضرب .

فى أعقـــاب الهـــزيمـــة :

بعد هزيمة عرابى بثلاثة أيام حلت بريطانيا الجيش المصرى وسرحت جنوده . وذهل الانجليز عندما وجدوا جيش مصر لا يوجد به أمى واحد بين جنوده . وباحتلال مصر تجمد الدستور والمجلس النيابى وتحطمت الآمال الوطنية . وبدأ توفيق يحكم بالعصا والكرباج والارهاب . وها هو رياض باشا الذى أقاله عرابى وهو رئيس للنظار يعين في أول وزارة بعد الاحتلال وزيرا للداخلية ويعلن أمام سادة العهد الجديد (كما يقول بلنت) : بأن المصريين ثعابين تسحق بالأقدام لمنع انتشارها . قائلا : لهذا سأسحق المصريين . وعين عمر لطفى وزيرا للجهادية .

ويعلق بلنت على ضرب الاسكندرية بأنه جعل من عرابى في نظر المصريين بطلا قوميا بعدما كانت أبواق الخديو تصوره متمردا عليه . وأصدق وصف لعرابى ما قالته عنه الأميرة نازلى إبنة عم توفيق . حيث قالت : لو كان عرابى رجلا يسطو ويعنف مثل محمد على (جدها) لأخذ

توفيقا مع جميع الأمراء في القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميرا على البلاد . هكذا قالت نازلى لمستر بلنت . وهذا القول قالته وعرابى في منفاه بجزيرة سيلان تلاحقه لعنات وتشنيعات الخديوى توفيق وحاشيته . لكن نازلى كانت منصفة لعرابى ولا سيما عندما قالت لتوفيق : لقد كان عرابى أول وزير وطنى جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وبلنت ذكر رواية نازلى بالتفصيل في كتابه (التاريخ السرى لاحتلال أنجلترا مصر) .

وحقيقة تقال أن الاستعمار البريطانى نجح دون قصد في توحيد المصريين مسلمين وأقباطا حول قضية واحدة وهى الجلاء والاستقلال . وأيقظ فيهم جميعا روح النضال والكفاح . وكان منظر جنود الاحتلال من إنجليز وأستراليين وهنود وأفارقة وهم يسيرون في الشوارع أو يعملون في دواوين الحكومة والمدارس قد بعث السخط لدى الشعب بكل طبقاته . ولأول مرة تتحول المدارس المصرية إلي فصول للوطنية ليصبح مدرسوها من المصريين زعماء يشرحون لتلاميذهم أبعاد القضية ويحمسونهم للنضال والكفاح من أجلها . وأصبح الانجليز يسيطرون على كل شيء في البلاد ما عدا الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية حيث كان توفيق بلا عمل تقريبا سوى الاشراف على هذه الهيئات الدينية . واستغل محمد عبده هذه الفرصة فتقدم إليه بمشروع لتطوير الأزهر ونظام التعليم فيه . فوافقه الخديو عليه واصدر قرارا بذلك .

الصحافة والاحتلال :

الصحافة بعد الاحتلال مباشرة وفي عهد كرومر بالذات أصبحت عميلة لانجلترا أو الدولة العثمانية . وكان الصحفيون الشوام يقومون بهذه المهمة الصحفية وأهم هذه الصحف الأهرام والمقطم والجوائب والقاهرة . وهذه كما يقول لويس عوض في كتابه (تاريخ الفكر المصرى الحديث) . أو جدت بلبلة عظمى في الرأى العام المصرى وبقى الأهرام ضد الاحتلال لحساب فرنسا لأن صاحبه بشارة تقلا كان رعية فرنسية يتمتع بالحماية الاجنبية . وأخذت كل الصحف بما فيها الأهرام تندد بعرابى وبالثورة العرابية . والحق يقال أو كما يقول لويس عوض كانت وقتها تصدر ٦٠ صحيفة كلها تسبح بحمد الاحتلال وتشيد به ما عدا صحيفتى المؤيد التى كان يصدرها الشيخ على يوسف والأستاذ التى كان يصدرها عبد الله النديم . وهذا جعل الشعب المصرى يقبل على هاتين الصحيفتين الوطنيتين . فأيام كرومر الذى إدعى أنه ممثل لوزارة حزب الأحرار وقتها في إنجلترا كمم الصحافة المصرية الوطنية . وكان كرومر يشجع اللجوء السياسى للشوام المنشقين على الحكم العثمانى بسوريا الكبرى فكان يرعاهم وكان هؤلاء من الموارنة

المثقفين وخريجى مدارس الارساليات الفرنسية بلبنان . فروجوا في مجلاتهم الهلال والمقطم والأهرام للثقافة العلمانية الغربية ولا سيما الثقافة الفرنسية وهذا الاسلوب الاعلامى الذى خطط له كرومر كان للترويج لعزل مصر وإخراجها من الفلك العثمانى .

وكان تبنى جمال الدين الافغانى ومحمد عبده لفكرة الجماعة الاسلامية . للتصدى لحساب تركيا ضد هذه الحملة العلمانية والثقافة الوافدة التى باتت سمة للاصدارات الصحفية إبان كرومر . وانضم لهما فلول الثورة العرابية وكان معهم - أيضاً - مصطفى كامل ومحمد فريد .

و الصحافة لعبت دورا رئيسيا إبان عصر إسماعيل والثورة العرابية وتحت ظلال الاحتلال الانجليزى لمصر . والصحافة في عصر ميلادها الأول عرفت العمالة والنفاق . وكانت الصحف تتلقى (المصاريف السرية) من الخديو إسماعيل والآستانة والانجليز والفرنسيين . وكان كل يغنى على ليلاه . فأيام إسماعيل وفد اللاجئون من الشوام بعد مطاردة السلطة العثمانية لثوراتهم ضد الحكم العثمانى بايعاز من فرنسا ولا سيما للشوام المسيحيين الموارنة . والخديو إسماعيل كان قد خطط لنفسه إغتنام الفرصة للاستقلال بأرض مصر . فاستقطب بعض هؤلاء الشوام لاصدار صحف لهم كالاهرام . وكان إسماعيل باستقباله لهؤلاء المنشقين عن السلطان العثمانى وإعطاء الحرية للصحافة بشتى تياراتها السياسية والعميلة تحديا للسلطان نفسه . وأخذ هؤلاء يروجون إلي فكرة مصر الفتاة ومصر للمصريين . وكانت مقالاتهم تأخذ طابعا إنفصاليا لمصر عن الآستانة بطريقة علانية . وأخذ الأهرام يندد بتركيا والسياسة العثمانية ويهاجم أنجلترا لحساب فرنسا . وكانت هذه الصحف الخديوية تشيد بعصر إسماعيل . وبلغ عدد الصحف في مصر أكثر من خمسين صحيفة بالعربية والانجليزية والفرنسية والايطالية واليونانية .

ولما تولى الخديوى عباس الثانى أخذ يصطدم بكرومر المعتمد البريطانى في مصر . ففى عام ١٨٩٣ م . أقال وزارة مصطفى فهمى دون علمه أو أخذ رأيه . وكان هذا الموقف من عباس قد بعث صحوة وطنية . فالتف حوله الوطنيون . وأخذ يتخذ من هذه الحركة الوطنية سلاحا يشهره في وجه الانجليز . وعلى هذا نجد الفترة ما بين عامى ١٨٩٢ م و ١٨٩٧ م . فترة ثراء وطنى وثاب حيث كان الوطنيون المصريون يقفون ضد الادارة البريطانية ويشوهون صورة أى وزير يتعاون مع الاحتلال . ولعبت الصحافة دورا بارزا في هذا الاتجاه الوطنى .

فكــرة الوطــن القــومى اليهـودى :

فى عام ١٨٩٦ م . حاول اليهود إقامة وطن قومى لهم في أرض مدين شمال غرب الجزيرة العربية وجنوب ميناء العقبة الأردنى . وكانت تخضع للدولة العثمانية ضمن أرض الحجاز لكن انجلترا بعد احتلال مصر جعلتها تابعة لاقليم السويس إداريا . وتبنى هذا المشروع اليهودى الالمانى بول فريد مان الذى كان كرومر يعاونه لتحقيق هذا الحلم . فقام فريد مان بتهجير اليهود من شرق أوربا ومعهم أسلحتهم ووصلوا إلي جبل الطور في سفينة أطلق عليها إسرائيل . وحاول شراء الأراضى من البدو رغم أن الدولة العثمانية منعت شراء الأجانب للأراضى في أرض الحجاز وهذا ما جعل الباب العالى يضغط على بريطانيا لسحب هذا المشروع وطرد فريدمان من الأرض وفصلت تركيا أرض مدين عن الادارة المصرية عام ١٩٠٦ م . وحدثت وقتها أزمة بين بريطانيا وتركيا عرفت بأزمة الفرمان وكان من ضمنها مشكلة طابا المصرية في النزاع حول تحديد الحدود المصرية .

وفى عام ١٩٠٣ م . قابل هرتزل تشمبرلين بلندن وعرض عليه فكرة إنشاء دولة يهودية على ساحل العريش بسيناء تحت إشراف بريطانيا . وكان هرتزل قد أرسل ليوبولد جرينبرج إلي القاهرة لاقناع كرومر والمسئولين المصريين بهذا المشروع ونشط الماسون في مصر للعمل على الموافقة على هذا المشروع . ورغم تكتم هذا المشروع إلا أن القوى الوطنية المصرية علمت به وعارضته بشدة . وهذا ما جعل وزير الخارجية بطرس باشا غالى يعلن : عدم التخلى عن حق من حقوق السيادة المصرية . لكن مصر كانت مستعدة على حسب ما جاء على لسان وزير خارجيتها السماح لليهود بالمجيء لمصر ومنحهم إمتيازات خاصة بالضرائب والأراضى . ويصبحون رعايا للدولة بعدها حضر هرتزل إلي القاهرة عام ١٩٠٣ م . وتقابل مع كرومر لاقناعه بمشروع العريش والعمل على مد مياه النيل إلي سيناء تحت قناة السويس . وحاول - أيضا - الاجتماع بالزعماء السياسيين في مصر لاقناعهم وإبداء المساهمة المالية لحل ديون مصر . لكن بريطانيا أحجمت عن المشروع لأن توصيل مياه النيل لسيناء سوف يغلق القناة لفترة ويمنع بريطانيا من الاتصال بمستعمراتها بالهند والشرق الأقصى وتعطيل التجارة العالمية . كما أن هذا المشروع سوف يؤلب الرأى العام المصرى واقترحت انجلترا إنشاء الوطن القومى لليهود فى [يوغندا] . لكن الانجليز المستوطنين هناك عارضوا فكرة مجيء اليهود وإنشاء وطن قومى لهم في يوغندا . لأن هذا سيضر بمصالحهم ومشروعاتهم . وصرفت بريطانيا نظرها عن هذا المشروع .

وفي عام ١٩٠٤ م . حاول هرتزل إقناع انجلترا بإنشاء الوطن القومى في الحمام بمنطقة مريوط بصحراء مصر الغربية لكنه توفى بعدها .

وفي عام ١٩٠٤ م . إتفقت فرنسا مع إنجلترا إتفاقا وديا فيما بينهما . وهذا الاتفاق أطلقت فيه يد فرنسا في شمال أفريقيا ويد إنجلترا في مصر . بعده ألغى كرومر إشراف الأجانب على صندوق الدين العمومى والاشراف الدولى على ميزانية مصر بعدما خلا الجو لانجلترا بهذا الاتفاق وتعهد لهم بدفع الديون .

وكرومر كان يعتبر الحاكم لمصر والخديوى كان ظله يتبعه . فأدار البلاد بكفاءة واقتدار واتبع التخطيط السليم في إدارة الأجهزة الادارية . ونجح في إستمالة قطاعات كثيرة من طبقات الشعب . فنراه عام ١٨٩٩ م . يرفع سعر القطن ليرضى كبار الملاك والفلاحين وخفض الضرائب الزراعية مما خفف من الأعباء عليهم وانتابتهم موجة من الرواج . ومنع الضرب بالكرباج وأقام عدة مشروعات لتحسين وسائل الرى والزراعة في مصر . ومن بين هذه المشروعات إقامة خزان اسوان عام ١٩٠٣ م . وانشاء بنك التسليف الزراعى والتعاونى ليسلف الفلاح وكان يقدم له البذرة. وأنقذ الفلاحين من المرابين . وعلى جانب آخر قرب منه مشايخ الأزهر وجعل لهم دورا في الحياة العامة حيث عينهم في مجلسى شورى القوانين والجمعية العمومية النيابية . وبهذا استطاع عزل السواد الأعظم من الشعب عن طبقة المثقفين والأفندية . واستدان كرومر من البنوك الانجليزية قرضا سدد به بعض ديون مصر للدول الدائنة وبعد السداد الغى إشرافها على صندوق الدين والاشراف الدولى على الميزانية المصرية كما أشرت من قبل . وتعهد بسداد هذا القرض من الانتاج الزراعى بعد الاصلاحات التى قام بها في مجالى الرى والزراعة والخدمات التعاونية للفلاحين . ولهذا شهدت البلاد إزدهارا لم تشهده منذ عهد سعيد ويعتبر عهد كرومر بلا تحيز عصرا ذهبيا للفلاح المصرى . وعلى جانب آخر حارب كرومر التعليم في مصر وخفض من ميزانيته تخفيضا كبيرا وجعله بمصاريف باهظة بعدما كان بالمجان في كل مراحله . وأخذ يشجع الكتاتيب ولم يتدخل في شئونها لتظل تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وتحفيظ القرآن لتأهيل خريجيها للدخول والالتحاق بالأزهر وكانت سياسة الاستعمار البريطانى عدم التدخل في الشئون الدينية . وكانت سياسة التعليم التى وضعها دانلوب أيامه وكان مستشارا لوزارة المعاف العمومية . هى تخريج طبقة من الكتبة فقط يعملون في الجهاز الادارى بالحكومة .

ظهــور الأحــزاب :

كان حادث دنشواى عام ١٩٠٦ م . القشة التى قصمت ظهر كرومر والاحتلال البريطانى في مصر لمساويته وقسوة أحكامه . فلقد سيق الفلاحون ظلما إلي ساحة الشهداء في قرية دنشواى . ونصبت المشانق لاعدام شهداء هذه المذبحة الوحشية التى إهتزلها ولبشاعتها الضمير الوطنى لكل مصرى . وفى هذا الجو المشحون بالغضب والوطنية الجياشة برز مصطفى كامل يقود أمة هبت بعد إستكانتها متحولة إلي بركان حممه ثوار في كل مكان هبوا دفاعا عن القومية المصرية . وأثناء حادث دنشواى كان اللورد كرومر في إنجلترا يقضى أجازته ولما عاد عام ١٩٠٧ م . وجد انتفاضة مصرية عارمة ضده وضد بلاده وهذا جعل انجلترا تقيله بعد وصوله بأسابيع . وفى عام دنشواى ظهرت أحزاب ثلاثة وهى الحزب الوطنى برئاسة مصطفى كامل وحزب الأمة برئاسة أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) والثالث حزب الاصلاحات الدستورية برئاسة الشيخ على يوسف . وكانت هذه الاحزاب لها صحفها فصيحيفة اللواء كانت تعبر عن الحزب الوطنى والجريدة عن حزب الأمة والمؤيد عن حزب الاصلاحات .

وهذه الصحف لعبت دورا أساسيا في السياسة المصرية وقتها . وأخذت صحيفة اللواء تندد بالاحتلال وكان خط مصطفى كامل فيها هو الدعوة إلي الاستقلال لمصر وعودتها لأحضان الخلافة العثمانية بالآستانة وهذه الدعوة تبناها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده حيث دعيا إلي إحياء الخلافة وإنشاء الجامعة الاسلامية لتكون رابطة للعالم الاسلامى . أما حزب الأمة فكانت صحيفته الجريدة برئاسة أحمد لطفى السيد تأخذ خطا يتحد مع اللواء في المطالبة بالجلاء أما الاستقلال لمصر فيكون عن بريطانيا والدولة العثمانية معا أى تعود مصر للمصريين . أما صحيفة المؤيد فكانت تؤيد الخديو عباس الذى كان ينفق عليها لتكون لسان حاله . ولا هم لها سوى المطالبة بالدستور لهوى في نفس الخديوى عباس الذى نراه شجع الأحزاب لتطالب بعودة الدستور والبرلمان . حقيقة كان يريد دستورا حبرا على ورق (سولفان) ليكون ضعيفا واهيا ليسهل تقطيعه ولا يفقد بريقه أمام الانجليز . فكان فعلا يهددهم بالتيار الدستورى التى تنادى به الصحف والأحزاب وخصوصا حزب الاصلاحات وصحيفته المؤيد . وظل عباس يناور بالأحزاب والصحف حتى أصبح بلا وفاق مع الأنجليز وكرومر وجورست خلفه إلي أن وعده كما يقول العقاد بأن ينصبوه خليفة للمسلمين بالقاهرة ويترك لهم إحتلال مصر . فوافقهم وانقلب على شيعته . فنراه يطارد أعضاء الحزب الوطنى الذى كان ينادى بعودة مصر للتبعية وللخلافة العثمانية . لأن

قيادته كانت تركية الأصل ولهذا السبب ترك محمد فريد البلاد واستقر بالخارج في منفاه الاختيارى وحتى لا يصطدم بالخديوى وظل يدعو في أوربا لجلاء الانجليز وهناك بمفرده والحزب الوطنى كان شبه مجمد ولا سيما بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ م .

الإنجليز والفتنة الطائفية :

خلف جورست المعتمد البريطانى اللورد كرومر في مصر عام ١٩٠٧ م . بعد سحبه في أعقاب دنشواى . و لعب دورا في تأليب الاقباط ضد المسلمين حسب السياسة البريطانية المعهودة (فرق تسد) وهذه السياسة قد اتبعها في الهند ففرقت بين الهنود وجعلتهم طوائف متناحرة ما بين مسلمين وهندوس وسيخ وقاديان . وهذه الفتن إمتدت ومازالت هناك مشتعلة رغم الاستقلال عام ١٩٤٧ م . وأصدق وصف للفتنة الطائفية وبدايتها في مصر ما قاله المفكر المصرى الدكتور لويس عوض قائلا : كل هذا كان من عمل الانجليز وفقا لسياسة فرق تسد وقال أيضا (كان كرومر يحتقر كل المصريين الأقباط والمسلمين على السواء . فلما سحبوه في عام ١٩٠٧ م . بعد حادثة دنشواى أرسلوا مكانه جورست مع سياسة جديدة وهى التودد للرأى العام الاسلامى وإثارة الفتنة ضد الاقباط لتعطيل الحركة الوطنية . واختلف مع الدكتور لويس في نقطة واحدة وهى أن جورست ألب الاقباط ضد المسلمين وليس العكس صحيحا . فجورست كان قد أتى لتهدئة الرأى العام المصرى الساخط على الاحتلال في أعقاب مجزرة دنشواى والحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل كان مشتعلا وطنية وحماسا . وكانت الأمة تقف خلفه وكانت كلمات الزعيم مصطفى كامل تدوى في أرجاء البلاد طولا وعرضا . فلضرب هذا التيار الوطنى الجارف تحالفت إنجلترا مع الخديوى عباس الذى كان يشجع هذه الحركة الوطنية ووعدته بخلافة المسلمين كما سبق وأن أشرت . ففعلا تخلى الخديوى عن مصطفى كامل . وقتها وبعد وفاته أخذ يطارد أعضاء حزبه وقبض على بعضهم . وعلى الجانب الآخر لا بد من شق الأمة المصرية إلي عنصرين بعدما كانت عنصرا واحدا ولو نجح هذا المخطط سهل ضرب الحزب الوطنى لأنه يدعو إلي عودة الخلافة الاسلامية . وكانت فكرة الجامعة الاسلامية التى كان الأفغانى ومحمد عبده يروجان لها لحساب السلطان عبد الحميد بالآستانة باعثة لقلق بريطانيا أيضا . ولهذا نجد جورست يقيل فجأة وزارة مصطفى فهمى باشا (سبق وان أقاله عباس أيام كرومر) وكلف بها بطرس باشا غالى وكان وقتها وزيرا للمالية . واختار جورست غالى رئيسا للوزراء لأن إسمه إرتبط في أذهان الشعب المصرى بحادثة دنشواى عندما كان وكيل الحقانية وقتها ورئيسا للمحكمة التى حكمت على شهداء

دنشواى . واختاره مسيحيا بالذات ليؤلب المسلمين ضد الأقباط بتولية بطل جريمة دنشواى . ومما ساعد جورست في تحقيق مخططه اغتيال بطرس غالى على أيدى المتطرفين المسلمين . لأنه في عام ١٩١٠ م . لما عاد بطرس غالى من زيارته لانجلترا أتى معه بمشروع مد امتياز شركة قناة السويس لمدة (٩٩) سنة جديدة رغم أن إمتيازها أصلا كان ينتهى عام ١٩٦٨ م . وطلب من سعد زغلول بصفته وزير الحقانية التقدم بالمشروع للجمعية التشريعية لاقراره لكن نواب الأمة رفضوه . وكانت الصحف الوطنية قد هاجمته بعنف وشدة . وبعد اغتيال بطرس غالى تفجرت الفتنة الطائفية وهددت البلاد بقيام حرب أهلية بين المسلمين والأقباط في مصر . لكن للتاريخ والحقيقة إنتبه المصريون لهذا المخطط الانجليزى وأعلنت الكنيسة المرقسية إبان ثورة ١٩١٩ م أن الصليب مع الهلال وكان هذا مبادرة منها . ورفعت فوق كنائسها علم الوحدة الوطنية (الهلال مع الصليب) الذى إتخذه المصريون علما للثورة . وهذه المبادرة كانت صفعة لانجلترا أفقدتها توازنها

وأيام عهد عباس كانت الصحافة لها دورها البارز في إثراء الحركة الوطنية داعية إلي الحرية والاستقلال وحرية الصحافة واستقلال القضاء . ونادت بحرية الفرد والأمة وعودة الحكم الدستورى في البلاد . وفي هذا الجو ظهر سعد زغلول على الساحة السياسية ولا سيما بعدما تزوج عام ١٨٩٦ م . من إبنة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء . وهذا الزواج قد أهله للدخول في زمرة الوزراء إلا أن قدراته الشخصية مكنته كثيرا في فرض شخصيته . ففى عام ١٩٠٦ م . عينه كرومر وزيرا للمعارف فجعل يوم عيد الهجرة لأول مرة عطلة رسمية بالمدارس وعرب التعليم مما أغضب الانجليز . كما أنشأ مدرسة القضاء الشرعى مما أغضب الخديوى عباس ومشايخ الازهر . وكان كرومر سندا لسعد في تحقيق إصلاحاته واستغل سعد هذا فهادن الانجليز ليحقق مكاسب قومية . ولم يكن من زمرة الخديوى الذى أقسم ألا يحضر مجلسا فيه سعد زغلول لأنه يعارضه . وكان سعد وقتها مهادنا للانجليز . فبينما كان الحزب الوطنى مشتعلا حماسا وثورة ضد الاحتلال كان سعد يساند حزب الأمة برئاسة أحمد لطفى السيد وكلاهما كان يتعاون ويتهادن مع الانجليز لتحقيق الاستقلال . ولهذا كان كرومر كما يقول (شيرول) يقدم العون لحزب الأمة في أول إنشائه . وكان هذا الحزب يدعو إلي الديموقراطية والقومية المصرية وعودة مصر للمصريين وليس للعثمانيين . لكن مبادىء حزب الأمة لم تجد صدى بين جماهير الشعب التى تكالبت خلف الحزب الوطنى وقتها .

الحالة السياسية بمصر :

من بين الاحزاب الرئيسية التى ظهرت كان الحزب الجمهورى (عام ١٩٠٨ م) وكان يضم طبقة المثقفين المصريين وكان يشايع فرنسا واتخذ من شعار الثورة الفرنسية (حرية - إخاء - مساواة) شعارة وكان يحتفل بذكرى الثورة الفرنسية مع القنصلية الفرنسية . واخذت صحيفتا (الاخبار) لأمين الخازن و(الاحرار) لوحيد الايوبى تدعوان إلي هذا الحزب ويتصدر شعاره صدر صفحاتها . وأخذ محمد غانم رئيس الحزب يهاجم الأسرة العلوية وعلى رأسها محمد على الذى جعل مصر إرثا له ولأبنائه وأحفاده من بعده . حتى أصبحت نهبا ونهما وطمعا لكل من حكمها . وهذا الحزب عقد مؤتمرا عماليا لأول مرة عام ١٩٠٩ م في جنينة الازبكية طالبوا فيه بالقوانين الاشتراكية وخرجت جموعهم في شوارع القاهرة هاتفة (جعانين يافندينا) وأخذت تطالب بالخبز إسوة بثوار فرنسا .

أما طبقة الذوات فشكلوا (حزب النبلاء) يضم الاتراك والشراكسة . وكان هدفه الأساسى هو إستعادة الامتيازات الطبقية لهم كما كانوا قبل الاحتلال . وهذا جعل صحيفة اللواء تندد بهم وأتهمهم محمد فريد بأنهم جمعوا ثرواتهم على حساب الشعب . وأخذ حزب النبلاء يدعو إلي التقارب بين تركيا وانجلترا وبات يهاجم حزب أحمد لطفى السيد (رئيس حزب الأمة) لأنه يطالب بأن تكون مصر للمصريين . ودعا النبلاء إلي فكرة الجماعة الاسلامية تحت ظلال الدولة العثمانية.

وحزب الأقباط (الحزب المصرى) ألفه المحامى أخنوخ فانوس كان يدعو إلي إنشاء جامعة مسيحية أسوة بالجامعة (الجماعة) الاسلامية التى نادى بها الأفغانى ويؤيدها الحزب الوطنى وحزب النبلاء . وكانت الصحف القبطية كما يقول لويس عوض كالوطن وفرعون ومصر تروج لهذا الحزب . ودعوته كانت فصل الدين عن السياسة . وكان الكاتب سلامة موسى من أشد المتعصبين لهذا الحزب ومروجا له . وأخذت جريدة مصر تروج إلي القبطية على أنها تضم المسيحيين والمسلمين لأن كلمة قبطى تعنى مصرى ولا يقصد بها النصارى . وطالب هذا الحزب بمساواة المصريين في الحقوق والواجبات دون تمييز بسبب الجنس أو الدين . أو على حد قول لويس عوض الدعوة إلي إنشاء دولة علمانية . وكان كرومر وراء هذا الحزب يسانده كما ساند حزب الامة للطفى السيد الذى كان يدعو إلي أن تكون مصر للمصريين .

وكانت هذه الأحزاب وغيرها من أحزاب أخرى قد ظهرت في هذه الفترة عبارة عن منابر سياسية ليست قادرة على المشاركة في الحكم لكنها كانت تصيح بالرأى العام فنرى الحزب

الوطني يدعو الشعب إلي كتابة العرائض وتقديمها لأفندينا مطالبين بالدستور عام ١٩٠٨ م وراوغت إنجلترا كالعادة . وكان لظهور الحركة العمالية في بداية القرن العشرين أثرها في ثورة ١٩١٩ م فيما بعد . وفي عامى ١٩٠٩ م و ١٩١٠ م أخذ عمال السجائر والترام والمطابع الأميرية والسكك الحديد والورش الأميرية يجتمعون ويقومون بالمظاهرات والاصطدام بالبوليس وقدم زعماء هذه الحركة للمحاكمة . وهذه كانت بداية الحركة العمالية التى نادت بـ (جعانيين يأفندينا) وأصبح هذا شعارا للحركة العمالية بمصر في كل عصر وأوان . بل نداء الشعب المصرى كله .

وفي عام ١٩١٠ م . تولى سعد زغلول وزارة الحقانية في وزارة بطرس غالى وتقدم للجمعية التشريعية بعدة قوانين سيئة السمعة كما أطلق عليها . فبينما كان معارضا بشدة عام ١٩٠٩ . لقانون المطبوعات والنشر عندما كان وزيرا للمعارف نراه يعرضه ويصر عليه . وبعد الموافقة عليه طبقه بعنف وهو وزير للحقانية . وندم سعد على هذا وأقر بغلطته قائلا : ها أنا نادم اليوم على مافعلته بالأمس . لأن الصحف القومية كممت صفحاتها وزج بكتابها في السجون وأغلقت معظمها . وهذا الكبت للرأى العام أوجد شعورا بالسخط . فهذه الصحف كانت نوافذ يطل منها الشعب المصرى على كفاح الشعوب وتحدثهم عن زعماء العالم الذين يناضلون الاستعمار في الخارج . وكانت الصحف تدعو إلي التعليم والنهوض به كما دعت الشعب المصرى لانشاء الجامعة الأهلية لتكون مستقلة عن سياسة الاستعمار . وفي عام ١٩١٢ م . أجبر الخديوى عباس سعد على تقديم إستقالته . بعدها إنفصل عن الارستقراطية الحاكمة . فرشح نفسه مستقلا عن الأحزاب عام ١٩١٣ م . ونجح في الانتخاب كعضو في الجمعية التشريعية التى أصبح وكيلها . وكان يرأسها حسين كامل . (السلطان فيما بعد) . وتزعم المعارضة داخل مجلسها وحول هذه الجمعية من مجلس لاقرار وتمرير القوانين إلي مجلس يشرع القوانين للأمة وحدها .

الحماية البريطانية :

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م . ولما تحالفت روسيا العدو التقليدى لتركيا مع إنجلترا أعلنت الدولة العثمانية تحالفها مع الالمان ضد إنجلترا . وكان الخديو عباس في الآستانة وقتها . فقامت إنجلترا على الفور باعلان الحماية على مصر وفرضت بها الأحكام العرفية . ثم قامت بالغاء الخديوية بعدما عزلت الخديوى عباس وأعلنت مصر سلطنة وعينت حسين كامل إبن إسماعيل سلطانا لمصر . وباعلان السلطنة المصرية أسوة بالسلطنة العثمانية أصبحت مصر منفصلة تماما عن التبعية لحكومة الباب العالى . واستقلت بعد أربعة قرون عن الحكم العثمانى

منذ دخول سليم الأول مصر عام ١٥١٧ م . وحاولت الآستانة تجميع العالم الاسلامى حولها ضد إنجلترا وروسيا . فأخذ المفتى بالآستانة في نوفمبر ١٩١٤ م . يناشد المسلمين للوحدة ضد إنجلترا وروسيا أعداء الاسلام وأشيعت الفتوى في كل الولايات الاسلامية العثمانية . وأخذت أبواق الدعاية تروج فكرة إحياء الخلافة العثمانية لكن الشريف حسين شريف مكة والحجاز وقتها أعلن أحقيته في الخلافة لأنه عربى قرشى والرسول قال الأئمة من قريش . وتحالف مع الانجليز لتحقيق هذا الحلم وساندهم مساندة كبرى في بلاد الشام ضد القوات العثمانية أملا في توليته الخلافة العربية بعد الحرب . لكن آل سعود عزلوه وهذه قصة أخرى .

وظلت مصر إبان الحرب وحتى عام ١٩٢٢ م . تحت الحماية ورهينة في أيدى الانجليز . وأصبح الوضع الدولى لسلطنة مصر على الطريقة البريطانية التى منعتها من الاتصال بالعالم الخارجى إلا عن طريقها لأن وزارة الخارجية ألغيت من مجلس النظار أثناء الحماية . وتولى السلطان فؤاد الأول السلطنة عام ١٩١٧ م . بعد وفاة حسين كامل .

****

*****

***

*

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وانتهت عام ١٩١٨ م . وأعلن الرئيس الامريكى ولسن أن الشعوب لها حق تقرير المصير بعد الحرب . وهذا جعل السلطان فؤاد يرسل برقية إليه يهنئه فيها بالانتصار ويناشده عدم تجاهل المطالب المصرية التى يأمل أن تلقى عنايته . لكن هذه البرقية لم تصل واشنطن لأن الحاكم العسكرى الانجليزى لمصر أخفاها ولم يرسلها . وكانت البرقيات تخضع لرقابته كما أن محظورا على أى مصرى الاتصال بالجهات الأجنبية حتى ولو كان سلطان مصر إلا بتصريح من السلطات البريطانية . ولهذا طلب حسين رشدى السماح له بالسفر إلي لندن للتفاوض وبحث مستقبل مصر . فرفضت دار الحماية التصديق له . وكان قد تقدم بالطلب ثلاث مرات وفي كل مرة يقابل بالرفض مما جعله يقدم إستقالته إلي السلطان فؤاد إحتجاجا على هذا وقبلها فؤاد بعد موافقة دار الحماية على سفره ومعه وفد . وفى ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ م . توجه سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى إلي دار الحماية البريطانية وقابلوا سير وينجت المندوب السامى البريطانى وهذا اليوم المشهود هو يوم عيد الجهاد الوطنى . وفى الاجتماع تهرب منهم وينجت حتي لا يوافق لهم بالسفر إلي مؤتمر الصلح بباريس .

ظهور الوفد :

أمام رفض دار الحماية السماح بالسفر لسعد وزملائه إلي فرنسا ولحسين رشدى والوفد المصرى الذى سيرافقه لانجلترا كتب سعد زغلول عريضة شديدة اللهجة وأرسلها للسلطان فؤاد . وهذه العريضة كانت بالعربية ومعها ترجمة لها بالفرنسية . لأن فؤاد كان لا يجيد اللغة العربية وخشى سعد أن يفوته معنى عند القراءة أو يلتبس عليه كلمة منها . فأرفق هذه الترجمة الفرنسية التى يجيدها فؤاد . وقال سعد للسلطان : ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى إعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين . وفي اليوم التالى إستدعى الحاكم العسكرى الانجليزى سعد زغلول إلي مكتبه وهدده لأنه مشاغب سياسى . بعدها أرسل سعد برقية إحتجاج إلي رئيس حكومة بريطانيا . فحسب قرار فرض الاحكام العرفية التى لم تلغ بعد الحرب قبض على سعد وزملائه لنفيهم إلي مالطة . وفي اليوم التالى (٩ مارس عام ١٩١٩ م) اندلعت الثورة المصرية .

قامت ثورة ١٩١٩ بتلقائية وطنية ولم يشعلها سعد . ولم يخطط لها أو يقدها . فقامتوسعد

وزملاؤه على سفينة بعرض البحر تنقلهم إلي منفاهم . فالثورة كانت تلقائية شعب أعلن عن مولد زعيم مصرى جديد . التفت الجماهير حوله رغم نفيه . فالثورة كانت دفينة في نفوس الشعب المصرى . ولم تكن هذه أول ثورة ضد الاحتلال . ففى عام ١٩١١ م خرج عمال الترام ومعهم زوجاتهم وأولادهم يصرخون من الاستغلال وأضربوا عن العمل وساروا ينددون بالاحتلال بعدما أوقفوا الترام بشوارع القاهرة مما أصاب العاصمة بالشلل التام وتصدى لهم عساكر الانجليز بالرصاص واستشهدوا ولم ينس الشعب هذه المذبحة . كما لم ينس لانجلترا في الحرب العالمية الأولى قبضها على ١٧ ألف مصرى سخرتهم في العمل لخدمة جيشها . وكان هؤلاء من العمال والفلاحين الذين أرسلتهم إلي الشام وفلسطين وفرنسا ومات منهم المئات . وهذا الشباب المصرى المسخر لدى السلطات البريطانية بترحيله عن مصر طوال سنوات الحرب أثر غيابه على الصناعة والزراعة . علاوة على الغلال والماشية والخيول والحمير والجمال التى كان الانجليز يستولون عليها عنوة . وكان يعاونهم العمد والمشايخ في الاستيلاء على هذا كله . كما كانوا يرهبون الفلاحين باسم السلطة . فسخر هؤلاء العمد والمشايخ الفلاحين في أراضيهم بدون أجور نظير إعفائهم من السلطة والترحيل . فلهذا كان السواد الأعظم طوال سنوات الحرب يلقى أبشع أنواع السخرة . فخرج الفلاحون من هذه الحرب مفلسين وعليهم ديون للمرابين . ومما زاد بؤسهم الطاعون البقرى الذى داهم أبقارهم والدودة التى إلتهمت أقطانهم . ولظروف الحرب العالمية إنخفض سعر القطن وساد البلاد كساد إقتصادى رهيب . وكان الشعور الواضح لدى الشعب المصرى أنه دفع بأبنائه لأتون الحرب والتهم قوته غيلة وغدرا من أجل حرب لاناقة له فيها ولا جمل . فثورة ١٩١٩ كانت في حقيقتها ثورة شعب جاع فهاج . والمطالع لمؤرخى هذه الثورة حيث عاصروها نجدهم قد بينوا أن الثائرين داهموا بيوت الاقطاعيين بحثا عن الخبز والطعام . كما فعل ثوار فرنسا إبان الثورة الفرنسية . **فكانت بداية الثورة هى الثورة على الاقطاع رمز السخرة وعلى الانجليز الذين جروهم إلي البؤس والفقر . فقام الثوار بتحطيم وضرب المصالح البريطانية في مصر . بعد الطوفان عمت الاضرابات في كل مكان . وبعد إندلاعها إنضم إليها مشايخ الأزهر والقساوسة وتحولت المساجد والكنائس إلي قلاع للوحدة الوطنية رافعة شعار الهلال والصليب . والأحزاب الثلاثة التى كانت على الساحة السياسية وقتها متمثلة في الحزب الوطنى والأمة وأعضاء الوفد حاولت وقف هذا الطوفان الهادر والثائر . ولم يصدق الزعيمان سعد زغلول ومحمد فريد وهما في منفيهما خبر الثورة . ومن هول المفاجأة أعلن رؤساء هذه الأحزاب بما فيهم أقطاب الوفد بأن هذه الثورة تخالف الشرع**

والدين رغم أن رجال الدين والأزهر والكنيسة المرقسية كانوا جميعا فيها صفا واحدا يساندونها .
والمطالع لكتاب فكرى أباظة (الضاحك الباكى) يجد أن قادة الوفد أثناء نفى سعد كانوا يشيعون القسم بالله وبسعد في منفاه بمقاطعة البضائع الانجليزية واللغة الانجليزية وكل من له علاقة بالانجليزية مع لبس الحداد حتى يعود سعد وزملاؤه . لكن المصريين كما يقول (لبلان) في كتابه (في سبيل الاستقلال) كانوا قد لبسوا فعلا السواد على شهداء الثورة . وبينما كان المثقفون وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد يطالبون بالاستقلال عن طريق المفاوضات كان الثوار الفلاحون والعمال لهم منطقهم . واتبعوا طريقا آخر أكثر إيلاما لانجلترا ضاربين بقسم الوفد عرض الحائط . فسعد زغلول قد أيقظ شعب مصر من غفوته عندما طلب منه التوقيع له على عرائض الوكالة عنه ليتكلم باسم مصر ويطالب باستقلالها . وهذه التوقيعات التى إنهالت عليه جعلت المصريين يشعرون بذاتهم وأهميتهم ضمن إطار الوطنية مما جعلهم يشعرون أنهم وحدهم أصحاب مصر . والجماهير التى وقعت وبصمت بأصابعها وأختامها على عرائض سعد وضعته في مأزق وطنى لا مفر منه . فلا بد أن يصر على الاستقلال لتحقيق رغبة الأمة ورفع الحماية عن مصر . فكان إعتقاله ونفيه صدمة للشعب وللأمة . فوكيلها منف . ومؤتمر الصلح سيعقد في باريس . فأصبح لسان حالها يقول : من إذن سيتكلم باسم مصر هناك ؟ فاندلع المصريون ثورة ضد الاحتلال . خشية أن تبدد مطالبهم القومية . وخرجت النسوة مسلمات وقبطيات في شوارع القاهرة والاسكندرية ثائرات هاتفات بالاستقلال أو الموت الزؤام . واستشهدن برصاص الانجليز .

ثـــورة ١٩١٩ :

دقت طبول الثورة في كل واد من مصر . فها هى زفتى تعلن العصيان والاستقلال معلنة قيام جمهورية زفتى الوطنية شعارها (الخبز - الحرية - الاستقلال) وجعل ثوارها الخبز قبل الحرية لأن الشعب جاع فهاج .

ووقف السلطان فؤاد والانجليز وفلول الأتراك والأعيان ضد الثورة مذهولين حائرين . وها هو اللينبى الذى عين إبان الثورة مندوبا ساميا لبريطانيا في مصر يصف هذه الثورة في تقريره الذى أرسله على عجل لحكومته في لندن فيقول: إن هذه الثورة حركة سياسية دينية لأن الأقباط مشتركون جميعهم فيها رافعين علم الثورة (الصليب مع الهلال) . هذا هو صوت الأمة الذى علا فوق صوت حكامها وزعمائها وأجبر جلاديها على سماع مطالبها وشكواها وفرضت مطالبها على الانجليز بلا زعامة . فكانت أصوات الآلاف الثائرة هديرا غطى على أصوات المدافع والرشاشات

والطائرات التي قصفت أسيوط وكان ضحاياها مسلمين ومسيحيين . وظلت هذه الثورة مندلعة شهرا حتى رضخت إنجلترا وسمحت لسعد ورفقائه بالتوجه رأسا من مالطة إلي باريس ليتكلم أمام مؤتمر الصلح باسم مصر . وصدم سعد عند وصوله عندما أعلنت أمريكا إقرارها بالحماية البريطانية على مصر وذهبت وعود ولسون أدراج الرياح الاستعمارية . بعدما قدم الثوار إلي محاكم الانجليز التي نصبوها في كل مكان وأقيمت المشانق للثوار في المدن والقاهرة والاسكندرية وكانت أحكامها الشنق والجلد والسجن بعدما سقط المئات شهداء للثورة . وبينما سعد كان في باريس وقد أوصدت الأبواب في وجهه وفرضت فرنسا على مهمته حصارا إعلاميا ونبهت الحكومة الفرنسية على الصحافة بالتعتيم على أخبار مصر ومهمة سعد في باريس كان الشعب يلبس السواد حزنا على شهدائه الذين سيقوا للمشانق حتى أصبحت كل مدينة دنشواى أخرى . وفي يوم عيد جلوس ملك بريطانيا جورج الخامس وكان يوم عيده أجازة رسمية بمصر لبس فيه المصريون السواد حدادا على شهداء الثورة وكان في كل بيت بمصر مأتم وسارت المظاهرات الصامتة حدادا على شهداء مصر في هذا اليوم .

وفي ١٨ يونيو ١٩١٩ م . أعلنت إتفاقية الصلح وفيها نص صريح بتثبيت الحماية البريطانية لمصر . وكان أعلان الاتفاقية بقصر فرساى بباريس صدمة للوفد المصرى هناك . فانشق أعضاؤه عن سعد . وعاد بعض أقطابه وعلى رأسهم إسماعيل صدقى . وعم البلاد روح الاحباط واليأس . فأخذ الوطنيون يغتالون عساكر الانجليز في كل مكان وظهرت المنشورات السرية تهاجم السلطان والانجليز . وفي ١٣ نوفمبر إجتمع المسلمون والاقباط في اجتماع دعت إليه الكنيسة المرقسية بها ... بعدها أعلن شعار الوحدة الوطنية (الحرية - المساواة - الاخاء) . تاكيدا على مواصلة النضال والكفاح يدا واحدة ضد الاحتلال .

وفي ٢١ نوفمبر أعلنت الكنيسة بيانا فيه معارضة الأقباط للجنة ملنر بعدما رفضها المسلمون . وكان هذا الاعلان بمثابة رسالة لانجلترا بأن مصر أمة واحدة وشعب واحد . وملنر قد جاء مصر للتحقيق في أسباب الثورة ووضع صيغة ملائمة لمشروع الدستور . كل هذا وسعد ما زال في باريس بعدما أصابه الاحباط في مهمته إبان مؤتمر الصلح . والشعب في غيبة زعيمه رفض مهمة لجنة ملنر . فقامت المظاهرات ومن شدتها دخل عساكر الانجليز الأزهر والكنائس للقبض على زعمائها . وعند وصول ملنر لمصر كان عدلى يكن رئيس الحكومة والمفاوض عن الجانب المصرى قد رفض مشروع ملنر صراحة .

كل هذا من وقائع للثورة المصرية وحضور لجنة ملنر ورفض عدلي يكن لمشروعها كان سعد زغلول ما زال في باريس لا عمل له هناك بعدما أحبطت مهمته . ودبت الخلافات بين أعضاء الوفد في غربتهم وهذه الخلافات أصبحت فيما بعد خصومات سياسية بعدما عادوا إلي مصر وهذه الخصومات أثرت على الحياة السياسية فيما بعد . بل أضرت بالمصالح القومية خلال العشرينات والثلاثينات . وعاد سعد وصحبه من باريس بخفي حنين في ٥ يونيو ١٩٢٠ م . واستقبله الشعب إستقبال الأبطال .

وسبب الخلاف بين أعضاء الوفد في باريس هو إقتراح أعضائه على سعد بتشكيل حكومة مصرية موثوق فيها للتفاوض مع الانجليز يختار هو أعضاءها ممن يثق فيهم . وكان عدلي يكن رئيس الحكومة المصرية وقتها معروفا عنه التشدد أمام إنجلترا والتمسك بالمطالب القومية وهذا كان واضحا في لجنة ملنر . ورفض سعد أن يتولى هذه الحكومة عدلي يكن . وصمم على أن يتولاها ليكون هو على رأس الوفد المفاوض . متمسكا بالتوكيلات التى وقعها له الشعب . ورفض أن يكون عضوا في وفد يرأسه عدلي بحجة أن عدلي لا يحق له أن يرأس وفدا يقرر مصير أمة . وأمام إصرار سعد إنفض أقطاب الوفد عنه وتركوا باريس عائدين ولم يبق معه سوى النحاس وعلى ماهر وواصف بطرس غالي وسينوت حنا . وظل سعد زغلول بباريس . وبعد عودة سعد لمصر عام ١٩٢٠ م . توجه عدلي يكن ومعه وفد إلي لندن عام ١٩٢١ م . للتفاوض مع الحكومة البريطانية . وعدلي كان لا يقل وطنية عن سعد رغم تركيته . فهو من الجيل الثالث التركي الذى ولد بمصر . وبينما كان يفاوض الانجليز بلندن كانت المظاهرات قد نشبت في مصر بايعاز من سعد زغلول عن طريق أعضاء الجمعية التشريعية التى كان وكيلها . واخذت الجماهير تهتف (الاستعمار على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي) . لكن عدلي إختلف مع الانجليز في مفاوضاته التى قطعها بعدما طلب من الانجليز إصدار تصريح يبينون فيه وجهة نظرهم . ثم عاد ليقدم إستقالته . بعدها أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م . وبعد عودة عدلي إعتقلت إنجلترا سعد ونفته لجزيرة سيشل . ثم أعلنت تصريحها و قبله عبد الخالق ثروت الذى كان رئيس الحكومة وقتها . ولم يخرج عن المشروع الذى رفض عدلي بعض ما جاء فيه . وهذا التصريح كان يضم إلغاء الحماية لتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة والغاء الاحكام العرفية . وعلقت بريطانيا بحث مسألة السودان وتأمين طرق المواصلات البريطانية ولا سيما إلي مستعمراتها بالهند وحماية المصالح الاجنبية في مصر . وبعد هذا التصريح وقبوله عين عبد الخالق ثروت وزيرا

للخارجية لأول مرة منذ الاحتلال ضمن وزارته . وأعلنت الملكية في مصر وأصبح السلطان فؤاد ملكا بعدما ألغيت السلطنة .

عيد الدستور :

في ١٥ مارس ١٩٢٣ م . إفتتح البرلمان . وأعتبر هذا اليوم أول عيد للدستور وكان عطلة رسمية . وعلى الفور تشكلت لجنة لوضع الدستور وقاطع سعد زغلول ومعه الوفد الاشتراك فيها بل هاجموها . وهم في منفاهم كما هاجمها الحزب الوطنى الذى كان يرأسه على فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل) لأن خط الحزب الوطنى هو إستقلال مصر عن إنجلترا مع تبعيتها للدولة العثمانية . لهذا نص (مصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة) لم يرض عنه زعماء الحزب الوطنى الذى كان معظم قياداته وقتها من المصريين من أصل تركى . والوفد لم يبق فيه سوى ثلة باريس التى ظلت مع سعد هناك بعد عودة المنشقين وعددهم لم يكن يتعدى أصابع اليد . وكلهم منفيون في سيشل . وبعد إعلان الدستور أفرج عن المسجونين السياسيين بما فيهم مسجونو الثورة التى حكمت عليهم محاكمها بالسجن ومسجونو دنشواى . وافرج عن سعد في منفاه وهذا العفو تم رغم احتجاج الانجليز لكن مصر أصبحت وقتها دولة مستقلة ذات سيادة هكذا كان رد عبد الخالق ثروت عليهم حيث أبلغهم أن هذا تدخل في شئون مصر المستقلة .

أما دستور ١٩٢٣ م يرجع الفضل في صدوره ليحى إبراهيم رئيس الحكومة وقد إختاره السلطان فؤاد والانجليز رئيسا للحكومة الانتقالية لأنه ليس حزبيا فقد كان مستشارا قضائيا لا يمارس السياسة . واتسم بالهدوء والصمت . ودستور يحى إبراهيم ما زال عمدة الدساتير المصرية حتى الآن . وكان قد أعد مسودة الدستور وتقابل مع الملك فؤاد الساعة ١١ ليلا . وأمام مجلس الوزراء قدم له الدستور قائلا : مصلحة البلاد العليا تقتضى توقيع الدستور الليلة . فاسقط في يد الملك فؤاد . ووقع عليه . بعدها أعلن إلغاء الاحكام العرفية التى فرضت على البلاد عام ١٩١٤ عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر مع إعلان الحرب العالمية الأولى . واجريت الانتخابات العامة التى أتت بسعد زغلول رئيسا للحكومة لأن حزبه الوفد قد اكتسح وسقط يحى إبراهيم نفسه في هذه الانتخابات النزيهة وكان رئيسا للحكومة وقتها . ولأول مرة تشكل حكومة حزبية بالانتخاب العام في التاريخ السياسى المصرى .

لقد أصبح الوفد له شعبيته بزعامة سعد زغلول وخاض المعركة الانتخابية عام ١٩٢٤ م . وحاز على أغلبية ساحقة لأن الانتخابات كانت نزيهة مائة في المائة وهذه المرة الوحيدة والأخيرة

في تاريخ الحكم النيابى في مصر . وتولى سعد رئاسة الحكومة وأطلق على وزارته وزارة الشعب أو الافندية لأنها خلت من الباشوات . وأصبح لمصر برلمان له مجلسان هما الشيوخ والنواب . **وأختير أحمد باشا مظلوم رئيسا لمجلس النواب . فوضع تقاليد برلمانية أهمها إعطاء النائب الفرصة الكاملة للتعبير عن رأيه مهما قاطعته معارضة النواب طالما إعتلى منصة المجلس فلا يتركها إلا بعد أن يفرغ من كلمته مهما إستغرق من وقت . وهذا المجلس كان به معارضة من ١٩ نائبا عن أحزاب الأقلية كالحزب الوطني والاحرار الدستوريين (تأسيس هذا الحزب عام ١٩٢٢م) والمستقلين . وكانت هذه المعارضة ضد حكومة سعد وحزب الوفد ورغم هذا كانت المعارضة تحترمه وتستحي منه رغم ضيق صدره منها . فسعد كان ديكتاتورا لا يطيق معارضة رأيه أو مناقشته فيه . وكان دائما لا يطلب من النواب بالمجلس التصويت على ما يتقدم به بل التأييد لكل ما يعرضه عليهم . لكن في غيبة سعد كان المجلس يتناقش بمنتهى الحرية والديموقراطية ويفسح صدره للمعارضة . وفي ١٥ مارس ١٩٢٤ م . ألقى سعد خطاب العرش . وبعده خصص المجلس جلسة خاصة لمناقشة مشكلة السودان أعلن فيها سعد أنه (بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه وفي حضرتكم الموقرة أصرح بأن الأمة المصرية لا تتنازل عن السودان ما حييت وعشت . وأتت الرياح السياسية بما لا يشتهي سعد . فلقد فشلت مباحثاته مع ماكدونالد حول السودان وأغتيل (لى ستاك) الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى هناك بعدها إستقال سعد من الوزارة لتفرض بريطانيا شروطها الجائرة وأهمها إنفرادها بالسودان وتم هذا في حياة الزعيم سعد زغلول . وكانت إستقالة سعد وهو زعيم الأمة قد ترك السفينة في أحرج الموجات العاتية وتخلى عن قيادتها وهو الحائز على الأغلبية الساحقة في البرلمان وهذا التخلي جعل بريطانيا تفرض شروطها على مصر . وتنازلت الأمة قسرا عن السودان في حياة سعد الذى كان مازال حيا يرزق وكان بصلابته المعهودة كفيلا بالوقوف أمام الانجليز وكشف مخططاتهم وإجهاض نواياهم . لكنه صمت ولم يفعل شيئا !.**

وعلى جانب آخر على صعيد مشكلة السوادن نرى الجيش المصرى هناك يرفض تسليم أسلحته والعودة تاركا السودان للانجليز . لكن حاكم السودان الجديد جمع القوات السودانية وأجبرها على حلف يمين الولاء له ولبريطانيا بدلا من الولاء لملك مصر والسودان . ثم فرضت إنجلترا حمايتها حسب ما جاء في تصريح ٢٨ فبراير حيث فرضتها على المصالح الاجنبية في مصر . واحتلت ميناء الاسكندرية . وكان هذا إعتداء صارخا على الدستور المصرى الذى لم يجف مداده بعد . وحلت مجلس النواب ولم يمض على تشكيله عام . وشكل بالانتخاب النزيه مجلس

جديد عام ١٩٢٥ م . وحل في نفس اليوم بقرار من الملك فؤاد . وفي نفس الليلة إجتمع النواب في فندق الكونتنتال وأتفقوا على تكوين حكومة إئتلافية وأعلن سعد وثيقة وقعها النواب وعرفت بوثيقة الكونتنتال . وفشلت هذه المحاولة . وفي ١٩٢٦ تشكل مجلس ثالث جديد وبعده دخلت مصر في أتون الصراع السياسى بين القصر والاحزاب والانجليز خلال الثلاثينات والاربعينات حيث أصبحت الحركة الوطنية هى التناطح على كرسى الوزارة وليس الاتحاد لتحقيق الجلاء وعودة السودان لمصر .

وفي عام ١٩٢٧ م . ظهرت أزمة الجيش عندما أخذ مجلس النواب يبحث زيادة عدده وتسليحه . فحاصرت انجلترا مصر بالبوارج الحربية تهدد مصر لتتصرف عن مسألة تقوية جيشها . وهذا التهديد جعل الملك فؤاد ومعه عبد الخالق ثروت رئيس الحكومة يهرعان إلي لندن لبحث الموقف مع الحكومة البريطانية التى طلبت من الملك فؤاد حل البرلمان ووقف الحياة النيابة وتعطيل الدستور . وأعلن مستر لويد بأن من مصلحة مصر تعطيل الدستور والبرلمان لأن الحكم الدستورى في مصر تجربة فاشلة . فكان هذا على هوى الملك فؤاد لأنه سيحقق له الحكم المطلق لمصر بلا معارضة . فيطلق فيها يده بلا منازع كما كان آباؤه يفعلون . فأتى بمحمد باشا محمود عام ١٩٢٨ م . ليرأس الحكومة لضرب القوى الوطنية في مصر ومنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة وأحى قانون المطبوعات والنشر لتعطيل الصحف الوطنية ومصادرتها وجمد المجلس النيابى بصدور مرسوم ملكى بتأجيل إجتماعات البرلمان لمدة ثلاث أعوام بالرغم من عدم وجود أى ظروف خطيرة أو كوارث تستدعى هذا التعطيل للحياة الدستورية في البلاد . وأعتبر محمد محمود أن حصانة النواب قد فقدت بهذا التأجيل رغم أن المجلس كان مجمدا وليس منحلا . وأخذ يلاحق النواب ويقبض عليهم ويزج بهم في السجون وسلط عليهم البوليس السياسى لاهانتهم وتعذيبهم . وأصبحت الوطنية سبة بل لعنة تطارد صاحبها وقتها . وتلا صدقى باشا محمد محمود في رئاسة الحكومة . وكانت وزارته وزارة الحديد والنار كما كان يقال . وصدقى ومحمد محمود كانا كما سبق وأن أشرت من المنشقين على سعد في باريس . لهذا أصبحت السياسة الآن تصفية حسابات قبل أن تكون مصلحة أمة . رغم خلو الساحة من سعد لأنه كان ميتا وقتها .

أزمـــة الدسـتـور :

ألغى صدقى الدستور الذى عرف في التاريخ المصرى بدستور ١٩٢٣ وأصدر دستورا عام ١٩٣٠ عرف بدستور صدقى الذى تحدى به الارادة الشعبية والحركة الوطنية المصرية . وظلت

البلاد في قلق سياسي خطير طوال حكمه الذى ظل حتى عام ١٩٣٣ م . فاستقال بعدما أعياه المرض وأقعده وكانت ردود الفعل لوازرتى محمد محمود وصدقى على الشعب سيئة للغاية وهذا جعل الحركة الوطنية تنتقل من أيدى الزعماء إلي أيدى الوطنيين من شباب مصر فظهرت التنظيمات السرية لمقاومة الاحتلال وأخذت القنابل تنفجر في كل مكان وفي معسكرات الانجليز . مما جعل الملك فؤاد يلغى دستور صدقى لتظل البلاد عام ١٩٣٤ بلا دستور لمدة عام . وهذه الفترة أطلق عليها أزمة الدستور . حيث أعلن مستر هوارد وزير خارجية بريطانيا عدم عودة دستورى ١٩٢٣ م و ١٩٣٠ م . وهذا جعل الاحزاب تحت ضغط الحركة الوطنية والمقاومة الشعبية السرية التى تفشت . تكون جبهة وطنية عام ١٩٣٥ م . ضمت الشخصيات الحزبية والمستقلة . وهذه الجبهة طالبت الملك فؤاد بعودة دستور ١٩٢٣ م . وطالبت اللورد كيلرن المندوب السامى البريطانى بابلاغ حكومته بأن مصر تريد فتح باب المفاوضات التى توقفت عام ١٩٣٠ م . بين النحاس وهندرسون .

معاهدة ١٩٣٦ :

أعاد الملك فؤاد الدستور وأجريت الانتخابات عام ١٩٣٦ م . وفاز النحاس فيها بأغلبية ساحقة ليتولى الوزارة حزب الوفد برئاسته . ودارت بينه وبين بريطانيا المفاوضات حول الجلاء والجيش . وأدت هذه المفاوضات إلي توقيع معاهدة ١٩٣٦ م . التى نصت على أن يتم جلاء الانجليز نهائيا من مصر عام ١٩٥٦ أى بعد عشرين عاما من توقيع الاتفاقية . ولهذا عام ١٩٥٤ م . وقعت إتفاقية الجلاء أيام حكومة محمد نجيب ورئيس الجمهورية وقتها ليكون الجلاء في عام ١٩٥٦ نفس موعد تنفيذه حسب إتفاقية عام ١٩٣٦ ووقع إتفاقية عام ١٩٥٤ جمال عبد الناصر نيابة عن الحكومة المصرية . والنص الثانى في المعاهدة هو تمصير الجيش المصرى مع الاستعانة في تدريبه بالخبراء الانجليز وتسليحه بالاسلحة الانجليزية . ونصت المعاهدة على تواجد قوات بريطانيا بمنطقة القنال لحمايتها إلي أن يصبح جيش مصر قادرا على الدفاع عنها وحمايتها . وهذه المعاهدة كما قيل عنها معاهدة تحالف وصداقة . وفي عام ١٩٣٧ وقع النحاس إتفاقية مونتريه ألغى فيها الامتيازات الاجنبية ونصت على إلغاء المحاكم المختلطة بعد ١٢ عاما وألغيت فعلا عام ١٩٤٩ . وبعد توقيع المعاهدة أخذ النحاس يصفها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال لأنها فعلا أكدت استقلال مصر لأن التحالف لا يتم إلا بين دولتين مستقلتين عكس الحماية . فيمكن فرضها على دولة دون إرادتها . والمعاهدة رغم ما حققته أقرت بفصل السودان عن مصر

ولم يعد الصلة بينهما سوى النيل ولقب (ملك مصر والسودان) . لهذا إنصبت المعارضة بالهجوم على المعاهدة ولو كان النحاس علق مشكلة السودان لبحثها فيما بعد لكان هذا أهون من موافقته على فصل السودان إداريا عن مصر . لهذا وصفت المعارضة (وكانت أقلية) . هذه المعاهدة بأنها حماية وليست إستقلالا . ردا على النحاس الذى قال عنها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال . رغم أنه كان في موقف تفاوضي ممتاز أمام الجانب البريطاني لأن نذر الحرب العالمية كانت على الأبواب وأصبحت بريطانيا في مقدمتها ولا تعرف من معها أو عليها وكانت حريصة على كسب مصر في صفها لموقعها الاستراتيجي ولوجود القناة الدولية فوق أرضها . فالنحاس لم يستغل الفرصة المتاحة التى كانت فيها بريطانيا غير مؤهلة نفسيا وسياسيا وعسكريا للتعنت أمام مطالبه أو رفضها . فالنحاس رغم المكاسب التى حصل عليها في المعاهدة تعجل بقبول شروط بريطانيا . وكان موقف برطانيا صعبا للغاية لأنها لم تعد تحتمل ثورة مصرية كثورة ١٩١٩ وهى على أبواب حرب عالمية لا تعرف فيها الصديق من العدو . لهذا قامت معارضة ضد المعاهدة في مصر لأن انجلترا إستفادت منها بجعل وجودها في القناة شرعيا بحجة الدفاع عنها وحماية مصر والمعاهدة جعلت مصر رهينة وبقرة تحلبها انجلترا أثناء وقوع حرب ضدها وطوال قيام هذه المعاهدة نصت على إستغلال إنجلترا موارد مصر وأراضيها في حالة نشوب أى حرب ضدها وطوال قيام هذه الحرب . وبعد المعاهدة إتجه النحاس إلي الاستقلال بالسياسة المصرية والجيش عن النفوذ والتدخل البريطاني . وانضمت مصر إلي عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة . ورغم ما قيل أو يقال عن المعاهدة إلا أنها في مجملها كانت وثبة قومية على طريق الاستقلال . لأنها كما قال الدكتور عبد الله العربى عنها في صحيفة الجهاد بأنها حققت لمصر إستقلالها التام وسيادتها الكاملة . وما جاء فيها هو تحالف عسكرى لا يتعارض مع السيادة الداخلية والخارجية . وقد أجمع المؤرخون على هذا الرأى . واعتبروا هذه المعاهدة نقطة تحول كبرى بل ومحورية في تاريخ الحركة الوطنية . لأنها أعتبرت تحالفا على وجود قاعدة عسكرية بريطانية في قناة السويس لتأمين مصالح بريطانيا في الهند والشرق . وهذا التحالف يؤكد إستقلال مصر في نظرهم .

حكم فاروق :

كان فاروق ملكا مريضا بمرض عقلى لاصابته بمرض الالتهاب السحائى (الحمى الشوكية) وهو في التاسعة من عمره واستدعى الملك فؤاد سرا كبار الأطباء الايطاليين . وهذه الرواية كشف عنها لأول مرة مرتضى المراغى في مذكراته بعنوان (غرائب من عهد فاروق) .

وهذا المرض لازمت آثاره الملك فاروق طوال حياته وجعلته أهوج التصرف ومشتتا في تفكيره وقراراته . وأخفى هذا المرض عن الشعب المصرى وكان له آثاره السيئة على الملك فؤاد الذى رزء في ولى عهده وإبنه الوحيد على أخواته الثلاثة . وجعل هذا المرض فاروق يسلك مسلكا طفوليا في معظم تصرفاته الصبيانية . وكان الزعماء السياسيون يعاملونه بمنتهى الحذر وعلى رأسهم مصطفى النحاس باشا . وأصبح ملك مصر والسودان ألعوبة في أيدى حاشيته وبطانته . وكانوا جميعا أهل سوء .

وكان على ماهر رئيسا للديوان الملكى وقتها والنحاس رئيس الحكومة . وكان الملك صبيا غرا وبعد عام من توليته العرش أقال النحاس باشا عام ١٩٤٨ م . والمطالع لخطاب الاقالة سيجد فيه وقاحة ملك إلي زعيم الأغلبية البرلمانية وقتها . وبعد الاقالة حل الملك البرلمان ليفقد النحاس أغلبيته فيه . والملك لم يكن محنكا في السياسة والأمور الدستورية لكن على ماهر كان له من الناصحين والمخططين لبث الوقيعة بين الملك والنحاس زعيم الأغلبية وزعيم الأمة وقتها . ليخلو له الجو السياسى يصول ويجول فيه . وعلى ماهر كان داهية بمعنى الكلمة وسياسيا لا يشق له غبار في معارك السياسة . وكان يمتاز بالهدوء والتخطيط لدرجة كان يلقب بالثعلب لدهائه ومكره . فنراه بعد إقالة النحاس يولى محمد محمود لثانى مرة وكانت المرة الأولى التى تولى فيها رئاسة الحكومة كانت في أعقاب وزارة النحاس الأولى . وخطا محمد محمود في وزارته الثانية عدة خطوات إصلاحية في الجيش وتسليحه واشترى سربين من الطائرات في عام توليه وألغى البدلية العسكرية وجعل التجنيد إلزاميا ما عدا بعض الاعفاءات التى كان ينص عليها قانون التجنيد . ثم إستقال في نفس العام الذى تولى فيه وهو عام ١٩٣٨ م . ليخلفه على ماهر في أوائل عام ١٩٣٩ م . وكان مجيئه في الوقت المناسب لأن الحرب العالمية كانت قد اشتعلت في بولندا . وهذه الفترة كانت فترة سياسية حرجة بالنسبة لموقف مصر المستقلة وتنفيذ إنجلترا لشروط معاهدة ١٩٣٦ م . فبثعلبية على ماهر إستطاع عزل الملك تماما في قصره عن السياسة المصرية . ولكونه كان رئيس الديوان الملكى حيد الحاشية . ولم يكن بمعزل عما يدور في كواليسه عن طريق أتباعه في السراى.

فلما نشبت الحرب العالمية الثانية رفض صراحة إعلان الحرب مع إنجلترا ضد المانيا . والتزم أمامها بتنفيذ المعاهدة حرفيا . وعلى جانب آخر كان على صلة بالنازى وأصبح همزة وصل ما بين الألمان والملك . وهذه العلاقة الالمانية المصرية كانت طى الكتمان . وذرا للرماد قطع

العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الالمانية . لكن إنجلترا رغم هذا أحست بأن على ماهر ليس رجلها المفضل في مصر رغم التزامه التام بتنفيذ بنود المعاهدة حرفيا بلا زيادة أو نقصان . وكان تنفيذه لها كما يقول (كامبل) تنفيذ المكره الساخط . لأنه كان متحفظا في تعاملاته مع السفارة البريطانية .

وسلط هتلر دعاياته عبر الاذاعة إلي المصريين باللغة العربية وروج عن طريق عملائه دعايات مضادة للانجليز بين جماهير الشعب المصرى الذى كان يهتف تقدم ياروميل تشفيا في الانجليز . ووجدت إنجلترا أن الملك وعلى ماهر رئيس الحكومة المصرية والشعب المصرى معظمه مع الالمان قلبا وروحا ضدهم . فلم يكن أمامهم خيار سوى القيام بعملية ٤ فبراير ١٩٤٢ م . وهذا الحادث أضاع هيبة الملك وأتى بالنحاس فوق رماح القوات الانجليزية التى حاصرت سراى عابدين وبها الملك فاروق . وأنذرت السفارة البريطانية فاروق إما عودة النحاس للرئاسة وإما الخلع في ٢٤ ساعة . ولأول مرة يقف الشعب بقلبه مع ملكه الذى إنصاع لمطالب الانجليز وأصدر مرسوما باقالة على ماهر وتعيين النحاس عن كره منه . وقبل النحاس تشكيل الوزارة .

من الجحود السياسى أن نسقط من تاريخنا زعامة كزعامة النحاس ولا سيما في هذه الفترة بالذات فلقد كان حادث ٤ فبراير صورة إنتهازية إستعمارية إلتصقت بالنحاس وكانت مثلبا للنيل منه ومن زعامته لسنوات ما بعد الحرب . وما زال إلي اليوم يعير بها تاريخه وحزبه . وبغض النظر عما قيل أو يقال عنه فهو زعيم . قال عنه الدكتور حسين مؤنس . حكم قلبا وعقلا لأن جهاده كان جهاد السياسى المكتمل الزعامة التى كان يتسم بمهابتها وعظمتها . والتى ظهرت في حادثة ٤ فبراير حيث أرجف البعض بها وبينوا أنها مثلب ضده . لكن كل ما يقال لا يؤخذ على عواهنه . وإلا تاهت الحقيقة . وحادث ٤ فبراير رغم أنه كان يحتم على زعيم كالنحاس ألا يقف مكتوف الأيدى ولا سيما أنه كان على بينة بما يدور على مسرح العمليات في شمال أفريقيا وما كان يدور في كواليس السراى من تحالف مع الالمان وعملاء النازى وقتها . فالألمان كانوا بدعاياتهم قد إستحوذوا على عقول المصريين ومنوهم بالجلاء والتخلص من الانجليز وقتها كانت قواتهم على أبواب مصر عند العلمين . لهذا جن جنون الانجليز ولم يكن أمامهم حل سوى إقصاء على ماهر عميل المانيا الأول في مصر . عكس النحاس الذى كان ولاؤه لمصر بعيدا عن إنجلترا وألمانيا . وله شخصيته وزعامته . فرأى الانجليز أن في عودة النحاس إلي الحكم سينقذ الموقف المتردى وقتها . ورأى النحاس أن قبوله للمنصب فيه غنم لمصر لأنه سيكون على مقربة من الأحداث لينقذ مصر

من أى خطر يداهمها على أيدى الانجليز أو الالمان . ولهذا أحس أن مصر في ورطة ولم يكن بقادر على أن يتجاهلها أو يدير لها ظهره . فنراه يصرح قائلا : الشيطان الذى نعرفه خير من الشيطان القادم الذى لا نعرفه . فالبلد على حد قوله (غلبانة) . فالمصريون وقتها كانوا لا يجدون رغيف العيش . وهذا ما رأيناه وما عاصرناه إبان الحرب . والزعماء دائما لهم نظرتهم للأمور . فديجول تحالف مع عدو بلده التقليدى إنجلترا . وتشرشل يعلن أنه مستعد للتحالف مع الشيطان لتحقيق النصر . والنحاس تحالف مع إنجلترا من أجل مصر . والمطالع لخطاب قبوله الوزارة وتصريحاته في أعقاب أزمة فبراير يجده مصرا على الحفاظ على إستقلال مصر ودستورها وإنقاذ البلاد من خطورة الموقف . كما نجده يحذر بريطانيا من عدم المساس بسيادة مصر على أراضيها وعدم التدخل في شئونها الداخلية .

فالنحاس لم يلن أمام إنجلترا ولم يضعف أمام السراى وقتها . وما هو الدكتور محمد حسين هيكل ألد أعدائه يقول عنه : كانت شهرة النحاس قائمة في نفس جمهوره أنه رجل نزيه طاهر اليد . وقال عنه أحمد حسين عدوه الأول : كانت زعامته مقدسة . فحادثة ٤ فبراير موقف وطني للنحاس لا يدعيه ولا ننكره عليه . فالنحاس لم يجن على أحد . وما زال في قبره مجنيا عليه بلا ذنب جناه . فالرجل ستذكر له مصر معاهدة ١٩٣٦ وإلغاءها عام ١٩٥١ وإلغاء الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة وانحسار الحماية على مصر واستقلال القضاء ومجانية التعليم وإنشاء نقابات العمال والنقابات المهنية وديوان المحاسبة وإنشاء الوحدات الريفية ومد المياه النقية للقرى وتشجيع الفدائيين في القناة لمقاومة الاحتلال وسحب ٢٠ ألف مصرى كانوا يعملون في معسكرات الانجليز في منطقة القناة وكسر احتكار السلاح بالتعاقد مع روسيا لتسليح البوليس المصرى وجلب مصانع من بلجيكا لتصنيع الأسلحة المصرية . والنحاس قام بتأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥.

صـــــــراع الـزعمـــــاء :

بينما رفض على ماهر (شقيق الدكتور أحمد ماهر) إعلان الحرب ضد ألمانيا عام ١٩٣٩م . نرى أحمد ماهر وهو رئيس للحكومة يعلنها عام ١٩٤٥ م . عندما تقدم للبرلمان لاقرار المشروع وأحمد ماهر كان وطنيا من الطراز الأول وأيام حكومته كانت مصر تمر بغليان سياسى محموم . وسادت الساحة السياسية تيارات متباينة ومتصارعة ومتضاربة والكل وقتها كان يطالب بالجلاء على طريقته حتى باتت مسألة الجلاء والسودان وقتها كشماعة سياسية يعلق عليها كل حزب رداءه

وزعامته . إما أحمد ماهر نأى عن هذا واتجه بنظرته السياسية إلي التطلع لموقف مصر بعد الحرب . فالألمان أصبحوا على وشك الهزيمة والحلفاء في طريقهم لاعلان سقوط برلين عاصمة ألمانيا . فأراد أحمد ماهر إعلان الحرب في آخر لحظة بعدما كانت مصر على الحياد إسميا إبانها . وهذا الاعلان الصورى سيعطى مصر الحق في حضور مؤتمر الصلح وتكون طرفا فيه بصفتها دولة مصر المستقلة وعضو عصبة الأمم . مما يجعلها صاحبة الحق في التعويضات عما أصابها من أضرار أثناء الحرب . وهذه نظرة إيجابية لأنها ستحقق لمصر غنما . لا غرما لها بالمرة وفي الحضور تاكيد على إستقلالها وسيادتها على أراضيها أمام العالم في هذا المؤتمر الدولى الذى يضم الدول العظمى كلها . لكن النحاس في ٢٥ فبراير نشر بيانا بجريدة البلاغ إتهم فيه أحمد ماهر بالخيانة العظمى باعلانه الحرب على ألمانيا . وهذه سقطة من النحاس لا تغتفر لأن الموقف السياسى على الصعيد القومى كان وقتها لا يحتمل مناورات سياسية . فالشعب بما فيه الشباب كان متحمسا لألمانيا ولهتلر ولم يكن على بينة بأبعاد الموقف العالمى من الحرب . فاتهام النحاس لأحمد ماهر بالخيانة صراحة لاجهاض مهمته أوغر صدور الشبان الذين ضربوا أحمد ماهر بالرصاص واغتالوه غيلة وغدرا في البرلمان لتخسر مصر أحد ساستها العظام .

وكان للاحباط القومى الذى عم البلاد من تناطح الأحزاب على الحكم أن عمت الاضرابات عامى ٤٦ و ١٩٤٧ في كل مكان حيث أضرب العمال والطلبة والموظفون وساروا في الشوارع يطالبون بالجلاء . وقامت الجماهير الغاضبة بتمزيق العلم البريطانى بالقاهرة والاسكندرية واحتكت بعساكر الانجليز واستشهد العشرات وكان محمد فهمى النقراشى رئيسا للحكومة الذى أمر باطلاق النيران وفتح كوبرى عباس على الطلبة وغرق الكثيرون منهم خوفا من الرصاص الذى كان ينهال عليهم برصاص البوليس المصرى فألقوا بأنفسهم في النيل .

وفى عام ١٩٤٨ أعلنت مصر دخولها حرب فلسطين وقصة الأسلحة الفاسدة معروفة والخيانة التى صاحبتها معروفة وحصار القوات المصرية في الفالوجة وإنسحابها بعده عام ١٩٤٩م من فلسطين . بعدما ألحت مصر على عقد مؤتمر رودس لتوقيع الهدنة مع اليهود . وكانت قواتنا قد هزمت هناك رغم إستشهاد الكثيرين منها . وأبلت كتائب الاخوان المسلمين بلاء حسنا فيها ومن بينهم الشهيد أحمد عبد العزيز . واستقبلت الجماهير أبطال الفالوجة وقوات الجيش المصرى عند عودتهم من فلسطين إستقبال الأبطال المنتصرين وأستقبلهم الملك فاروق في ميدان عابدين وأنعم عليهم بالنياشين والهدايا . وكان الشعب لا يعرف مدى التضليل الاعلامى الذى

يروجه الملك حول جيشه المنهزم . فكانت حرب فلسطين بأبعادها المأساوية نكبة للمصريين والفلسطنيين معا . فبينما كان الملك يستقبل قواته المظفرة كان الآلاف يذبحون وينزحون من أراضيهم الفلسطينية بلا مأوى تطاردهم بنادق ومدافع العصابات الصهيونية .

وفي عام ١٩٥١ أعلن النحاس إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء الاتفاقية الثنائية بين مصر وإنجلترا عام ١٨٩٩ م . والخاصة بالحكم الثنائي بينهما للسودان وأعلن أن الملك فاروق ملك مصر والسودان . بعدها ظهرت حركة الفدائيين كتنظيمات سرية تضم المتطوعين وكانت بعيدة عن سيطرة الحكومة . وكان الشعب يمولها . وحول الفدائيون منطقة القنال التي كان فيها معسكرات الانجليز إلي جحيم لا يطاق . مما جعل القوات البريطانية تحاصر بلوكات النظام (قوات الأمن المصرية) في ٢٥ يناير ١٩٥٢ وكانت في مدينة الاسماعيلية . وحوصرت هذه القوات بالدبابات البريطانية التي أطلقت عليها النيران لكن المصريين قاوموا وصمدوا ودافعوا عن معسكراتهم ببسالة واستشهد منهم البعض وأصبح هذا اليوم عيدا للشرطة لاستبسالها أمام القوات البريطانية ولم تستسلم . لهذا قرر النحاس قطع العلاقات مع بريطانيا والقبض على كبار الشخصيات الانجليزية كرهائن لوقف معركة الاسماعيلية . وانطلقت المظاهرات إلي سراي القبة حيث كان الاستعداد للاحتفال بعيد ميلاد الطفل أحمد فؤاد ولي العهد . ووقفت الجماهير الغاضبة تطالب ملك البلاد بالسلاح للحرب في القناة . وفي اليوم التالي كان السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢ ثاني يوم معركة الاسماعيلية يوم حريق القاهرة المشهود .

قيام ثورة يوليو :

كان حريق القاهرة اليوم الأغبر بداية العد التنازلي لوجود فاروق على عرش مصر رغم أن الجناة ما زالوا مجهولي الهوية حتى الآن . لكن كان وراءه ملك عبث بمقدرات شعبه ولم يدر أنه كان يحفر قبره . وكان واضحا أن هذا الحريق دبرته السراى مع المخابرات البريطانية في مصر لاخماد حركة الفدائيين وضرب حكومة الوفد بزعامة النحاس التى أقالها . لهذا بعد نشوب الحريق بساعات أصدر الملك فاروق مرسوما باقالة النحاس وبخه فيه متجاهلا أنه زعيم للأغلبية البرلمانية ثم أعلن الاحكام العرفية . بعدها دخلت مصر لعبة تغيير الحكومات فشكلت منذ يناير حتى قيام الثورة في يوليو عام ١٩٥٢ سبع وزارات كان بعضها يحكم أياما معدودات ثم تقال .

وفي ٢٣ يوليو قامت الثورة بقيادة اللواء محمد نجيب . واستقبلها الشعب بفرحة وأمل . وكان شعارها (الاتحاد والنظام والعمل) . وقائد الثورة محمد نجيب كان شخصية محبوبة في

الجيش المصرى وكان معروفا لدى الشعب لما بذله من شجاعة وبطولة في حرب فلسطين . وفي ٢٦ يوليو تنازل فاروق عن العرش لولى العهد أحمد فؤاد وكان طفلا رضيعا عمره شهور فعين له مجلس وصاية . وتعين على ماهر أول رئيس وزراء في عهد الثورة حيث أصدرت حكومته قانون الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية وإلغاء الألقاب وأستعيض عنها بلقب (السيد) يسبق إسم كل مواطن .

وفى عام ١٩٥٣ ألغيت الملكية في مصر وأصبحت جمهورية . وتعين اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية . وبهذا أصبح لابسو الجلاليب الزرقاء أصحاب بلدهم وحكامها . وحلت الأحزاب عام ١٩٥٣ وقدم زعماؤها للمحاكمات بتهم الرشوة والمحسوبية والفساد السياسى ونهب قوت الشعب . وسجن منهم من سجن والنحاس حددت إقامته ببيته حتى مات عام ١٩٦٥ وتكتمت الصحافة خبر وفاته . وفي ١٩٥٤ حلت جماعة الاخوان وقبض على أفرادها وزج بهم في السجون . وأقيل محمد نجيب وحددت إقامته في بيت النحاس بالمرج .

****

*****

**

حكام مصر قبل الفتح

حكام مصر قبل الفتح :

٥٠٠٠ ق . م . – عصر ماقبل الأسرات .

٣١٠٠ – ٢٢٨٦ ق . م . – بداية عصر الأسرات (الأسرتان الأولى والثانية) .

– الملك مينا يوحد القطرين . ويشيد مدينة منف .

الأسرة الأولى:

– العاصمة أبيدوس .

– ملوكها : سخموري ونب رع ونتريمو وأونج وبرايب أش وسنجى وخع سخم وخع سخموى .

٢٦٨٦ – ٢١٨١ ق . م . – المملكة القديمة

(الأسرة ٣ – ٦) .

الأسرة الثالثة:

– العاصمة منف (ممفيس) حاليا ميت هيف بالبدرشين بالجيزة .

– ملوكها : زوسر وسخم خت وخع با ونفركا وجونى .

الأسرة الرابعة:

– العاصمة : دهشور (ميدوم) والجيزة وأبورواش ثم الجيزة .

– ملوكها : سنفرو وخوفو وجد فرع وخفرع ومنكاروع (منقرع) وسيسكاف .

الأسرة الخامسة:

– العاصمة : منف ودهشور وسقارة .

– ملوكها : أوسركاف وساحورى وكاكاى ومنكا وحور وايسيسى وأوناس .

الأسرة السادسة:

– العاصمة منف .

– ملوكها : تيتى الأول وبيبى لأول وبيبى الثاني ونفر كارع .

٢١٨١ – ٢٠٤٠ ق . م . – الفترة المتوسطة الأولي

(الأسرة ٧ – ١٠) .

– العاصمة منف وهيراكليو بوليس وطيبة ومنف .

الأسرة السابعة:

– ملوكها : مجهولون . كانت البلاد فى فوضى سياسية وحكمها ٧٠ ملكا فى سبعين يوما .

الأسرة الثامنة:

– آخر أسرة فى منف وملوكها مجهولون .

الأسرتان التاسعة والعاشرة:

– العاصمة هيراكليو بوليس .

– ملوكها : خيت الأول وخيتى الثانى ونفر كارع وخيت الثالث ومرى كارع .

٢٠٤٠ - ١٧٨٦ ق.م. - مصر المملكة المتوسطة (الأسرة ١١ - ١٢) .

الأسرة الـ ١١ :

- العاصمة : طيبة .

- ملوكها : عشرة ملوك يطلق عليهم ملوك المناحة .

الأسرة الـ ١٢ :

- العاصمة منف (ممفيس) .

- ملوكها : امنمحات الأول وسيزو ستريس وامنمحات الثانى وسيزوستريس الثانى وسيزو ستريس الثالث وامنمحات الثالث وامنمحات الرابع والملكة سبك نفرو رع .

فى عام ١٩٩٥ ق.م. حكم امنمحات الأول مصر بقبضة حديدية ووحدها .

وفى عام ١٧٨٥ ق.م. حكمت الملكة سبك نفرو رع آخر ملوك الأسرة الـ١٢ وهى أول ملكة تحكم فى التاريخ .

١٧٨٦ - ١٥٦٧ ق.م. - مصر الفترة المتوسطة الثانية (الأسرة ١٣ - ١٧) .

الأسرتان الـ١٣ والـ١٤ :

- حكم مصر حوالى ٤٠ ملكا حيث انقسمت فيهما البلاد الى دويلات صغيرة وكانت العاصمة الليشت.

الأسرتان الـ١٥ والـ١٦ : حكم الهكسوس فيهما مصر وهم رعاة أسيويون

- العاصمة : أواريس (هواريس) حاليا صان الحجر .

- ملوكها : شرك واوسرع وابوبى الأول وسوسرن رع وخيان وشيشى وحمدى وعاسح رع وأبوبى الثانى وأبوبى الثالث .

الأسرة الـ١٧ :

- العاصمة : طيبة

- ملكها كاموس الذى استعاد مصر الوسطى من الهكسوس .

١٧٩٠ - ١٥٨٠ ق.م. - الهكسوس يغزون مصر ولاسيما منطقة شرق الدلتا .

١٧٢٠ ق.م. - الهكسوس يغزون مصر ثانية .

١٦٧٤ق.م. - سقوط مدينة منف (بالبدرشين) فى يد الملك ساليتس (الهكسوس) . وتأسيس مملكة فرعونية مستقلة فى طيبة (الأقصر) .

١٥٦٧ - ١٠٨٥ ق.م. - قيام المملكة الحديثة (الأسرة ١٨ - ٢٠) .

الأسرة الـ١٨ : أسرة التحامسة (مصرية)

- العاصمة : طيبة (الأقصر) .

- ملوكها :

١٥٨٠ ق.م. - أحمس (محرر مصر من الهكسوس) .

١٥٥٨ ق.م. - امنحتب (أمنو فيس) الأول .

١٥١٤ ق.م. - تحتمس الأول .

١٥٢٠ ق.م. - تحتمس الثانى (تزوج أخته حتشبسوت).

١٥٠٤ ق.م. - الملكة حتشبسوت .

١٤٨٣ ق.م. - تحتمس الثالث (تزوج خالته حتشبسوت) .

١٤٥٠ ق.م. - امنحتب الثانى (امنوفيس الثانى).

١٤٢٥ ق.م. - تحتمس الرابع

١٤٠٨ ق.م. - امنحتب (امنوفيس) الثالث .

١٣٧٢ ق.م. - أمنحتب (أمنو فيس) الرابع (اخناتون) (جعل العاصمة أختن آتن (تل العمارنة حاليا).

١٣٦٦ ق.م. - سمنخ كا رع .

١٣٥٤ ق.م. - توت عنخ أمون . (أعاد العاصمة

بطيبة بعد الغاء دعوة آتون وعودة عبادة آمون .

– الملك آى

١٣٤٣ ق. م. – حور محب .

الأسرة الـ١٩ : أسرة الرعامسة الأولى

– العاصمة : طيبة (الأقصر)

– ملوكها :

١٣١٤ ق. م. – رمسيس الأول .

١٣١٢ ق. م. – سيتى الأول .

١٣٠١ ق. م. – رمسيس الثانى .

١٢٣٥ ق. م. – مرنبتاح (منفتاح) .

١٢٢٤ ق. م. – أمنموسيس .

١٢١٩ ق. م. – مرنبتاح سبتاح .

١٢١٠ ق. م. – سيتى الثانى .

١٢٠٥ ق. م. – رمسيس سبتاح .

– إيارسو (حكم مصر من فلسطين).

١٢٠٠ ق. م. – سيتاخت .

الأسرة الـ٢٠ : أسرة الرعامسة الثانية .

١١٩٨ ق. م. – رمسيس الثالث .

١١٦٨ ق. م. – ١٠٨٥ ق. م. – حكم الرعامسة من رمسيس الرابع حتى رمسيس الـ١١ .

١١٠٠ ق. م. – سهند يس يحكم مصر من تانيس

.١٠٨٥ – ٣٣٢ ق. م. – عصر الفترة المتأخرة (الأسرة ٢١ – ٣٠) .

الأسرة الـ٢١:

كانت مصر تحكم حكما مزدوجا من تانيس (سمند يس) وطيبة .

ملوكهـــــا :

– فى سمند يس : بسو سنس وماركا رع ابنة سر سنس و أمنيو فيس وسيامون .

– فى طيبة : حريحور وبأى نجم .

الأسرة الـ٢٢ : الليبيون يحكمون مصر .

---

٩٥٠ ق. م. – شيشنق الأول . (وحد مصر) .

٩٢٩ ق. م. – أوسر كون الأول .

٨٩٣ ق. م. – تاكلوت الأول.

٨٧٠ ق. م. – أوسر كون الثانى .

٨٤٧ ق. م. – تاكلوت الثانى .

٨٢٣ ق. م. – شيشنق الثالث .

الأسرة الـ٢٣:

– العاصمة تانيس (قرب دمياط)

– من ملوكها : باماى وشيشنق الخامس حكم عام ٧٦٧ ق. م.

الأسرة الـ٢٤:

– العاصمة : سا يس

ملوكها : تفناخت وبو كوريس .

الأسرة الـ٢٥ : المملكة النوبية (الكوشية).

– العاصمة : نباتة فى النوبة (حاليا بلدة كريمة على الضفة الغربية للنيل جنوب بلاد النوبة)

ملوكها :

٧١٥ ق. م. – شابا

٧٠١ ق. م. – شبا تاكا .

٦٨٩ ق. م. – طهارقا

٦٦٤ ق. م. – تانو تامون .

الأسرة الـ٢٦:

- العاصمة : منف .

٦٦٣ ق. م. - بسماتيك الأول .

٦٠٩ ق. م. - نخاو الثانى .

٥٩٤ ق. م. - بسماتيك الثانى .

٥٨٨ ق. م. - إبريس

٥٦٨ ق. م. - أما زيس (العاصمة سا يس) .

٥٢٥ ق. م. - بسماتيك الثالث

الأسرة الـ٢٧ : مصر ولاية فارسية . يحكمها :

٥٢٥ ق. م. - قمبيز يهزم بسماتيك الثالث.

٥٢٢ ق. م. - دارا الأول .

٤٨٥ ق. م. - جزر كسيس الأول .

٤٦٤ ق. م. - أرتا جزر كسيس الأول .

الأسرة الـ٢٨ : مصر إستقلت وأصبحت فرعونية.

- العاصمة سايس

- ملكها أميرتى .

الأسرة الـ٢٩:

- العاصمة منديس (قرب سمنود) .

- ملوكها :

٣٩٨ ق. م. - نفرتيس الأول .

٣٩١ ق. م. - بساموتيس .

٣٩٠ ق. م. - جاكوريس .

٣٧٨ ق. م. - نفرتيس الثانى

الأسرة الـ٣٠:

- العاصمة سمنود.

ملوكها :

٣٧٨ ق. م. - نقطا تبو الأول .

٣٦١ ق. م. - تاخوس

٣٥٩ ق. م. - نقطا تبو الثانى (آخر فراعنة مصر)

٣٤١ ق. م. - ارتا جزر كسيس الثالث (فارسى)

٣٣٨ ق. م. - أرسيس.

٣٣٥ ق. م. - دارا الثالث .

٣٣٢ ق.م.- العصر الاغريقى وحكم الأسكندر والبطالمة.

حكم البطالمة مصر (١٤ ملكا وملكة . سبعة ملوك حملوا إسم بطليموس وسبع ملكات حملن إسم كليو باترا وآخرهن كليو باترا السابعة التى خلفها إبنها بطليموس الملك الـ١٤ .) .

٣٠ ق. م. - ٦٣٩ م. الحكم الرومانى لمصر وكانت مصر تابعة الى روما ثم أصبحت تابعة الي القسطنطينية الدولة الرومانية الشرقية منذ عام ٢٩٥ م. وظلت إلى أن فتح العرب مصر .

حكام مصر منذ الفتح

حكمها عام

---

٦٤٠ - ٨٦٨ - فترة حكم الولاة التابعين للخلافة الراشدية والأموية والعباسية

٦٤٠ - عمرو بن العاص

٦٤٤ - عبد الله بن سعد بن أبى سرح

٦٥٦ - قيس بن سعد

٦٥٧ - محمد بن أبي بكر

- ملك بن الحارث الاشتر

٦٥٨ - عمرو بن العاص (عاد مرة ثانية)

٦٦١- ٧٥٠ حكم الدولة الاموية

٦٦٤ - عبد الله بن عمرو

- عتبة بن أبي سفيان

٦٦٥ - عقبة بن عامر الجهنى

٦٦٧ - مسلمة بن مخلد

٦٨٢ - سعيد بن يزيد الأزدى (كانت مصر تابعة للخلافة الزبيرية)

٦٨٤ - عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم القرشى (كانت مصر تابعة للخلافة الزبيرية)

٦٨٥ - عبد العزيز بن مروان

٧٠٥ - عبد الله بن عبد الملك

٧٠٩ - قرة بن شريك العباسى

٧١٤ - عبد الملك بن رفاعة الفهمى

٧١٧ - أيوب بن شرحبيل

٧٢٠ - بشر بن صفوان الكلبى

٧٢١ - حنظلة بن صفوان الفهمى

٧٢٤ - محمد بن عبد الملك بن مروان

- الحر بن يوسف

٧٢٧ - حفص بن الوليد الحضرمى

- عبد الملك بن رفاعة (للمرة الثانية)

- الوليد بن رفاعة الفهمى

٧٣٥ - عبد الرحمن بن خالد الفهمى

٧٣٧ - حنظلة بن صفوان (للمرة الثانية)

٧٤٢ - حفص بن الوليد (للمرة الثانية)

٧٤٥ - حسان بن العتاهية التجيبى

- حفص بن الولي الحضرمى (للمره الثانية)

- حوثرة بن سهل الباهلى

٧٤٩ - عبد الحميد بن المغيرة بن عبيد الله الفزارى

٧٥٠ – عبد الملك بن مروان اللخمى (يقال عبد الله بن مروان الحمار)
٧٥٠ – مصر تابعة للخلافة العباسية
٧٥١ – أبو عون عبد الملك
٧٥٣ – صالح بن على بن عبد الله العباسى
٧٥٤ – أبو عون عبد الملك الأزدى (للمرة الثانية)
٧٥٨ – موسى بن كعب التميمى
٧٥٩ – محمد بن الأشعث الخزاعى
٧٦٠ – حميد بن قحطبة الطائى
٧٦٢ – يزيد بن حاتم المهلبى
٧٦٩ – عبد الله بن عبد الرحمن بن خديج
٧٧٢ – محمد بن خديج
٧٧٢ – موسى اللخمى
٧٧٨ – عيسى بن لقمان
٧٧٩ – منصور بن يزيد الرويني
– أبو صالح يحى
٧٨٠ – صالح بن سوادة التميمى
٧٨١ – إبراهيم بن صالح بن على العباسى
٧٨٤ – موسى بن مصعب الخثعمى
٧٨٥ – أسامة بن عمرو
– الفضل بن صالح بن على العباسى
٧٨٦ – على بن سليمان بن على العباسى
٧٨٧ – موسى بن عيسى العباسى
٧٨٩ – مسلمة بن يحى البغلى(الأحمسى)
٧٨٩ – محمد بن زهير الأزدى
٧٩٠ – داود بن يزيد بن حاتم المهلبى
٧٩١ – موسى بن عيسى العباسى (للمرة الثانية)
٧٩٢ – إبراهيم بن صالح العباسى (للمرة الثانية)
٧٩٣ – عبد الله بن مسيب الضبى
– إسحق بن سليمان بن على العباسى
٧٩٤ – هرثمة بن عيان
– عبد الملك بن صالح بن على العباسى
٧٩٥ – عبيد الله بن المهدى العباسى
٧٩٦ – موسى بن عيسى العباسى (للمرة الثالثة)
– عبيد الله بن المهدى العباسى
٧٩٧ – إسماعيل بن صالح بن على العباسى
٧٩٨ – الليث بن الفضل الأسدى
٨٠٣ – أحمد بن إسماعيل بن على العباسى
٨٠٥ – عبيد الله العباسى (لقب بابن زينب)
٨٠٦ – الحسين بن جميل
٨٠٧ – مالك بن دلهم الكلبى
٨٠٩ – الحسن بن التختاخ
٨١٠ – حاتم بن هرثمة بن أعين
٨١٢ – جابر بن الاشعث الطائى
– عبد الله البلخى
٨١٣ – المطلب الخزاعى
٨١٤ – العباس بن موسى بن إسحق العباسى
٨١٥ – المطلب الخزاعى (للمرة الثانية)

٨١٦ – السرى بن الحكم
– سليمان بن غالب البغلى
٨١٧ – السرى بن الحكم (للمرة الثانية)
٨٢٠ – محمد بن السرى
٨٢٢ – عبيد الله بن السرى
٨٢٦ – عبد الله بن طاهر
٨٢٧ – عيسى بن يزيد الجلودى
٨٢٩ – عمير بن الوليد التميمى
– عيسى بن يزيد الجلودى((للمرة الثانية)
٨٢٩ – المعتصم العباسى
٨٣٠ – عبيدة جبلة
٨٣١ – عيسى بن منصور المرافقى
٨٣٢ – المأمون – وهو خليفة جاء ليخمد الفتنة
– نصر بن عبد الله (كيدر)
٨٣٤ – المظفر بن كيدر
– موسى الحنفى
٨٣٩ – مالك بن كيدر
٨٤١ – على بن يحى الأرمنى
٨٤٣ – عيسى بن منصور (للمرة الثانية)
٨٤٧ – هرثمة بن النادر بن نصر الجبلى
٨٤٩ – حاتم بن هرثمة
– على بن يحى (للمرة الثانية)
٨٥٠ – إسحق بن يحى
٨٥١ – عبد الواحد بن يحى
٨٥٢ – عنبسة بن إسحق بن شمر
٨٥٦ – يزيد بن عبد الله التركى

٨٦٧ – مزاحم بن خاقان
٨٦٨ – أحمد بن مزاحم
– أرغون طرخان
٨٦٨ – ٩٠٤ قيام الامارة الطولونية بمصر
٨٦٨ – أحمد بن طولون (١)
٨٨٤ – خمار ويه (٢)
٨٩٥ – أبو العساكر (٣)
٨٩٦ – أبو موسى هارون (٤)
٩٠٤ – شيبان أحمد بن طولون (٥)
٩٣٥ – نهاية الدولة الطولونية
٩٠٥ – ٩٣٥ عودة مصر للخلافة العباسية
إداريا وحكم الولاة الأتراك (كنوابها)
٩٠٥ – عيسى بن محمد النشارى
٩١٠ – تكين الخسا الجزيرى
٩١٥ – دكا الرومى
٩١٩ – تكين (للمرة الثانية)
٩٢١ – محود الحمل (لمدة ثلاث أيام)
– تكين (للمرة الثالثة)
٩٢٣ – أحمد بن كيغلغ
٩٢٤ – تكين (للمرة الرابعة)
٩٣٣ – محمد بن تكين
– محمد بن طغ (الأخشيد)
– أحمد بن كيغلغ (للمرة الثانية)
٩٣٤ – محمد بن تكين
٩٣٥ – ٩٦٩ قيام الدولة الأخشيدية (دولة
مستقلة ذاتيا عن الخلافة العباسية)

٩٣٥ - محمد بن طغ (لقب بالأخشيد) (١)
٩٤٦ - أبو القاسم أنجور (٢)
٩٦٠ - أبو الحسن على (٣)
٩٦٦ - أبو المسك كافور (٤)
٩٦٨ - أحمد أبو الفوارس (٥)
٩٦٩ - جوهر لمدة أيام وهو أخو كافور (٦)
٩٦٩ - ١١٧١ قيام الخلافة الفاطمية في مصر وإنفصالها عن الخلافة العباسية
٩٦٩ - المعز لدين الله (١)
٩٧٥ - العزيز بالله (٢)
٩٩٦ - الحاكم بامر الله (٣)
١٠٢١ - الظاهر (٤)
١٠٣٥ - المستنصر (٥)
١٠٩٤ - المستعلى (٦)
١١٠١ - الآمر (٧)
١١٣٠ - الحافظ (٨)
١١٤٩ - الظافر (٩)
١١٥٤ - الفائز (١٠)
١١٦٠ - العاضد (١١)
١١٧١ - نهاية الخلافة الفاطمية في مصر
١١٧١ - ١٢٥٢ قيام الدولة الأيوبية(سلاطين) وعودة مصر للخلافة العباسية إسميا
١١٦٩ - صلاح الدين الأيوبى (كوزيروسلطان) (١)
١١٩٣ - العزيز عماد الدين (٢)
١١٩٨ - المنصور محمد (٣)
١١٩٩ - العادل سيف الدين (٤)
١٢١٨ - الكامل محمد (٥)
١٢٣٨ - العادل الثانى (٦)
١١٢٦ - الصالح نجم الدين (٧)
١٢٤٩ - شجرة الـدر
(حكمت باسم زوجها الصالح بالنيابة)
١٢٥٠ - المعظم توارن شاه (٨)
١٢٥٠ - شجرة الـدر
(المرة الثانية) (مملوكية)
١٢٥٠ - ١٥١٧ قيام حكم المماليك في مصر (سلاطين)
١٢٥٠ - ١٣٨٢ الدولة المملوكية الأولى (المماليك البحرية)
١٢٥٠ - عز الدين إيبك
(الزوج الثانى لشجرة الدر)
١٢٥٧ - المنصور (نور الدين على)
١٢٥٩ - قطز (المظفر سيف الدين قطز)
١٢٦٠ - الظاهر ركن الدين بيبرس
(مؤسس دولة المماليك البحرية)
١٢٧٧-السعيد ناصر الدين بركة خان بن بيبرس
١٢٧٩ - العادل بدر الدين سلا مش بن بيبرس
١٢٩٠ - الاشرف صالح الدين خليل بن قلاوون
١٢٩٣ - الناصر الدين محمد بن قلاوون

١٢٩٤ – العادل زين الدين كتبغا
(من مماليك قلاوون)
١٢٩٦ – المنصور حسام لاجين
١٢٩٨ – الناصر محمد قلاوون
(للمرة الثانية)
١٣٠٨ – المظفر ركن الدين بيبرس الثانى
١٣٠٩ – الناصر محمد قلاوون (مرة ثالثة)
١٣٤١ – المنصور سيف الدين أبو بكر بن
الناصر
١٣٤١ – الأشرف على الدين كوجك بن
الناصر
١٣٤٢ – الناصر شهاب الدين أحمد بن
الناصر
– الصالح عماد الدين إسماعيل بن
الناصر
١٣٤٥ – الكامل سيف الدين شعبان بن
الناصر
١٣٤٦ – المظفر سيف الدين حاجى بن
الناصر
١٣٤٧ – الناصر ناصر الدين حسن بن
الناصر
١٣٥١ – الصالح صلاح الدين حسن بن
الناصر
١٣٥٤ – الناصر حسن (للمرة الثانية)
١٣٦١ – المنصور صلاح الدين محمد بن
حاجى

١٣٦٣ – الأشرف ناصر الدين شعبان بن
حسين بن الناصر
١٣٧٦ – المنصور علاء الدين على بن شعبان
١٣٨١ – الصالح صلاح الدين حاجى بن
شعبان
١٣٨٢ – الظاهر سيف الدين برقوق
(بداية المماليك البرجية)
١٣٨٩ – الصالح حاجى (للمرة الثانية)
لقب بالمنصور (وهو مملوك بحرى)
١٣٨٢ – ١٥١٧ حكم المماليك البرجية
(اشتهروا بالجراكسة أو الشراكسة)
١٣٨٢ – الظاهر سيف الدين برقوق
(مؤسس الدولة المملوكية البرجية)
١٣٨٩ – الصالح حجى (مملوك بحرى)
(للمرة الثانية)
١٣٩٠ – الظاهر سيف الدين برقوق
(مملوك برجى) (للمرة الثانية)
١٣٩٨ – الناصر فرج بن برقوق
١٤٠٥ – المنصور عز الدين
١٤٠٦ – الناصر فرج (للمرة الثانية)
١٤١٢ – الخليفة العباسى المستعين بالله
وتلقب بالملك العادل
١٤١٢ – المؤيد شيخ المحمودى
١٤٢١ – المظفر أحمد بن شيخ
١٤٢١ – الظاهر سيف الدين ططر (تتر)
١٤٢٢ – الأشرف سيف الدين برسباى

١٤٣٨ - العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى
- الظاهر سيف الدين جقمق
١٤٥٣ - المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق
- الاشرف سيف الدين إينال
١٤٦٠ - المؤيد شهاب الدين بن إينال
١٤٦١ - الظاهر سيف الدين خشقدم
١٤٦٧ - الظاهر سيف الدين يلبغا
١٤٦٨ - الاشرف سيف الدين قايتباى
١٤٩٥ - الناصر محمد بن قايتباى
١٤٩٨ - الظاهر قنصوه
١٤٩٩ - الاشرف جنبلاط
١٥٠٠ - الاشرف قنصوه الغورى
١٥٠١ - العادل طومنباى
- الاشرف قنصوه الغورى
١٥١٦ - الاشرف طومنباى
(آخر سلاطين المماليك أعدم على باب زويلة بعد دخول سليم العثمانى)
١٥١٧ - ١٩١٤ الحكم العثمانى لمصر
١٥١٧ - ١٧٩٨ حكم الولاة العثمانيين
(أخذ المماليك يسيطرون ثانية على الحكم منذ عام ١٧٠٤ بعودة نفوذ المماليك البكوات (الباشوات كما يسمى)
١٥١٧ - خيرى بك (كان من المماليك) .
١٥٢٢ - مصطفى باشا (أول وال عثمانى يحكم مصر) .
١٥٢٣ - أحمد باشا (عرف بالخائن لأنه تمرد على السلطان) (اسمه بكر بك الروملى) أصله كرجى .
١٥٢٤ - قاسم باشا .
١٥٢٥ - ابراهيم باشا .
١٥٢٧ - سليمان باشا الخادم .
١٥٣٨ - داود باشا .
١٥٤٩ - على باشا .
١٥٥٤ - محمد باشا زاده .
١٥٥٦ - اسكندر باشا .
١٥٦١ - على باشا الخادم .
- مصطفى باشا .
١٥٦٣ - على باشا الصفوى .
١٥٦٦ - محمود باشا .
١٥٦٧ - سنان باشا . (للمرة الأولى) .
١٥٧٣ - حسين باشا .
١٥٧٩ - حسين باشا مسيح .
١٥٨٠ - حسن باشا الخادم .
١٥٨٣ - ابراهيم باشا (أصبح الصدر الأعظم بالأستانة) .
١٥٨٤ - سنان باشا (للمرة الثانية) .
١٥٨٥ - عويس باشا .
١٥٩١ - أحمد باشا الخادم .
١٥٩٥ - كرد باشا .
١٥٩٦ - محمد باشا الشريف .
١٥٩٨ - خضر باشا .
١٦٠١ - على باشا السلحدار .
١٦٠٣ - ابراهيم باشا . (قتل) .
١٦٠٥ - محمد باشا الكورجى .
- حسن باشا .

١٦٠٧ – محمد باشا .
١٦١٠ – حسن باشا الوزير .
١٦١٢ – محمد باشا الصوفى .
١٦١٣ – أحمد باشا الدفتر دار .
١٦١٧ – مصطفى باشا لقعلى .
١٦١٨ – جعفر باشا .
١٦١٩ – مصطفى باشا (المرة الأولى)
١٦٢٢ – محمد باشا .
– ابراهيم باشا .
١٦٢٣ – مصطفى باشا (للمرة الثانية) .
١٦٢٧ – بيرام باشا .
١٦٢٩ – محمد باشا .
١٦٣٠ – موسى باشا .
١٦٣١ – حسن بك .
– خليل بك البستانجى .
١٦٣٣ – أحمد باشا الكرجى .
١٦٣٦ – حسن باشا .
١٦٣٨ – محمد باشا أحمد .
١٦٣٩ – مصطفى باشا البستانجي .
١٦٤٢ – منصور باشا .
١٦٤٥ – سفيان بك (بالنيابة) .
– أيوب باشا .
١٦٤٧ – محمد باشا حيدر .
١٧٤٨ – أحمد باشا .
١٦٥١ – عبد الرحمن باشا .
١٦٥٢ – محمد باشا السلحدار .

١٦٦٣ – عمر باشا .
١٦٦٦ – أحمد باشا .
١٦٦٧ – ابراهيم باشا .
١٦٧٤ – حسين باشا .
١٦٨٠ – عثمان باشا .
١٦٨٨ – حسين باشا السلحدار .
١٦٩٠ – أحمد باشا .
١٦٩١ – على باشا قلج (عزل) .
١٦٩٦ – مسلم اسماعيل .
١٦٩٨ – حسن باشا الوزير . (عزل) .
(للمرة الأولى)
١٧٠٢ – أحمد باشا قره محمد (عزل) .
١٧٠٥ – محمد باشا رامى (عزل) .
١٧٠٦ – مسلم باشا على (للمرة الأولى)
(عزل).
١٧٠٧ – حسين باشا الوزير (للمرة الثانية)
(عزل) .
١٧٠٩ – ابراهيم باشا القبو دان (عزل).
١٧١٠ – خليل باشا .
١٧١١ – ولى باشا .
١٧١٢ – عابدين باشا (عزل) .
١٧١٦ – مسلم على باشا (للمرة الثانية)
١٧١٧ – على باشا الازميرلى .
١٧١٨ – رجب باشا .
١٧٢٠ – محمد باشا البستانجى .
١٧٢٩ – باكير باشا . (للمرة الأولى)

١٩٢٩ – عبد الله باشا الكبورلى .
١٧٣٢ – محمد باشا السلحدار (عزل).
١٧٣٤ – عثمان باشا الحلبى (عزل) .
١٧٣٥ – باكير باشا (للمرة الثانية) .
١٧٣٦ – مصطفى باشا .
١٧٣٩ – سليمان باشا الشامى (ابن العظم)
١٧٤٠ – على باشا حكيم أوغلى
(المرة الأولى) (عزل) .
١٧٤١ – يحى باشا (عزل) .
١٧٤١ – محمد باشا اليد كشى (عزل) .
١٧٤٥ – مسلم باشا راغب .
١٧٤٨ – أحمد باشا كور .
١٧٥٠ – شريف عبد الله باشا .
١٧٥٣ – محمد أمين باشا .
– مصطفى باشا .
١٧٥٦ – على باشا حكيم أوغلى
(للمرة الثانية) .
١٧٥٨ – محمد سعيد باشا .
١٧٥٩ – مصطفى باشا .
١٧٦١ – أحمد باشا كامل صبطلان .
١٧٦٢ – باكير باشا .
– حسن باشا .
١٧٦٥ – حمزة باشا .
١٧٦٧ – محمد راقم باشا .
١٧٦٨ – محمد الأورفلى باشا .
١٧٧٠ – أحمد باشا .
– قرة خليل باشا .
١٧٧٣ – خليل باشا .
١٧٧٤ – مصطفى باشا النابلسى .
١٧٧٥ – ابراهيم باشا عرب كيرلى .
١٧٧٦ – محمد عزت باشا (الكبير)
(المرة الأولى) .
١٧٧٩ – اسماعيل باشا (عزل) .
– ابراهيم باشا (مدة ثلاثة شهور)
– اسماعيل باشا (للمرة الثانية) .
١٧٨٢ – على القصاب باشا .
١٧٨٣ – محمد باشا (عزله المماليك).
١٧٨٥ – محمد يكن باشا .
١٧٨٧ – عابدين باشا الشريف .
١٧٨٩ – اسماعيل باشا التونسى (عزل)
١٧٩٢ – محمد عزت باشا (للمرة الثانية)
(لقب بأبى مرق) .
١٧٩٤ – صالح باشا القيصرلى .
١٧٩٦ – بكر باشا الطرابلسى
(عاصر الحملة الفرنسية) .
١٧٩٨ – نابليون بونابرت
(الحملة الفرنسية) .
١٧٩٩ – الجنرال كليبر الفرنسى .
١٨٠٠ – الجنرال عبد الله جاك مينو الفرنسى .
١٨٠١ – محمد باشا خسرو (أول وال بعد الحملة الفرنسية) . (للمرة الأولى) .

١٨٠٣ - أحمد طاهر باشا (عزل و قتل).
- أحمد باشا والى جدة (مؤقت) .
- على باشا برغل (الجزايرلى
أو الطرابلسى) (عزل وقتل) .
١٨٠٤ - محمد باشا خسرو (للمرة الثانية)
- أحمد باشا خورشيد (عزله محمد على)
١٨٠٥ محمد على باشا (أخر وال عثمانى)
قبل حصوله علي الحكم الذاتي لمصر
١٨٠٥ - ١٩٥٣ حكم أسرة محمد على
(عرفت بالأسرة العلوية)
١٨٠٥ - محمد على (١)
١٨٤٨ - إبراهيم باشا ابن محمد على
(حكم في حياة أبيه بعد عزله) (٢)
١٨٤٩ - عباس حلمى بن طوسون
(حكم في حياة جده محمد على) (٣) قتل
١٨٥٤ - محمد سعيد باشا ابن محمد على(٤)
١٨٦٣ - اسماعيل بن إبن إبراهيم باشا
(أول من تلقب بالخديوى) (٥) عزل
١٨٧٩ - محمد توفيق بن إسماعيل
(خديوى) (٦)
١٨٩٢ - عباس الثانى إبن توفيق (أخر من
تلقب بالخديوى) خلع (٧)
١٩١٤ - حسين كامل (أول سلطان)(٨)
١٩١٧ - أحمد فؤاد
(سلطان وملك عام ١٩٢٣) (٩)
١٩٣٦ - فاروق الأول (١٠) خلع
١٩٥٢ - أحمد فؤاد الثانى (أمير تحت
الوصايا عزل عام ١٩٥٣) (١١)
١٩٥٣ - مصر جمهورية ديموقراطية
١٩٥٣ - محمد نجيب (أول رئيس
للجمهورية عزل عام ١٩٥٤) (١)
١٩٥٦ - جمال عبد الناصر (أصبح عام
١٩٥٨ حتى ١٩٦١ رئيس الجمهورية
العربية المتحدة) (٢) بعد الوحدة بين مصر
وسوريا .
١٩٧٠ - محمد أنور السادات (أغتيل(٣)
١٩٨١ - د. محمد صوفى أبو طالب
(لمدة أيام) (٤)
١٩٨١ - محمد حسنى مبارك (٥)

دول إسلامية حكمت مصر

١- الدولة الإسلامية الأولى

حكمها عام:

٦٢٢ – الرسول (صلى الله عليه وسلم)

٦٣١ – ابو بكر الصديق

٦٣٤ – عمر (قتل) بالمدينة

٦٤٤ – عثمان (قتل) بالمدينة

٦٥٦ – على (قتل) بالكوفة

٢- الدولة الأموية الأولى:

بدمشق ؛ حكمها عام :

٦٦١ – معاوية ابن ابي سفيان (مؤسس الدولة)

٦٨٠ – يزيد بن معاوية

٦٨٣ – معاوية بن يزيد

٦٨٣ – مروان بن الحكم بن العاص

٦٨٥ – عبد الملك بن مروان

٧٠٥ – الوليد بن عبد الملك

٧١٥ – سليمان بن عبد الملك

٧١٧ – عمر بن عبد العزيز

٧٢٠ – يزيد بن عبد الملك

٧٢٤ – هشام بن عبد الملك (منه انحدر الفرع الاموى بالاندلس)

٧٤٣ – الوليد بن يزيد بن عبد الملك

٧٤٤ – يزيد بن سليمان بن عبد الملك

٧٤٤ – أبراهيم بن سليمان بن عبد الملك

٧٤٤ – مروان بن محمد بن مروان (آخر الحكام الامويين بدمشق)

٣- الدولة العباسية الأولى

ببغداد . حكمها عام :

٧٥٠ – السفاح

٧٥٤ – المنصور

٧٧٥ – المهدى

٧٨٥ – الهادى

٧٨٦ – هارون الرشيد

٨٠٩ – الامين

٨١٣ – المأمون

٨٣٣ – المعتصم

٨٤٢ – الواثق

٨٤٧ – المتوكل

٨٦١ – المنتصر

٨٦٢ – المستعين

٨٦٦ – المعتز

٨٦٩ – المهتدى

٨٧٠ – المعتمد

٨٩٢ – المعتضد
٩٠٢ – المكتفى
٩٠٨ – المقتدر
٩٣٢ – القاهر
٩٣٤ – الراضى
٩٤٠ – المتقى
٩٤٤ – المستكفى
٩٤٦ – المطيع
٩٧٤ – الطائع
٩٩١ – القادر
١٠٣١ – القيم
١٠٧٥ – المقتدى
١٠٩٤ – المستظهر
١١١٨ – المسترشد
١١٣٥ – الراشد
١١٣٦ – المقتفى
١١٦٠ – المستنجد
١١٧٠ – المستدعى
١١٨٠ – النصير
١٢٢٥ – الظهير
١٢٢٦ – المستنصر
١٢٤٢ – المستعصم (في عهده سقطت بغداد عام ١٢٥٨م على أيدى المغول)

٤- الخلافة العباسة الثانية:

في القاهرة . تولاها عام :

١٢٦١ – المنتصر
١٢٦٢ – الحاكم
١٣٠٢ – المستكفى
١٣٣٩ – الواثق
١٣٤٠ – الحاكم الثانى
١٣٥٢ – المعتضد
١٣٦٢ – المتوكل (خلع)
١٣٧٧ – المعتصم (خلع)
١٣٧٧ – المتوكل (عاد ثانية)
١٤٠٥ – المستعين
١٤١٣ – المعتضد الثانى
١٤٤٠ – المستكفى الثانى
١٤٥١ – القيم
١٤٥٤ – المستنجد
١٤٧٩ – المتوكل الثانى
١٤٩٧ – المستمسك (خلع)
١٤٩٨ – المتوكل الثالث (خلع)
١٥١٦ – المستمسك (عاد ثانية)
١٥٢١ – المتوكل الثالث (عاد ثانية)
١٥٣٨ – الغيت الخلاف العباسية نهائيا على ايدى العثمانيين .

٥- الدولة العثمانية :

حكمها العثمانيون عام :

١٢٩٩ – عثمان الأول (مؤسس الدولة)
١٣٢٦ – ارخان
١٣٥٩ – مراد الأول
١٣٨٩ – بايزيد الأول

١٤٠٣ - محمد الأول

١٤٢١ - مراد الثانى

١٤٥١ - محمد الثانى (لقب بالفاتح لفتحه القسطنطينية)

١٤٨١ - بيازيد الثانى

١٥١٢ - سليم الأول (فتح مصر والشام)

١٥٢٠ - سليم الأول (لقب بالقانونى والعظيم)

١٥٦٦ - سليم الثانى

١٥٧٤ - مراد الثالث

١٥٩٥ - محمد الثالث

١٦٠٣ - أحمد الأول

١٦١٧ - مصطفى الأول (خلع)

١٦١٨ - عثمان الثانى (خلع وقتل)

١٦٢٢ - مصطفى الأول (عاد ثانية)

١٦٢٣ - مراد الرابع (خلع)

١٦٤٠ - إبراهيم

١٦٤٨ - محمد الرابع (خلع)

١٦٨٧ - سليمان الثانى

١٦٩١ - أحمد الثانى

١٦٩٥ - مصطفى الثانى

١٧٠٣ - أحمد الثالث (خلع)

١٧٣٠ - محمود الأول

١٧٥٤ - عثمان الثالث

١٧٥٧ - مصطفى الثالث

١٧٧٤ - عبد الحميد الأول (خلع)

١٨٠٧ - مصطفى الرابع

١٨٠٨ - محمود الثانى

١٨٣٩ - عبد الحميد

١٨٦١ - عبد العزيز

١٨٧٦ - مراد الخامس

١٨٧٦ - عبد الحميد الثانى (خلع)

١٩٠٩ - محمد الخامس

١٩١٨ - محمد السادس (خلع عام ١٩٢٢ بعد إعلان أتاتورك الجمهورية التركية)

للمؤلف

- الأزهر في ألف عام (طبعتان)

(صدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر)

- القاديانية .. الخطر الذى يهدد الإسلام .

(دار النهضة العربية)

- خفايا الطائفة البهائية .

(دار النهضة العربية)

- عدة دراسات وأبحاث ومقالات نشرت في الصحف والمجلات المصرية .

- أشرف على مجلتى :

(الصيدلة والدواء) و(النشرة الصيدلية المصرية)

وكان رئيسا لتحرير مجلة (صيادلة القاهرة)

*****

***

*

الفهرس

****
*****
**
*